AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
2 0 JUL 1968
HARISSA TEL. 72

848
C848mA
c.1

رواية

اميرة انكلترة

ترجمت للمقتطف

من رواية اميرة انكلترة الانكليزية

بقلم

اسعد افندي داغر

طبعت في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٧

مكتبة العرب
اصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
بشارع الفجالة
بمصر

رواية

اميرة انكلترة

مقدمة

وضعت هذه القصة الكاتبة الفرنسوية مدام صوفيا كوتين وقد نسجت سداها من تاريخ البعثة الصليبية الثالثة التي جرّدها اهل اوربا على السلطان صلاح الدين الايوبي في اواخر القرن الثاني عشر على اثر فتحهِ لبيت المقدس وجعلت لحمتها الغرامية حبّ الملك العادل اخي صلاح الدين للاميرة متيلدة شقيقة رتشرد ملك انكلترة وأدمجت حوادث الحبّ في عرض سرد المعارك الدموية التي اقتضتها هذه البعثة ومثّلت وقائع الحرب والغرام في مصر والشام تمثيلاً جمع بين حسن الوصف وبلاغة الرصف وسهولة الايراد وصحة الانتقاد فكان اصدق دليل على براعة المؤلفة وطول باعها في هذا الفن الجليل

وقد قرأت روايتها في اللغة الانكليزية ورأيت ان اترجمها الى اللغة العربية لقرّاء المقتطف وانا واثقٌ انهم يرون رأيي فيها ويجدونها من افضل القصص التي تحسن مطالعتها في اوقات الفراغ

ولكنها لمّا كانت موضوعة في مجلدين لم ارَ بدًّا من مخالفة الاصل في اماكن كثيرة منها تلخيصاً واختصاراً حتى تجيء الترجمة على قدر ما يحتملهُ المقام ولا تزيد عن الفراغ المعيَّن لها في المقتطف والسلام

المترجم

اميرة انكلترة

الفصل الاول

تأهُّب واستعـداد

بعد حصار طويل اسال الدماء بحورًا دخل صلاح الدين مدينة القدس ظافرًا منصورًا فشق على اهل اوربا سماع هذا الخبر وشخص وليم رئيس اساقفة صور الى رومية واخبر البابا أُربان الثالث بما كان فانقضَّ عليهِ هذا النبأ انقضاض الصاعقة وخرَّ عند سماعهِ مائتًا وقضى بين ذراعي رئيس الاساقفة آسفًا ولا يردُّ الاسف فائتًا

وعلى الفور نشر خلفهُ غريغور يوس الثامن منشورًا يأمر بهِ باعداد بعثة صليبية جديدة وعهد باذاعة هذا المنشور الى رئيس الاساقفة فطاف بهِ اوربا محرضًا منشطًا يستفز الاقوام بقوة عارضة نادرة المثال وبلاغة منطق هي السحر الحلال ولم يزل يجهر في النداء ويلج في الدعوة وهو يوقظ العزائم المتناعسة وينهض الهمم المتقاعسة ويوطن النفوس ويؤلف القلوب على خوض غمرات القتال حتى بلغت كلماتهُ عروش الملوك والقياصرة فنهضوا بنفس واحدة وتحالفوا على الجهاد متعاهدين بانهم لا يتركون السلاح ولا يطوون رايات الحرب والكفاح حتى يدخلوا بيت المقدس ويسترجعوا المدينة التي عدوا سقوطها عارًا عليهم لا يحتمل ولا يزيلهُ عنهم الاَّ استردادها بالعجل

وكان في مقدمة الملوك المحالفين رتشرد الاول ملك انكلتره (الملقب بقلب الاسد) وفيليب اغسطس ملك فرنسا وقد عسكر كل منهما في سهل ينتظر تجمع جيشهِ الذي كان عددهُ يزداد يوميًا تلبية لدعوة رئيس اساقفة صور

ثم افترق هذان الملكان بعد ما تواعدا ان يجتمعا في مسينا فاقلع فيليب من جنوى ورجع رتشرد الى لندن ليعهد بادارة الملك في غيابهِ الى اخيهِ يوحنا وسبقتهُ خطيبتهُ برنغاريا الى صقلية حيث ترتب انهُ يحتفل بالاقتران بها

وكانت خطيبتهُ هذه ابنة الدون سانكو دي ناثر وكان لها نصيب وافرٌ من المجملات

الادبية التي استمالت بها قلب ذلك الملك العظيم فآثرها على كثيرات من الاميرات الحسان اللواتي كان يشار الى جمالهنَّ بالبنان وفضلها حتى على اليكس شقيقة فيليب اغسطس التي طالما حاولت اصطياد قلب الاسد بجبائل المحاسن ولم تظفر منهُ بطائل لانهُ رأى ان حسنها المنقطع النظير ينقصهُ من الآداب شيءٌ كثير . وهكذا تغلبت فتاة الادب والكمال على غادة الحسن والجمال وفازت باستمالة قلب رجل كان من اعاظم الرجال

وقبلما خرج رتشرد لطيتهِ البعيدة المحفوفة بالمصاعب والمخاطر رام الاشتراك في الاحتفال بترهُّب اختهِ الصغرى الاميرة متيلده التي لم يرَها قط منذ طفوليتها وكان لا يرجو انهُ يراها بعد الآن . فاراد قبل ان يحجبها ثوب الرهبنة عن نظر العالم او يسقط هو صريعاً في ساحة الجهاد ان يتعرَّف بها ويودّعها الوداع الاخير

فخرج في بطانتهِ ومعهُ رئيس اساقفة صور (الذي كان مزمعاً ان يرئس الاحتفال بترهُّب اختهِ) الى ذلك الدير الذي وُضعت فيهِ بعد ولادتها باشهر قليلة وكانت عازمة ان تبقى فيهِ الى الابد

وكانت افكار هذه الاميرة لا تتعدَّى حدود الدير الذي قضت فيهِ ست عشرة سنة ولا تتجه نحو شيءٍ آخر سوى الطهارة المطبوعة عليها وعيشة التبتل التي دُعيت منذ نعومة اظفارها اليها . فلم تعلم شيئاً عن شرف اصلها ولا عن رائع جمالها . وقلما درت باحوال العالم الخارجي الذي لم تخترق اصواتهُ حجاب السكون السائد على الدير

ولما اقبل اخوها ومن معهُ اسرعت الى استقبالهِ وقد وردَّ السرور وجنتيها وشعرت اول مرةٍ في حياتها بفرحٍ غير متعلّق بنذورها

وبعد ما استقبلت رئيسة الدير وراهباتهِ ضيفهنَّ العظيم ورحبن بهِ الترحيب اللائق بشأنهِ ذكر على مسامعهنَّ الغرض الذي لاجلهِ عزم على الزحف بجيوشهِ الى الارض المقدسة راكباً الاهوال ومقتحماً الاخطار حبًّا بشأن الدين والذود عن ذمارهِ وشرع يصف بفصاحتهِ المعهودة سقوط المدينة المقدسة والمشاق العظيمة القائمة في سبيل الناهضين للجهاد في استرجاعها والافراح المعدة لاولئك الذين نشطوا للأخذ في هذا العمل الخطير

فانشأ هذا الكلام ميلاً جديداً في قلب الاميرة متيلدة ولم تلبث أن أعلنت رغبتها في مرافقة اخيها الى الارض المقدسة قبل ان تنحجب عن العالم

ولم تجد لها معارضاً في ذلك لأن زيارة الارض المقدسة كانت تعدُّ في تلك الايام اعظم ضحيةٍ مقبولةٍ عند الله وخير استعدادٍ للتبتل

فتقدمت الرئيسة الى متيلدة وجعلت في عنقها ذخيرة علامة ايمانها الرمزية واخذتها الى الملك ووضعت يدها في يده وقالت : —

" لا تستطيع جلالتك ان تدرك قيمة هذه الوديعة التي استودعك اياها ولا ما يذخره فؤادها من الطهارة والتقوى . واني أتوسل الى العناية السرمدية ان تقي هذه النفس الشريفة وتحمي حياتها الطاهرة . "

ثم التفتت الى رئيس الاساقفة وقالت :—

" واما أنت ايها الاب المحترم فاني استودعك نفساً انقطعت منذ طفوليتها لعبادة الله وأرجو ان تبقيها اهلاً لهذا المقام السامي الخطير . وانت يا ابنتي العزيزة احرصي على قلبك حتى لا تبتلعه كبرياء حصولك على هذا الامتياز العظيم ولا تدعي حمامة الوداعة والتواضع تهجر حمى نفسك الطاهر واذكري على الدوام انهُ ما من مقام — مهما كان رفيعاً ولا من طبيعة — مهما كانت مقدسة — في أمنٍ من التجربة . فسدّي أذنيك دون الاصوات التي يُراد بها تجربتك واغراؤك واصغي على الدوام الى ما يُسرهُ اليك الروح القدس فلا يعود لصوت العالم سبيل للبلوغ اليكِ "

فقال الملك :— " كوني مطمئنة ايتها الرئيسة المحترمة فبحول الله وقوة حسامي تكون أختي في معسكري كما كانت ضمن اسوار هذا الدير من حيث الأمن والاعتزال عما يكدّر صفاء طهارتها ونقاوة آدابها "

ثم اشار بالانصراف وخرج بعد ما ودّع الرئيسة والراهبات اللواتي ودّعن متيلده الوداع الاخير واستودعنها عناية القدير

ولما اخذت اسوار الدير تتوارى عن نظرها شيئاً فشيئاً ابتدأت تضطرب وتنزعج ولاسيما لما لاح لديها الافق عن بعد شاسع فسألت اخاها بحيرةٍ ولهفة عن المسافة التي تفصلهما عن الارض المقدسة فاجابها ضاحكاً من سذاجتها : —

" يجب ان نقضي يا عزيزتي اياماً بل شهوراً طوالاً قبل ان نصل الى المكان المقصود . ولكن ماذا يخيفك يا متيلدة اما قلتُ لكِ منذ هنيهة ان هذا الصارم البتّار يقيكِ جميع المخاوف والاخطار "

ولا حاجة الى وصف المؤثرات التي احاطت بنفس متيلدة في اثناء هذا السفر الطويل المحفوف بالمشاق والاهوال . فللقارىء ان يتصوّر ما تؤثرهُ انواء البحار وعصف الرياح وعجيج الامواج وصراخ البحارة واغاني العساكر في فؤاد فتاةٍ لم تعرف قبل الآن غير غرف الدير ولم

تسمع سوى اصوات الراهبات في إنشاد التسابيح

ولما بلغ رتشرد مسينا عرّف اختهُ بخطيبتهِ وما ابطأت هاتان الفتاتان ان تعارفتا وتآلفتا ووجدت كلٌّ منهما برفيقتها خير ما صبت اليهِ نفسها

الفصل الثاني

تاج واكليل

ان الاختلاف الذي نشأ بين رتشرد وفيليب اغسطس وكان منشأهُ في الغالب تنكرد ملك صقلية المنافق حال دون احتفال ملك انكلترا باقترانهِ بخطيبتهِ في مسينا ولم يعد يتمكن من هذا الاحتفال الاّ بعد غلبتهِ على قبرس

فبعد ما قهر امحق ملك قبرس واستأثر بعرشهِ زاد تاجاً آخر على رأس برنغاريا

ولما ذاعت انباء انتصارهِ اسرع اليهِ لوسيان ملك القدس وهو شابٌّ متغطرس متصلفٌ لم يتمكن من صيانة عرشهِ مع شدة بسالتهِ وشجاعتهِ . وكان في هذا الوقت مخلوعاً مطروداً وقد ضعف حقهُ في المطالبة بهِ لان كونراد مركيز مونفرات كان يعارضهُ فيهِ

على ان نفسهُ ظلّت تحدّثهُ بامكان استرجاع تاجهِ من ايدي اعدائهِ ولهذا جاء يستعين برتشرد على مناظرهِ كونراد الذي اخذ فيليب اغسطس بناصرهِ وصرّح حين جاء الى سورية بصدق دعواهُ وصحة طلبهِ . فقويت شوكة كونراد حاكم صور المدينة الوحيدة التي بقيت في حوزة الصليبيين في سورية واغلق ابواب عاصمتهِ في وجه لوسيان ورفع عليها راية التمرد والعصيان

وكان ريموند امير انطاكية وبوهيموند امير طرابلس ورينود امير صيداء وليونراد امير ارمينية وغيرهم من امراء الصليبيين قد صحبوا لوسيان الى قبرص يتظلمون الى رتشرد ويستعينون بهِ على ردّ حقوقهم المهضومة فوعدهم بانهُ لن يبرح بلاد الشام حتى يثبت كلاًّ منهم في امارتهِ لكنهُ ابى لعزة نفسهِ قبول ما عرضوهُ عليهِ وهو ان يكون ملكهم المطلق السيادة ويكونوا هم أمراء تابعين لهُ يؤدون اليهِ الجزية . وطلب منهم ان يمكثوا عندهُ ويحضروا احتفال اقترانهِ ببرنغاريا فاجابوهُ الى ما طلب بمسرةٍ وارتياحٍ لا مزيد عليهما

وقد جرى ذلك الاحتفال على وجهٍ تجلّت فيهِ الابهة والعظمة بابهى المجالي وابهر المظاهر وكان اول احتفال دنيوي حضرتهُ متيلدة وهي سادلة برقعها الطويل على محياها الجميل فاذهلها هذا المشهد العظيم وراع طهارة نفسها

وكان لوسيان جالساً بجانب اخيها الملك فاستشفَّ من خلال برقعها لمحات من حسنها البديع انشأت فيهِ ميلاً شديداً اليها . ولكنهُ ما أبطأ ان ذكر زوجتهُ سيبل ونذور متيلدة الدينية فتصوَّر الموانع التي تحول دون الجري في سبيل هذا الميل الجديد واضطر ان يطويهُ في صدرهِ على علاتهِ ولا يبوح بهِ في الوقت الحاضر الاَّ لذاتهِ

وبعد انقضاء احتفال الزواج نهض الملك رتشرد يتأهَّب للاقلاع الى فلسطين . لكنهُ اذ علم من لوسيان ان بحر الروم مغشي بسفن العرب من شمال سورية الى مصر وان الملك العادل اخا صلاح الدين واعظم ابطال الشرق يروح ويجيء في عرض البحر ابى ان يسمح لزوجتهِ وشقيقتهِ بالذهاب معهُ والتعرض لاخطار الحرب التي تتهددهُ وحدثتهُ نفسهُ المطبوعة على ركوب الاهوال ومصادمة الابطال ان يلاقي خصمهُ في ساحة لاتعاق فيها ذراعهُ الشديدة عن الطعن والضرب بالدفاع عن اعز الناس عندهُ . فارتأى ان يتركهما واعوانهما في قبرس وينطلق هو اولاً برجالهِ حتى اذا بلغ العرب خبر خروجهِ تجمعوا عليهِ من كل صوبٍ وتركوا البحر مفتوحاً . وبناءً عليهِ امر ان السفينة المعدة لزوجتهِ واختهِ وحرسهما لاتقلع من قبرس حتى يكون هو وجيشهُ قد دخلوا ميناء عكاء

فاذعنت متيلدة لمشيئة اخيها بلا توقف لانها متعودة على الطاعة الكاملة منذ ميطت عنها التمائم . اما برنغاريا فراعها خبر هذا الفراق التجائي وجثت عند قدمي زوجها متوسلة اليهِ ان يسمح لها بان تقاسمهُ الاخطار المزمع ان يخوض غمراتها

وعلى رغم شدة تأثرهِ من حزنها واكتئابها لبث مصرًّا على عزمهِ موضحاً لها ان حضورها معهُ يضعف شجاعتهُ التي لم يعترها ضعف حتى الآن ويحدث فيهِ قلقاً واضطراباً لم يشعر بهما من قبل وربما اضطرَّ ان يتنكب حرباً لابد لهُ من خوض غمارها واقتحام اخطارها

وكان من عزم الملكة ان تزيد في اللجاج وتكثر من الالحاح ولكن الملك كان ذا عزيمة ماضية لم يُقدم احد قط على معارضتها فاشار الى الملكة ان تلوذ باطراف السكوت وتجيبهُ الى ما اراد بملء الطاعة والامتثال . وبناءً عليهِ سكتت خوفاً من غيظهِ ولم تحرْ جواباً

ولما أقلع من قبرس سار معهُ ملك القدس واعوانهُ الامراء وبقي مع الملكة دوق نورثمبرلند ودوق غلوستر وسيمون دي مونتفورت كونت ليستر وبعض اشراف فرنسا منهم البطل أدم دي تورين كبير الحجاب وانجوران دي فاين وجوسلين دي مونمورانسي وهذا الاخير كان شاباً حسن المنظر جميل الطلعة شديد البأس ومع انهُ كان في مقتبل العمر وزهرة الصبوة فلقد طالما عمل اعمال صناديد الرجال وأقدم إقدام اعظم الابطال

واراد رتشرد ان يبقى رئيس اساقفة صور مع زوجتهِ وشقيقتهِ نخاطبهُ رامقاً الملكة بنظرٍ يشفُّ عن شيءٍ من التوبيخ اللطيف :—

"انهما مفتقرتان ايها الاب المحترم الى تعليمك اياهما ان تعبدا الله بالصبر والطاعة كما نعبدهُ نحن بالقوة والبسالة"

وبينما كان رتشرد واعوانهُ في عرض البحر طلع عليهم مركبان من مراكب العرب وفي كلٍّ منهما ثماني مئة رجل . وبعد قتال عنيف استظهر الصليبيون عليهما فاغرقوا احدهما واسروا الآخر واستأنفوا المسير بلا معارضٍ حتى رست سفنهم امام عكاء في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١١٩١

ولما دخل لوسيان المدينة بلغهُ خبر وفاة زوجتهِ سيبل فأزال هذا النبأُ مانعاً كبيراً من طريق آمالهِ التي علل نفسهُ بها حين رأى متيلدة لكنهُ هدَّدهُ في الوقت نفسهِ بخسارة فادحة من وجهٍ آخر لأن سيبل ابنة بودوين ووارثة عرش القدس الذي لم يتمكن من الجلوس عليهِ الاَّ بالاقتران بها . والآن بموتها يتحوَّل هذا الحق الى شقيقتها زوجة خصمهِ مركيز مونتفرات فترجح كفتهُ عليهِ . لكنهُ مع هذا كلهِ ظلَّ متقوياً برتشرد ولم ينفك يجاهر بحقّ انتقال الملك اليهِ . وكان من حزبهِ البيسانيون والقليون وامراء مار يوحنا . واما الهيكليون والجنويون والالمانيون المنقادون الى فيليب اغسطس فكانوا من حزب كونراد مركيز مونتفرات الذي تباهى بكونهِ حاكم صور وعزيءٌ بمناظرهِ لوسيان الذي كان ملكاً بلا تاجٍ ولا شعبٍ

وفيما كانت هذه المظاهرات العدائية مستحكمة في معسكر الصليبيين كان السلطان صلاح الدين يعنى بتحصين بيت المقدس وتوفير اسباب مناعتهِ حتى لا يقوى اعداؤهُ على استرجاعها في المستقبل

وكان معسكر رتشرد في جهة البحر بحيث يسهل عليهِ ان يرقب حركات المحاصَرين ويمنع عنهم النجدات برًّا وبحرًا

وفي شرق المدينة خفقت رايات فيليب اغسطس مقابل امنع ابراجها المدعو بالبرج "الملعون" . وفي قلب المعسكر نشرت اعلام النسر الالمانية . وكانت هذه الجيوش الثلثة تتميز بعضها عن بعض بلون الصليب المعلق بهِ راياتها . فكان في راية فرنسا احمر قانياً وفي راية المانيا ابيض يققاً وفي راية انكلترا اخضر حائلاً

وكان ديوان رتشرد يفوق الدواوين الاخرى في مظاهر الابهة والعظمة وفاخر الاثاث والرياش . اما ديوان فيليب فكان بسيطاً جدًّا من هذا القبيل لكنهُ عامر بنخبة اشراف فرنسا وعظمائها

ولم يستحسن رتشرد ان يقضي الزمان باطلاً في ظلال الترف والتنعم فالحّ بوجوب تشديد الحصار على عكاء لأن الاسراع في فتحها يسهل عليهم استرداد القدس. لكن كونراد المتغطرس أبى ان يترك حصنهُ صور ويشدّ ازر الصليبيين ما لم يعدوهُ بتاج بيت المقدس . وظلّ فيليب ايضاً ملازماً جانب السكون غير مبدٍ في هذا الامر حراكاً لانهُ احبّ ان يؤيد كونراد في ما اراد ورام ان يخالف رتشرد في رأيهِ تشفياً منهُ او حسداً لهُ فلم يوافقهُ على تشديد الحصار ولا شاركهُ في الهجمات العامة بل اقتصر على مناوشات طفيفة ليست بذات شأن

ولما رأى العساكر ما بين اعاظم قادتهم من الشقاق وعدم الاتفاق جاهروا بالتذمر والشكوى وانكروا عليهم هذا الفعل المعيب الذي يخشون انهُ يحول دون بلوغ الغاية التي تجنّدوا للجهاد في سبيلها ويريحوا اوطانهم حباً بتحصيلها

وكان لوسيان هذه المدة كلها ملازماً للملك رتشرد متصلاً بهِ غير منفصل عنهُ دقيقة واحدة — لانهُ منذ وفاة قرينتهِ سبيل أصبح يتوقع صحة ما حلم بهِ من جهة الاميرة متيلدة . وقد نشطهُ الى ذلك ما تمكّن بينهُ وبين اخيها من علاقات الصداقة وصلات المحبة — فكان رتشرد مرجع نجاح لوسيان وتحقق امانيهِ في الامرين — متيلدة وعرش القدس

ولما كان رتشرد صادق العاطفة سليم النية انخدع بملك لوسيان وتملقهِ ولم يرتب في صدقهِ وإخلاصهِ فازداد تعلقاً بهِ حتى انهُ لم يعد قادراً على مفارقتهِ . فكانا من ذلك الحين ينامان في خيمة واحدة ويأكلان على مائدة واحدة ويحاربان في جهة واحدة . ويقتسمان الغنائم بنسبة واحدة حتى اوشكا ان يكونا شخصاً واحداً ونفساً واحدة

الفصل الثالث

أمر الملكة والاميرة

اما الملكة فكانت منذ فارقها الملك تقضي معظم وقتها في البكاء والصلاة ممثلة لعينيها ذهاب من تحبهُ نفسها فريسة في ايدي الاعداء وكثيراً ما رأتهُ في نومها مضرّجاً بالدماء او راسفاً بقيود الاسر يقاسي صروف العناء . وقد حاول رئيس اساقفة صور تسكين اضطرابها وازالة قلقها فكان كمن يحاول ان يقبض الهواء او يكتب على صفحات الماء . على ان ما عجز عنهُ رئيس الاساقفة تمّ بما لا مزيد عليهِ من السهولة والسرعة عند وصول المرسلين من قبل الملك يدعونها اليهِ

ومع ان البسالة عُدّت في هاتيك الايام من لوازم الامارة ومميزاتها وكان حرس الملكة

من اعظم اشراف اوربا وأمرائها لم يكن واحدٌ منهم يجسر ان ينظر الى اقنوم متيلده الطاهر الاَّ بعين الخشية والوقار لأنها مع ما ازدانت بهِ من رائع الحسن وفائق الجمال كانت ممتازة بمظهر طهارة وصلاح تسكن عندهُ كل حركة تنشأ عن الميل العالمي . وذلك كان واقياً لها من جوامح الحبّ وطوامح الاهواء . وقلما كانت تظهر للرجال ولكنها اذا ظهرت كان الناظر اليها مطرقة متحجبة يتحوَّل عن الاعجاب بمنظرها الوسيم الى الخشية والوقار والتجلة والتكريم قائلاً في نفسهِ ما هذه بشرًا ان هي الاَّ ملك كريم

وكانت الملكة قد ألفتها واحبتها حبًّا لا مزيد عليهِ . فشقَّ عليها ان تراها في هذه العيشة الخشنة المقضية بالتقشف وقمع الجسد وحبس النفس حتى انها حاولت غير مرة ان توقظ مطامعها بالاشارة ولو من طرف خفيّ الى الامراء والملوك الذين يودون ان يطرحوا تيجانهم عند قدميها متسابقين الى نيل نعمة في عينيها . وكثيرًا ما مثلت لها الافراح الناشئة عن الاتحاد بالزواج فلم تلقَ منها الاَّ اعراضاً وارتباكاً — لا خوفاً من التجربة بل انكارًا لاشارات كهذه تأباها نفسها الطاهرة ويمجها ذوقها الصالح

وبعد ما اقلعت السفينة التي استقلتها الملكة واعوانها من جزيرة قبرص جرت الرياح على ايثارها ووفق مشتهاها وسارت تشق عباب المياه حتى اقبلت على عكاء واستطاع الركب ان يتبينوا المدينة ولو على بعد شاسع . واذ ذاك هبت ريح عاصف بقوة لاتقاوم وخيبت كل مساعي البحارة في دفع السفينة الى البر

وظلت السفينة ساعات تترنح ترنح السكران وتضطرب اضطراباً ضاعت في تسكينهِ حيلة البحارة والربان حتى كانت اشبه بكرة تتقاذفها التيارات المتلاطمة والامواج العاتية . ثم مالت العاصفة في مهبها الى الجنوب الغربي ودفعت السفينة على تخوم دمياط الرملية . ولم يلبث العرب المرابطون هناك ان رأوها من بعيد فاسرعوا الكرة عليها طامعين في اسرها وسبي من فيها

ولكن لم يكن حصولهم على ما طمعوا فيهِ بالامر السهل لان الرجال الذين يحاربون دفاعاً عن ملكتهم والامراء الذين كان من اكبر فروضهم تضحية نفوسهم في سبيل صون الجمال والدين لايسلمون للاعداء قبلما يصلونهم حرباً وعواناً . ولذلك برز في طليعة الامراء اصغرهم سنًّا واشدهم بأساً اعني بهِ جوسلين مونمرانسي فاستل حسامهُ وهجم هجمة الاسد الضرغام وصدم خصومهُ صدمة لم يستطيعوا عندها ثباتاً فاضطروا الى الاحجام . واذ ذاك اقبل من ميناء دمياط مركب آخر مشحون بالكماة فحول ميل كفة الانتصار في ذلك النهار . ولما ابصرهُ الذين كانوا في المركب الاول وشاهدوا في مقدمهِ رجلاً طويل القامة بادي الهيبة هتفوا من شدة

الفرح : — " الملك العادل ! الملك العادل ! الحمد لله الحمد لله "

ثم استأنفوا الهجوم وجددوا القتال . اما جوسلين فوطّن نفسهُ على ان يموت موت الابطال ويبيع حياتهُ بارواح من يقفون في طريقهِ من الرجال . وطفق يدور ويجول ويفتك ويصول حتى قطعت فتكاتهُ عزائم الشجعان واقام حولهُ سوراً من الهامات والابدان

وفيما كان رئيس الاساقفة في خيمة الملكة قائماً بحراسة الاميرتين سمع العرب يهتفون هتاف الانتصار فغشيتهُ سحب اليأس وقال لهما : —

" شاركاني يا ابنتيَّ في التوسُّل الى الله الذي عليهِ وحدهُ يجب ان نعتمد الآن لنجاتنا — هوذا الملك العادل هنا — الملك العادل الذي لا تستطيع قوة في الارض ان تقاومهُ "

وبعد ما جثثنا معهُ للصلاة الى الله التماساً للخلاص من وهدة المخاطر التي انطبقت عليهم سألتهُ الملكة مضطربة : —

" من ذا العربيُّ الذي انذرتنا بقطع الامل من النجاة منهُ ؟ "

فاجابها : — " هو الملك العادل اخو السلطان صلاح الدين والدُّ اعدائنا وقد شاهدتهُ بعيني مادًّا مطمار النار والدمار على مدننا واهرائنا . ولولاهُ لم تسقط القدس في ايدي المحاصرين مهما طال امد الحصار ولا دخلها صلاح الدين بموكب الظفر والانتصار "

وفيما هو يتكلم ارتفعت اصوات السلاسل والاغلال مؤذنة بانتهاء القتال فهرع الى خارج مندفعاً بين اخوتهِ لعلهُ يستطيع تخفيف العذاب الذي أُعدَّ لهم . وكان يعرف الملك العادل من وقتٍ طويلٍ ولا يجهل ما لهُ عندهُ من كرامة الشأن وحسن الرعاية

فتركت الاميرتان وحدهما تتوقعان ما سيحلُّ بهما واستسلمت الملكة لعوامل الحزن واليأس من جراء هذا الخطب المفاجىء الذي سوف يقضي بتطويل شقَّة بعادها عن زوجها ورفعت يديها تدعوهُ مستغيثةً بهِ . وضغطت متبلدة الذخيرة التي في صدرها المهداة اليها من الرئيسة مستمدَّةً غوثاً من ذلك الذي اتجهت كل افكارها اليهِ وأصبح معوّلها في النجاة عليهِ

ثم فُتح باب خيمتها بغتةً ودخل منهُ رجل ذو هيبةٍ ووقارٍ وسيادةٍ خُلقَ لها وخلقت لهُ هذا الرجل الجليل خاطب الملكة بلغتها قائلاً

" لاتخافي ايتها السيدة ان ملكة انكلترا وجميع من هم معها اسراي — لكنهم لن يكونوا ابداً عبيدي . ولسوف تُنقلون الى قصري حيث يحفُّ بكم رجالي وتعاملون بما تستحقون من الإكرام وتمكثون مقيَّدين بوعدكم فقط حتى يتمكن اخي صلاح الدين من مفاوضة رتشرد في امركم "

فارتعدت فرائص متيلدة عند سماعها هذه الكلمات لانها حققت مخاوفها وهمّت ان تتسلّ من جانب الملكة وتتحجب عن النظر ولكن الملكة ادركت ذلك فامسكت بيدها وقدّمتها الى الملك العادل قائلة : —

" ان هذه ايها الامير شقيقة رتشرد تقاسم زوجتهُ الاعتراف بحسن صنيعك فاعتمد كلامنا وثق بنا ولسوف تجدنا اهلاً لذلك "

فتقدم الملك العادل الى متيلدة ومدّ يدهُ ليصافحها فحنت رأسها ونكصت الى الوراء وزادت في التحجب والتستر

ولما جاء الملك العادل باسراهُ الى ظهر سفينتهِ اعانهُ النور على تحقق ملامح كلٍّ من الاميرتين اللتين وقعتا في قبضة يدهِ . وكانت الاميرة متيلدة قد حسرت قناعها ليسهل عليها النزول الى الزورق الذي أُعدّ لنقل الاسرى الى دمياط فرافقهُ ما ابصرهُ في وجهها البديع من الحسن الفاتن والجمال النادر المثال ولم يكن يعلم شيئاً عن الحاجز الذي اقامهُ في وجههِ قانون الرهبنة فضلاً عن العوائد القومية . فترك الملكة واسرع الى جانب متيلدة واخذها بيديهِ وحملها نازلاً بها الى الزورق ووضعها على متكإٍ وجعل يتفرّس فيها بنظرٍ يتّقد شوقاً وحبًّا

وقد جرى هذا كلهُ بسرعة لا مزيد عليها حتى اخذت متيلدة دهشة وحيرة لم تقوَ معهما على ابداء اقلّ مقاومة ولبثت دقائق لا تبدي حراكاً كعصفور في قبضة الصياد . ثم وثبت على قدميها ورفعت نظرها الى وجههِ وهي تتوقع ان ترى فيهِ افجع هيئةٍ لكنها دهشت اشدّ الدهش عند ما شاهدتهُ ذا صورة جليلةٍ وملامح جميلة ومظاهر خطيرة تشفّ عن عزّة نفسٍ خليقة بالاجلال وتدلّ على رفعة شأن يندر ان يكون لها نظير عند افضل الرجال

فألقت بنفسها عند قدمي رئيس الاساقفة الذي عطف عليها وهي تواري خدّيها المصبوغين بحمرة الخجل في مطاوي ردائهِ وتذرف دموعاً احرّ من الجمر

فأدرك رئيس الاساقفة ما نالها فأجلسها وبذل جهدهُ في مؤاساتها ثم التفت الى الملك العادل وقال لهُ

" اعلم ايها الملك ان هذه الفتاة ليست كباقي الفتيات بل هي من سلالة ملوك انكلترة تخلت عن مقامها العالي الرفيع ووقفت حياتها على خدمة الله وأقل لمسٍ يشوبها من رجلٍ يعدّ تدنيساً لثيابها الطاهر المقدّس . فاسمح لها اذاً ايها الامير المعظم ان تبقى امينةً لنذورها آمنة في زهدها حتى يقضي الله بتعيين الوقت لاتفاق صلاح الدين ورتشرد من جهة اطلاقها "

وكان الملك العادل لم يزل شاخصاً في تلك الفتاة الحسناء مسحوراً بجمالها البارع فأجابهُ

" يصعب عليَّ تصديق ما قلتهُ ان لم تشهد على صحتهِ الاميرة نفسها . " ثم التفت اليها وسألها :—

" أصحيح ما سمعتهُ الآن ايتها الاميرة انك منقطعة الى زهدٍ ابدي تخفين فيهِ محاسن لم تنظر عيون البشر اجمل منها ؟ "

فرفعت نظرها نحو السماء من غير ان تنظر اليهِ وقالت :—

" اللهمَّ انت تعلم ان اسمى غايات نفسي ان اخدمك خدمة انفصل فيها عن العالم كلَّ الانفصال "

فقال الملك العادل لرئيس الاساقفة

" ساعمل ايها الاب المحترم بمقتضى ارادة اميرة انكتارة فتعيش في قصري عيشة تنطبق على عوائدها واميالها "

ثمَّ ركب زورقهُ الخاصّ وسبق الاسرى الى دمياط

ولما قربوا من الشاطئ وجدوا على الرصيف محفاتٍ معدة للاميرتين وحشمها . والباقون من الاسرى — ما عدا الجرحى — مشوا على اقدامهم . اما مونمرانسي فاذ كان مثخناً بالجراح ومغشيًّا عليهِ من شدة التزيف وُضع على لوح من خشب وحمل الى قصر الملك العادل

وكان الملك العادل يقيم في دمياط بقصر الخلفاء القديم البانية فيهِ آثار الزخارف شاهدة على عظمة اصحابهِ الاولين . فكانت ارضهُ مرصوفة بانفس الرخام والمرمر وجوانبهُ مزدانة باعمدة البرفير والحجر السماقي وجهاتهُ الاربع محاطة بالحدائق الغنَّاء والجنان البديعة واعاليهِ زاهرة بالمقاصير الانيقة والعلالي الرفيعة ومداخلهُ الخاصَّة مختورة بالخصيان وابوابهُ العامة محروسة بنخبة الشجعان

وقد اعد منزلاً لائقاً باسراهُ الاشراف وعين قصرًا آخر للاميرتين ورئيس الاساقفة وامر اجابةً لالتماس الملكة ان يتولى خدمة الاسرى رجال مسيحيون واذن لرئيس الاساقفة ايضاً ان يمارس طقوس الكنيسة في غرفة داخل القصر وسمح لاعوان الملكة من الامراء والاشراف ان يتولوا خفارتها والقيام بخدمتها في ساعات معينة من النهار

وكان قصر الاميرتين مفروشاً باثمن البسط الفارسية ومضمخاً بانفس الاطياب الشرقية من بخورٍ وندٍّ وعودٍ ومرٍّ تفوح روائحها من المباخر الذهبية معطرة الارجاء . وكان صحنهُ مغشى بالفسيفساء وفي وسطهِ اربعة تماثيل من البرفير تندفق منها مجاري المياه المعطرة الى حوض من المرمر ثم تندفع من وسطهِ ناشبةً على اشكالٍ هرمية مبردة الهواء ومطربة المسامع بخرير

اعذب من توقيع الغناء . وحول تلك التماثيل متكآت فاخرة تبسم للجلوس عن ثغر الراحة والرخاء وعلى الشبابيك حجوف حريرية تلطف اشعة النور وتأذن لنسمات الهواء ولا تحول دون تمتع الناظر برؤية الورد وازهار الليمون والآس والرمان المائجة بين يدي النسيم والفائحة بارجٍ طيبٍ يشفي السقيم

وما أبطأ الملك العادل ان انفذ الى اسراهُ عبيدًا حاملين سلالاً مملوءة من اشهى الثمار واجمل الازهار وانفس الحلويات واطيب الاشربة

وقد قضت الملكة ليلتها بالبكاء والنحيب واحيتها بالتنهد وذرف الدموع . اما متيلدة فمع شدة بكائها وجدت في فؤادها شيئًا من الصبر والتسليم لمشيئة الله

وفي الصباح زارها رئيس الاساقفة فسألتهُ الملكة عن الملك العادل قائلة : —

" انك ايها الاب المحترم مستوطن اسيًا وبطريرك صور منذ ثلثين سنة ومستشار ملوك القدس وسفير في بلاط صلاح الدين . فلا بد ان تكون اعلم من كثيرين غيرك بعوائد عدونا وعاداتهِ ونقدر ان تخبرنا بالوسائل التي يمكننا اتخاذها لاطلاق سبيلنا "

فاجابها "اني اعلم الناس بنشأة صلاح الدين ومقدار قوتهِ ولي اطلاع تام على جميع الفضائل التي تزين صفاتهِ . واعلم ايضًا ما لاخيهِ الملك العادل عندهُ من نفوذ الكلمة ومضاء الامر . والله يعلم كم كنت انال من الامتيازات المفيدة النافعة لو اذن لي ان اسعى في تحصيلها بالحكمة والتعقل بواسطة هذا الامير المتفرد في اريحيتهِ وكرامة نفسهِ . فيالت رجالنا اعاروا نصائحي جانب الاصغاء بل ليت لوزنيان واموري وثقا بما لي من الاختبار فكانت الارض المقدسة سليمة من الارزاء التي تعبث بها اليوم وتلعب وتأكل عليها وتشرب "

وهنا تنهَّد تنهُّد الحزين الآسف واطرق غارقًا في لجج التأملات . ثم ثاب اليهِ التجلد وعاد الى الجواب على سؤال الملكة قائلاً

الفصل الرابع

صلاح الدين والملك العادل

" نشأ صلاح الدين واخوهُ الملك العادل في بلاط اتابك نور الدين في دمشق . وكان ابوهما ايوب قد بذل جهدهُ في تهذيبهما وهو لا يتوقع شيئاً من العظمة المذخورة لهما في المستقبل . ولما كان شديد الاخلاص لملكهِ الذي احبهُ محبةً لا توصف تجرَّد لإجراء كل ما يسرُّهُ من اعمال الفتح والتدويخ والإصلاح فكان افضل مثال لابنيهِ في الامانة والطاعة لسلطانهما . ولم يظهر على صلاح الدين في طفوليتهِ علامات عظمة مستقبلة ولا لوائح بسالة خارقة . اما الملك العادل فكان من نعومة اظفارهِ ميَّالاً الى كل ما يبدو فيهِ حبّ اكتساب المجد والشهرة . على انهما مع اختلافهما في الطباع والاميال كانا مرتبطين بمحبة اخوية شديدة الإحكام متينة الالتحام ومتحدين في الطاعة للشريعة الاسلامية بما لا غاية بعدهُ من الاجلال والاحترام

" وقد صحبا عمهما شيركوه الى مصر عند ما ارسلهُ اليها اتابك نور الدين ليستأصل منها الخلافة الفاطمية ويقيم الخلافة العباسية مكانها . ولم يلقَ شيركوه في هذه المهمة موانع تحول دون بلوغ ما اقدم عليهِ لأن مصر كانت حينئذٍ في غاية الضعف وقد جعل العاضد لدين الله مهامها في ايدي اناسٍ اضعف منهُ همةً واقلّ عزماً واقداماً . فلما بلغهُ خبر قدوم شيركوه في خيلهِ ورجلهِ نهض يروم الدفاع فلم يجد اليهِ سبيلاً فعمد الى الحيلة واستمال عدوهُ بالرشوة وعرض على شيركوه نصف ما في خزينتهِ من المال وانهُ يجعلهُ اكبر وزرائهِ

" فبهرت هذه الرشوة العظيمة عيني شيركوه فاقسم لصاحب مصر بتأييدهِ وعدل عن اتمام ما ارسلهُ اتابك نور الدين اليهِ — ولما سمع الملك العادل بما عزم عمهُ عليهِ وبخَّهُ توبيخاً شديداً وتهدَّدهُ علناً بالشكوى الى نور الدين — فحمي غيظ شيركوه على ابن اخيهِ وكاد يوقع بهِ لولا توسُّط صلاح الدين بالصلح بينهما

" ولما ذهب شيركوه بابني اخيهِ الى الخليفة دهش صلاح الدين مما شاهدهُ من مجالي الابهَّة والعظمة ومظاهر الثروة والغنى وايقظ في فؤادهِ مطامع لم يشعر بها من قبل واغراهُ بالطموح الى الاستئثار بسلطة مطلقة لا يكون فيها لاحدٍ غيرهِ اقلّ دخل . ولم تلبث هذه الاماني ان تمكَّنت منهُ حتى وطَّن نفسهُ على الجري في تيارها واخذ يتوقع سنوح الفرصة لاخراجها من حيز القوة الى الفعل

" ولما توفي شيركوه استوزر خليفة مصر صلاح الدين فكان ذلك بشيرًا بصحة احلامهِ وتحقيق امانيهِ . ثم مات الخليفة واستأثر صلاح الدين بالسلطة والحكم ورأى ذلك الملك العادل فكبر عليهِ الامر واجتمع باخيهِ ولامهُ على ما فعل لانهُ يشين اسمهما وصيتهما فضلاً عن انهُ ينغص عيش ابيهما الشيخ ويغضّ من كرامتهِ . وذكّر اخاهُ منن سيدهما نور الدين الذي مهّد لهما سبيل الارتقاء الى هذا المقام السامي

" ولما رآهُ مصرًّا على عزمهِ وغير مبالٍ بنصائحهِ وتوسلاتهِ تركهُ وشأنهُ ووجه اهتمامهُ الى محاربة الصليبيين . ولا حاجة الى وصف ما ساقهُ الى ارض فلسطين وسكانها من الاجتياح والاكتساح اذ لم تصدهُ الحصون والقلاع ولا أرهبتهُ الجيوش والفيالق بل كان كما لقبهُ شعبهُ اسد النزال وصاعقة القتال . وفي تدمير الرملة وطبرية ودكّ طرابلس وبيت لحم وتدويخ عكاء وبيت المقدس ما ينبيءُ عن ذلك بمزيد الجلاء ويدلُّ على ما نحن فيهِ من البؤس والشقاء "

ثم انقضت عدة ايام لم يقدر فيها رئيس الاساقفة ان يزور الاميرتين الاَّ في ساعة الصلاة فانقطع عن تتمة حديثهِ لهما وكان في ما بقي من وقتهِ مشغولاً اما مع الملك العادل الذي سأَلهُ ان يطلعهُ بالتفصيل على عوائد اهل اوربا وشرائعهم واخلاق ملوكهم وعظمائهم او في عيادة المرضى والجرحى من الاسرى . وكان يقضي كل يوم ساعة او ساعتين عند مونمورانسي الذي كانت جراحهُ تنذر بالخطر على حياتهِ وهو صابر على آلامها صبر الكرام . على ان العناية الشديدة التي بذلت بهِ تغلبت اخيرًا على الخطر فأزالتهُ شيئًا فشيئًا واخذت تظهر عليهِ علامات البرء والشفاء . وقد سرَّ الملك العادل بهذا الخبر لانهُ كان قد رأى من مونمورانسي بطلاً مغوارًا فسرَّ ببشرى ابلالهِ ولو كان من اعدائهِ

ولما سنحت للملكة فرصة أُخرى سألت رئيس الاساقفة ان يطلعها على ما فعلهُ نور الدين سلطان دمشق بصلاح الدين جزاء خروجهِ عليهِ في مصر فقال :—

" بينما كان الملك العادل يوقع بنا صنوف الويل والخراب كان نور الدين يتأهب للزحف على مصر والاقتصاص من صلاح الدين . وبعد ما خرج لطيتهِ ادركتهُ المنية وحالت دون ادراكهِ لهذه الامنية وخلا الجوُّ لصلاح الدين من كلّ جهة . ثم تزوَّج ارملة نور الدين ونال بهذا الاقتران زيادة المنعة في ما أخذهُ من السلطة والسيادة . وانقطع اخوهُ الملك العادل عن مجافاتهِ . ومن تلك الساعة ثبت عرشهُ واصبح هازئًا بجميع دول المشرق المتحدة

" وقد تكلّل الصلح بين هذين الاخوين بغزوات عديدة وفتوحات مجيدة كالموصل ودمشق وحلب ولم يثبت على قدم الدفاع في وجههما سوى بيت المقدس . على ان المنازعات الاهلية التي ثارت بين سكانها اوجبت الخوف عليها لأن اموري كان قد مات ولم يقدّر لبودوين المنكود الحظ ان يعيش بعدهُ طويلاً فمهّدت شقيقتهُ الكبرى سبيل طريق الجلوس على عرش القدس لزوجها لوسيان لانها هي الوارثة الشرعية . ولكنّ كثيرين من الامراء اصحاب المدن الخاضعة لمملكة بيت المقدس لم يبايعوهُ وقام منهم كونراد مركيز دي مونفرات وادّعى حق الملك لنفسهِ وعضدهُ ريموند صاحب طرابلس واوشكا ان يزيلا لوسيان من موقفهِ لولا فحنهُ وصلابة وجههِ وشدة دهائهِ . ولما خاب كونراد من الحصول على ما اراد تهدّد الصليبيين بالانحياز الى صلاح الدين ان لم يكرهوا لوسيان على ترك عرش القدس

" وفي تلك الاثناء استدعاني لوسيان اليهِ وقصّ عليّ تفصيل الشقاق الحاصل والنزاع الواقع واشار الى ما نتج عن ذلك من ضعف العزائم وفتور الهمم وانذرني بسوء مصيرنا ان لم نسرع الى التلافي والتدارك وطلب مني ان اذهب الى بلاط صلاح الدين في دمشق واسعى بالحصول على هدنة بشروط موافقة

" وقد اجبتهُ الى ما طلب مع شدة احترازي من أن اتهم بالتحزّب لهُ والانحياز اليهِ . لاني مع عدم احترامي لصفاتهِ لم يسعني الاّ الاعتقاد بانهُ اقدر من سواهُ على ارجاع السلام الى هذه المملكة المتداعية

" وقد قوبلت في دمشق باحتفاء واكرام لا مزيد عليهما ودُعيت يوم وصولي الى المثول امام السلطان صلاح الدين في سرادقهِ الخالي من كل مظاهر الزخرفة والتأنّق والتنعّم . وكان صلاح الدين نفسهُ ممتازاً عن رعاياهُ بشدة بساطة ملبسهِ . ولما رآني حياني مبتسماً واكرم اخوهُ مثواي وقال لي : —

" ان مجيئك الينا ايها الاب المحترم دليل على ميلكم الى المساهلة والاخلاص بالوعد فاعرض مقترحاتك علي اخي فينظر فيها وانا أُعقب عليها بما يبدو لي . واننا مسرورون جدًّا من المعاملة الحسنة التي تعاملون بها اسرانا . وان حنوّك ومحبتك شاملان جميع من هم في حاجة اليهما . ولهذا سوف تلقى في بلاط اخي من حسن الرعاية وكرم الوفادة ما أنت خليق بهِ ومن يزرع خيرًا يحصد ثناء وشكرًا ومن يكن نظيرك يجب ان يكون لهُ اصدقاء كثيرون "

الفصل الخامس

نظرة الحب

ثم اعترض ثمة حديث وليم مجيء خصيٍ من عند الملك العادل الى الملكة يخبرها بأن سيده قادم اليها عما قليل لامرٍ ذي شأن

فلما سمعت متيلده هذا الخبر نهضت من مجلسها ورمقت رئيس الاساقفة بعين الاستشارة وقد تورد محياها تورداً بغتياً

فاطرق وليم هنيهة يفكر في الامر ثم اخذها بيدها واجلسها بينهُ وبين الملكة وقال : —

" أشير عليكِ يا ابنتي ان تبقي لانَّ اقلَّ ارتيابٍ نبديهِ من الامير يغيظهُ . وافضل الوسائط للتغلُّب على عظماء الرجال هي ان نثق بهم ونركن اليهم . وعندي أننا قد نلنا ثقة الامير العادل بنا مذ الآن ودليلي على ذلك رغبتهُ في المجيء الينا "

فامتثلت متيلده اشارتهُ واسدلت برقعها وعزمت على البقاء في مجلسها . اما الملكة فلشدة اهتمامها بزوجها الغائب عنها لم تشكَّ في انَّ الغرض من مجيء الملك العادل انما هو البحث في ما يتعلق برتشرد

ولما دخل حيَّا الملكة بلطفهِ المعتاد ونظر الى متيلده نظرة اغنت عن السلام والكلام ثم التفت الى رئيس الاساقفة وقال : —

" ايها الاب المحترم ان معرفتنا احدنا للآخر ليست جديدة . واننا على اتفاق من حيث الاخلاق والمباديء وان اختلفنا من حيث المذهب والدين . واملي وطيد انك عند ما تذكرني امام هاتين الاميرتين العظيمتين وباقي اسراي الاشراف لا تمثلني لهم سيداً غشوماً وعدواً ظلوماً "

فاجابهُ : —

" ان الاميرتين قادرتان ان تشهدا بما يحقق لك هذا الامل "

فقالت برنغاريا : —

" ان رئيس الاساقفة كان منذ هنيهة يقصُّ علينا الانباء التي تذيع شهرتك في كل مكان وتسوق اليك الشكر من كل لسان . فلم نعد نجهل ان الملك العادل انموذج الشهامة والكرامة كما هو مثال البسالة والاقدام . وانهُ على توالي انتصاراتهِ في ساحة الحرب والطعان باقٍ مصدر الرفق والحنان ففي الحرب تقهر ذوي البأس الاشدَّاء وفي السلم تدين لدموع

ذوي البؤس والشقاء . وامامك الآن ايها الامير ملكة آسفة حزينة لا تبكي عرشاً تلتمس منك ارجاعهُ بل انما هي تطلب زوجاً ليس احدٌ سواك بقدر ان يردَّهُ اليها "

فاجابها : —

" لو كان ذلك منوطاً بي وحدي لاطلقتُ سراحك في الحال وسأُرسل غداً الى أخي استأذنهُ في ذلك وما اظنهُ يودُّ إطالة مدة اسركِ . فثقي بكرامتهِ وصدق وعدي "

ثم التفت الى متيلده وسألها : —

" هل تشاركك شقيقة رتشرد زوجتهُ في هذا الرأي ؟ "

فرفعت نظرها اليهِ وقالت : —

" نعم ولكن بعض المشاركة لا كلها لأن ما ذاقهُ رجالنا على يدك من غصص النكال يحول لسوء الحظ دون بلوغ اعجابي بك مبلغ الكمال "

فدهش الامير من جسارتها وراعهُ الاحتشام الذي لاح على وجهها عند تصريحها بافكارها واوجست برغاريا خوف غيظهِ فبادرت الى الاعتذار عما بدر من متيلدة قائلة : —

" ارجوك الصفح عما فرط من فتاة نشأت منقطعة عن العالم الانقطاع التام وعسى ان إخلاصها وسذاجتها يمهدان لها عندك عذراً مقبولاً "

فاجابها : —

" ليس في إمكان اميرة ان تثير غيظي عليها "

وقال رئيس الاساقفة مستدركاً ايضاً : —

" ان الاميرة متيلدة انسانت الى هذا القول بعامل العطف والحنو على بني شعبها والرثاء لعشرات الالوف من الرجال الذين سفكت دماؤهم واناخ البؤس والشقاء على نسائهم واولادهم "

فدنا الملك العادل من متيلده واخذ يدها وقال لها : —

" ان لم يبلغ إعجابك بي مبلغ الكمال للاسباب المتقدم ذكرها فاعجابي بما لكِ من حرية الضمير والجمال المنقطع النظير بالغٌ اشدَّهُ بل فائق حدَّهُ "

فجذبت يدها من يدهِ والتفتت الى رئيس الاساقفة وسألتهُ ان يأذن لها في الذهاب فأذن ولم يعارض الملك العادل في ذلك وبعد خروجها قال وليم : —

" نعم ايها الامير ان جمال هذه الفتاة منقطع النظير لانهُ ليس من هذه العالم بل هو مجلى نفس طاهرة لم يشبهُ قطُّ عيبٌ ولا دنسٌ ولولا الطهارة المتجملة بها هذا الحسن الرائع لظهر كباقي مظاهر الحسن المبتذلة . "

فاعترضهُ الامير قائلاً : —

كلاَّ . كلاَّ فالمحبة تزيدهُ جلاءً وبهاءً ويا سعدَ من يتمكن من اسرها بقيد المحبة "

فلما طرقت هذه الجملة مسمع رئيس الاساقفة ارتعدت فرائصهُ وادرك ميل الامير الجديد وناجتهُ نفسهُ بالخطر الشديد على وديعتهِ . لكنهُ تغلب على انفعالهِ واخفى اشفاقهُ تحت طي الجلد وتظاهر بانهُ حمل ما سمعهُ على محمل المبالغة في الوصف . وقبلما استطاع ان يجيب الامير بما يوافق المقام سبقتهُ الملكة فقالت : —

" لا بدَّ انك ايها الامير تعلم شيئاً من معسكر الافرنج . فهل ابتدأ القتال ؟ وهل انخرط زوجي في سلكهِ ؟ "

فاجابها : —

" اذا صدقت الاخبار الاخيرة فلا بدَّ ان تكون الاختلافات المستحلة بين قادة هذه البعثة اكبر داع الى الاسراع في اخماد نار الحرب . ومن يوم وصول ملك انكلتره الى الآن لم تحدث معارك ذات شأن وانما جرت مناوشات طفيفة شهدت لزوجك الذي رجع منها سالماً بشدة البأس والبسالة . ولعلي بعد رجوعي استطيع ان اطلع جلالتكِ على كل ما جدَّ بما ترومين من الايضاح والتفصيل "

" أذاهب انت الى عكاء ؟ "

" أرسل اليَّ أخي يأمرني بان أذهب الى القاهرة لاعدَّ جيشاً جديداً ثم ارجع الى هنا انتظر امرهُ بالذهاب اليهِ . ففي مدة غيابي تكونين مطلقة الامر والنهي في هذا القصر . ولكني بحسب عوائدنا التي توجب احتجاب النساء اتوقع انك لا تأذنين لاحد من رجالكِ في ان يكثر التردد اليك "

ثم التفت الى وليم واكمل كلامهُ :

وهذا على كل حال لا يتعلق بك ايها الاب المحترم لان فضائلك تقضي بان اقيمك وكيلاً عني على هاتين الاميرتين لانهما في حاجة شديدة الى تعزيتك وتسليتك لهما في معتزلهما . فلا تفارقهما ما استطعت وعسى الحرية التي امنحك اياها من جهة البقاء معهما ان تبرهن لك بكل وضوح نزاهة مقصدي وطهارة غايتي "

ثم كرَّر وعدهُ للملكة من جهة التوسط في امرها عند اخيهِ صلاح الدين وادعها وحيا وليم وانصرف

اما رئيس الاساقفة فلما خلا بالملكة اطلعها على مخاوفهِ من جهة متيلدة وميل الملك العادل فقالت له : —

" ان مخاوفك تعظّم الخطر اكثر مما هو في الحقيقة . وهل المحبة بنتُ يومٍ ؟ — بل بنت دقيقةٍ ؟ فبالجهد يعرف الامير متيلدة . نعم ان جاذب الجمال شديدٌ ولكنهُ غير قادر وحدهُ على إنشاء تعلقٍ راسخ القدم دائم الثبوت "

" ولكنّ الاختبار يدلنا على خلاف ما تظنين وكثيرًا ما يعنو الرجل بنظرةٍ واحدة لعواطفهِ وينساق بأميالهِ "

" اذًا تعتقد ان الامير اصبح مغرمًا بمتيلدة ؟ "

" نعم وان يكن هذا قد خفي على جلالتك فلم تستطيعي ملاحظتهُ "

" وهب ان ذلك كذلك فلا ارى فيهِ شيئًا من موجبات الخوف والحذر . اولا تعلم ان اميال متيلدة يصعب بل يستحيل التغلّب عليها ؟ . وان صحّ انها موضوع إعزاز الامير واكرامهِ فاقلّ كلمة منها تكفي لإطلاق سبيلنا وارجاعنا الى معسكر شعبنا "

" ان طبيعتي ودعوتي عصمتا نفسي فلم تتعلل قطّ بمثل هذه الاضغاث التي يسميها العالم محبة . على انّ طول الاختبار اعلنها لي فعلمتُ يقينًا انها لا تسمح لمن يؤخذ باشراكها ان يراعي شيئًا من واجباتهِ او مواعيدهِ حتى انهُ ليسهلُ عليهِ ان يضحي اعزّ شيءٍ عندهُ سوى المحبة نفسها . فالملك العادل لا يمسك عن متيلدة شيئًا سوى ما يراهُ يحول دون حصولهِ على ما يتمنّاهُ . فان بقيت عندهُ فقد يسمح باطلاقنا ولكن أترضين بهذا ؟ هل يطاوعكِ قلبكِ ان نغادرها وحدها وهي في اشدّ حاجة الينا ؟ "

" وماذا تستفيدهُ متيلدة من وجودي معها ؟ أليس خيرًا لها أن أُطلق واذهب الى أخيها رتشرد واحضّهُ على الاسراع الى انقاذها ؟ وهل انت مرتابٌ في عفتها ؟ بل هل يداخلك ريبٌ في شرف نفس الملك العادل حتى توجس اقلّ خوف على بقائها عندهُ ؟ "

" لا ارتاب في طهارة متيلدة وعفتها ولكن تعريضها لمحاسن الملك العادل الجاذبة وصفاتهِ الساحرة الخالبة تجربة عظيمة ومخاطرة جسيمة . ولا اكتم جلالتكِ ان شمائلهُ الغراء وما أُوتيهُ من قوّة الذكاء الفائقة والمحاسن الشائقة والبسالة الخارقة — هذه كلها وامثالها — يتعذر وجودها في فيليب اغسطس بل في رتشرد نفسهِ . ولكن عوائدهُ القومية مخالفة لعوائدنا وفيها مايوسع لنا مجال النظر والانتقاد وهي نفسها كانت علة شقاء فتاةٍ وُلدت قريبة من عرش القدس حيث ملكَ ابوها اعني بها اغنس بنت اموري وابنة ماري اخت امبراطور القسطنطينيّة — اغنس

التي طبَّقت شهرة جمالها وشجاعتها الخافقين — اغنس التي اقتحمت غمار الوغى وحسامها بيدها غير متهيبةٍ شرب كأس الردى وقد تركت عوائد جنسها حبًّا بنيل المجد وعرَّضت نفسها لشرّ نتائج جهلها . ازدرت بفضائل اترابها واحتقرت التزامهنَّ الصيانة اللائقة بهنَّ وافتخرت باميالها الحربيَّة وزيَّنت لها نفسها إمكان امتلاك قلبٍ لم يمل اليها ولا تحرَّك باقلَّ شفقة عليها "

فصاحت الملكة مضطربة :—

" زدني ايضاحًا ! ماذا تعني بهذا ؟ "

اعني امرًا مخيفًا ولكنهُ حقيقي ثابت — امرًا لا يزال ذكرهُ يجرح فؤادي ويذهب برشادي . لكني سأُرجئُ تفصيلهُ الى حين أتفرَّغ لتتمة حديثي عن صلاح الدين وحينئذٍ تدركين ما يجب علينا ان نحاذرهُ وما يحقُّ لنا ان نرجوهُ من الملك العادل "

وبعد ايام ارسلت الملكة الى رئيس الاساقفة تخبرهُ بأنها هي ومتيلدة تنتظرانهِ في حديقة القصر حيث تسمعان منهُ باقي الكلام على موَّسس الدولة الايوبيَّة في الشرق

ثم أخذت بذراع متيلدة ونزلتا الى الحديقة سادلتي القناع . ولما بلغتا خميلة البرتقال حيث عينتا مكان اجتماعهما بوليم طرق مسمعهما وقع اقدام من وراء تعريشة دوالٍ كثيفة ثم انفرجت التعريشة على مدخلٍ صغير في الحائط المحاذي . وقد وقفت فيهِ فتاة بلباس شرقي تنظر اليهما بعين الحيرة والارتباك . وما أبطأت أن أسرعت الى الملكة وألقت بنفسها عند قدميها خائفة مرتعدة . نخفت متيلدة اليها وحاولت ان تنهضها بلطفها المعتاد . فأخذت هذه بهدب ثوب الاميرة وقبلتهُ ثم استسلمت لعوامل الحزن واخذت في سجم العبرات وترديد الزفرات . واذ حاولت متيلدة مرة ثانية ان تنهضها وتسكن روعها خاطبتها بما يلي :—

" آه يا سيدتي ! لا استحق لمس يديك الطاهرتين . اني بائسة شقية ومنغمسة بحمأة الاثم والخطيئة . انكرت اهلي وهجرت موطني وتبعت سيدتي الاثيمة الى هنا — سيدتي التي ضحت على مذبح ميلها الفاسد كلَّ عزيز غالٍ معللةً نفسها بانها تسود الى الابد على قلب الملك العادل وتقاسمهُ عظمة صلاح الدين . ولكن ما كان أسرع خيبة آمالها واخفاق مساعيها ! لأن الملك العادل أثقل كاهلها امتهانًا وتحقيرًا وأوسعها تنقيصًا وتعييرًا وعامل ابنة اموري التي بذلت نفسها لهُ معاملة امةٍ تشرى وتباع . وكثيرًا ما ناجتها نفسها بترك هذا المرتع الوخيم والتخلص مما فيهِ من العار والهوان اللذين لا يقيم عليهما الاذلاَّن . ولكن حبها الشديد لمن يحتقرها وخوفها من الاهانة التي لا بدَّ ان تلقاها في معسكر مواطنيها كانا يحولان دون اتمام قصدها هذا . وقد اشرعت رمحها غير مرة ودعت من تحبهُ الى النزال فاشاح عنها

بقولهِ انهُ لا يتازل امرأة ولا يقدر ان يحبَّ من تخرَّجت كالرجال في فنون القتال وتدعوهُ يوماً بعد يوم الى الحرب والنزال

" ولما بلغنا خبر وجودكما في دمياط وانكما مع كونكما اسيرتين معاملتان بما يطلبهُ مقامكما الرفيع توسلتُ الى سيدتي ان تأذن لي في الاجتماع بكما أملاً بأن تنال من لدنكما بعض المساعدة . وكان من عزمي ان اجتمع بكما في قصركما ولكن لم اتمكن من ذلك في حينهِ . ثم اجتهدت في ايجاد هذا المدخل السرّي في الحائط الفاصل بين قصركما وسراي الامير . ومن هذا المدخل المجهول حتى عند الملك العادل نفسهِ سوف تمرُّ مولاتي متنكرة بثيابي لتمشو امامكما متضرعة اليكما ان تنقذاها من الامتهان الذي في عزم الامير ان يعرضها لهُ بعد رجوعهِ من القاهرة وهو اما الزواج بأحد رجال بلاطهِ او السجن المؤبد "

ولما فرغت من كلامها حنت رأسها الى التراب تنتظر جواب الاميرتين فأجابتها برنغاريا :—

" اننا لسنا هنا سوى اسيرتين ومع ذلك فان خابت مساعينا في حمل الملك العادل على اطلاق اغنس المنكودة الحظ بذلنا غاية جهدنا في تسهيل سبيل فرارنا . ولكن بشرط ان اميرة القدس تعد بقبول ما اخبرها بهِ وهو ان اثمها هذا يوصد في وجهها ابواب الهيئة الاجتماعية ولا يبقى لها مفتوحاً سوى باب احد الاديرة الذي تدخلهُ وتنقطع فيهِ للصلاة الى الله لاجل مغفرة خطاياها "

فأجابتها الخادمة :—

" بالصواب تتكلمين ففي معتزلٍ كهذا اقدر انا وسيدتي على الانقطاع الى اخفاء عيبنا ومواصلة ذرف الدموع اسفاً على ما قدَّمت ايدينا "

فقالت الملكة :—

" ان كان هذا عزمكما بالحق فاني اعدكما وعداً صادقاً باني لا أهملكما . ولكن قولي لي ما الذي حمل الامير على هذا العزم الجديد ؟ "

" يقال سرًّا ان حباً جديداً — نشأ فجأةً في فؤاد الامير — حباً طاهراً حارًّا اشبه بحب امرائنا وخليقاً بمن أوحتهُ اليهِ — هذا الحب اوصد قلب الملك العادل دون كل ميل آخر "

" وهل يُعرَف اسم السيدة التي احدثت هذا التغيير العجيب ؟ "

" نعم ولكن لا يمكنني التصريح بهِ امام من يمنعني احترامها عن النطق بهِ في حضرتها "

فأدركت برنغاريا في الحال مراد هذه الفتاة واما متيلدة فلم تبالِ بهِ كما ينبغي . وكانت قد أصغت الى الحديث عن ابنة اموري برعب ورعدة لا مزيد عليهما غير مدركة كنه

جرائم فظيعة كهذه حديثة العهد عند نفسها الطاهرة . ثم صاحت الخادمة مذعورة : —

" من هذا القادم يامولاتي ؟ اما هو رئيس اساقفة صور ؟ فلا اقدر . كلا لا اقدر ان احتمل وقع نظره . ومن توبيخهِ على الخصوص تنكص سيدتي عن الذهاب الى مواطنيها "

فاجابت متيلدة : —

" ولكن كلامهُ يفيدها تعزية وتنشيطاً — "

فاعترضت الخادمة : —

" يفيد من هي مثلكِ طاهرة نقيَّة ولكن مخيفٌ جدًّا حضور رجل الله امام خاطئة نظيري ! "

وما لبثت ان نكصت راجعة من ذلك الممرّ وكان وليم قد وصل فقصَّت عليهِ برنغاريا كل ماحدث فتعجَّب جدًّا وسرَّهُ ان قلب اميرة اورشليم تنبَّه اخيرًا فشعرت بخطيئتها وقال : —

" لا ينبغي لها ان تخافني بهذا المقدار . واذا كانت توبتها صادقة فلسوف ابذل جهدي في مساعدتها . "

ثم التفت الى متيلدة وقال : —

" اما انت يا ابنتي التي نجست اذناها بسماع هذه القصة فاعلمي انهُ لم يؤذن لكِ في سماع اشياء كهذه الاَّ لكي تستفيدي منها في مستقبل الايام فان تجرَّبتِ بما لا تقوى طهارتكِ وحدها على نجاتكِ منهُ كان لكِ هذا التعليم الجديد معيناً على الخروج من مضايق ما يلقيهِ ابليس في طريقك . "

" والآن لنعد الى تتمة الكلام عن صلاح الدين وفيهِ تقفان على نكد طالع اخوتكما وعلى العقاب الذي نالهم بسبب خطاياهم "

الفصل السادس

تتمة الحديث

" بعد ما قضيت نحو شهر في بلاط صلاح الدين بدمشق تمكنت بواسطة الملك العادل من عقد هدنة ثلث سنوات بشروط موافقة جدًّا لمصلحة لوسيان . ولشدة ثقة الملك العادل بي اقنع اخاهُ بالاعتماد على كلامي من غير ان يطلب اقل ضمان . ولما أُمضيت المعاهدة واصدر السلطان امرهُ بتوقيف تحصين الرملة مدة سني الهدنة بلغ مركيز مونفرات اخبار هذه

المعاهدة الموافقة لمصلحة خصمهِ لوسيان فشقَّ عليهِ ذلك وأعماهُ الغرور عن رؤية ما فيها من الموافقة لمصلحة الافرنج كلهم فعقد عزمهُ على افساد ما أصلحتهُ بخيانتهِ حتى انهُ عند توقيع المعاهدة وتصديقها خرج في طليعة جيشهِ وغزا قافلة حاملة هدايا مرسلة من صلاح الدين الى مكة .

" ولما ذاعت انباء هذه الفعلة الشنعاء في دمشق كنتُ لا ازال مقيماً فيها تخمي غضب صلاح الدين ولم يمكن اقناعهُ بما بين لوسيان وكونراد من الشقاق والنزاع وبان الواحد منهما غير مسؤول شرعاً عما يأتيهِ الآخر بل عدَّ جميع الافرنج شركاء هذه الخيانة وهم جميعهم مستوجبون اشدَّ العقاب . وامر في الحال بان يُشدَّ وثاقي وأُطرَح في السجن . فعارضهُ الملك العادل في ذلك مع انهُ كان مثلهُ مغتاظاً اشدَّ الغيظ — بل كان احقَّ منهُ بالاستياء من الافرنج لانهُ ضمن لهُ امانتهم وإخلاصهم واوضح لهُ براءة ساحة ملك القدس من هذا التعدي الاثيم وطهارة ذيلهِ مندوبهِ وصرَّح لهُ بانهُ مستعدٌّ للذود عن حياتي وحريتي ما دام حيًّا — فسكن حينئذٍ غيظ صلاح الدين واجاب ملتمس اخيهِ بالعفو عني وسمح لهُ ان يركب معي الى بيت المقدس . فوعدهُ الملك العادل بانهُ بعد رجوعهِ ينتقم لهُ وللمعاهدة التي يتجافى اعرق الامم في التوحش عن الاقدام على نقضها . فقال لهُ السلطان : —

" وعما قليل احاصر بيت المقدس فليكن هذا السيف الذي اضحك اياهُ الآن اوّل بارقٍ على اسوارها . "

" فقبَّل الملك العادل الهلال المرصَّع على مقبضهِ وأقسم لاخيهِ بأنهُ سيتمُّ كل ماطلبهُ منهُ

" وبعد ما اوصلني الى شعبي براحةٍ وسلام حمل على عسكر كونراد الراجعين الى صور باسلاب القافلة فكسرهم شرَّ كسرةٍ وأسر منهم عدداً ليس بقليل ومنهم ريموند صاحب طرابلس ورينو دي شاتيليون . ثم بلغهُ خبر الموقعة العتيدة ان تحدث في ظاهر طبرية فاسرع الكرة الى هناك . ولسوء الحظ لم يعمل لوسيان بمشورتي وعوضاً عن تحصين جانبهِ داخل اسوار القدس كما نصحت لهُ فتح ابواب تلك المدينة وزحف بجيشهِ لملاقاة العدوّ

واظنكما لا تجهلان شرّ نتائج ذلك اليوم المشؤوم الذي تزعزعت فيهِ اركان قوة الافرنج في الشرق فكان تقطَّع اوصال الفرسان الهيكليين وقتل اعظم القواد واسر لوسيان مقدمة رزايا تالية افدح من هذه واعظم . وعبثاً حاولت سيبل ان تنشط حامية المدينة وباطلاً حرَّضت السكان على تفضيل الموت على التسليم اذ لم تبق من فائدة من دفاع النساء والاولاد والشيوخ امام جيش كرار مكمَّل بالغلبة والانتصار

" ولما اشتدَّ الضيق واستفحل الجوع واخذت النساء والاولاد تزحم بعضها بعضاً في الازقة مسابقة الى التبلغ بابخس اللحوم واسخف البقول ولم يعد يسمع في المدينة الاَّ صراخ المخوّرين وعويل المنكوبين وانين النازعين اضطررنا الى التسليم مكرهين مرغمين ففتحنا ابواب القدس للغالبين ورفع الملك العادل على اسوارها راية النصر والظفر

" ومن الواجب عليَّ ان اعترف بفضل هذا الملك الذي تسامح معنا في الشروط فأذن لنا في الذهاب الى انطاكية بنسائنا واولادنا وكل مالنا . واطلق اسرى طبرية كلهم وافتدى بمالهِ جميع الاسرى الذين لم يكونوا في حوزتهِ . واحسن الى الارامل اللواتي فقدن ازواجهنَّ في الحرب وأمر ان يُعنى بالجرحى ويداووا على نفقتهِ . وبكلمة اقول انهُ ابدى من الاريحيَّة والانسانية ما يصعب تصديقهُ ويعزُّ نظيرهُ . وفيما كانت شعلة هذا الاذلال تتقد في قلوبنا استعر لهب تلك الحادثة التي أودت بشرف ابنة اموري

" هذه الاميرة كانت مع لوسيان في معركة طبرية فالقيت الملك العادل وفوَّمت سنان رمحها واخذت تطاعنهُ ببأسٍ شديد وعزم يفلُّ الحديد . ولكنها عنت اخيراً لذراعٍ لم يستطع احدٌ قطُّ ان يقاومها . وبعد ما نزع سلاحها دهش اشدَّ الدهش إذ علم انها امرأة . وتبعتهُ في ساحة القتال الى سرادقهِ .

" ومن ذلك اليوم انشقت اغنس عن الافرنج وانكرتهم واستعبدت لمن أذلها في ساحة القتال — وحملتها الحماقة المعيبة — التي تدعى سفهاً محبة — على الافتخار بابتذال شأنها . تخدعتها نفسها الامَّارة بالسوء وزفَّت اليها الشهرة القبيحة بصورة الصيت الحسن الكاذب . فلم تلقَ ممن طاشت في حبهِ وعللت نفسها بالاخذ بمجامع قلبهِ سوى الصدّ والإعراض والانزواء والانقباض .

" اما الآن وقد بلغتنا انباء ندامتها على ما قدَّمت يداها فلنضرب صفحاً عن تذكُّر ذنوبها وخطاياها ولنبادر الى استقبالها بالشفقة والحنان ولتتخذ حادثتها عبرة لنا وذكرى . ولنعد الى تتمة الحديث

" لما خرجت الملكة سيبل ببقية شعبها صغيرة القلب ذليلة النفس تجرُّ وراءها ذيول القنوط واليأس رآها صلاح الدين واسرع الى ملاقاتها وعرض عليها ان تطلب منهُ ما أرادت واعداً اياها بالاجابة . فطلبت على الفور اطلاق زوجها ومع توقع السلطان هذا الطلب تظاهر بالدهشة وقال انهُ سيجيبها برَّا بوعدهِ فقط والواقع انهُ كان راغباً كل الرغبة في اطلاق سراح لوسيان لعلمهِ ان ابقاءهُ اسيراً عندهُ يشدُّ اعتصاب الافرنج كلهم عليهِ فما

أبطأ ان فكّ قيود لوسيان وأطلقهُ زعيمًا لحلّ عرى اتحاد الافرنج واتفاقهم وداعيًا الى نزاعهم وشقاقهم . وهكذا كان فان ملك القدس ما لبث بعد ان انحلت ربطهُ أن جاهر بحقوقهِ في عرشهِ وأثار ساكن الاحقاد في صدر كونراد حتى أوصد دونهُ ابواب صور وتحكم الاختلاف في معسكر الافرنج كما اراد صلاح الدين . وذلك كلهُ كان على عرش خسروهُ ولم يعرفوا بعد كيف يستطيعون ان يستردوهُ

" وعلى هذه الحال تركتُ ارض فلسطين حين شخصت الى اوربا منادياً بالويل والثبور ومحرّضاً ملوكها على مدّ ايدي المساعدة والمبادرة الى استرجاع بيت المقدس بنفسٍ واحدة . وقد نجحت مساعيَّ ولبى الملوك ندائي كما تعلمان . "

ثم استحوذ عليهِ سكوت عميق غاص بهِ في لجج التأمّلات ودلت ظواهر وجههِ وشخوص نظرهِ على انقطاعهِ الى الصلاة . وساد عليهِ وعلى الاميرتين سكون اخترق حجابهُ صوت حركةٍ اشبه بحفيف رداء امرأة في اوراق الاغصان فالتفت رئيس الاساقفة والاميرتان واذا بامرأة في لباس أمةٍ خارجة من ذلك المدخل السريّ ومتقدمة اليهم بقدمة مضطربة وهيئة ذلٍّ وخشوع لا مزيد عليهما . فسالها وليم ناهضاً لاستقبالها : —

" من انتِ ؟ "

فانطرحت عند قدميهِ باكية ولم تستطع الجواب . فصاح بها قائلاً : —

" الستِ اغنس المنكودة الحظّ ؟ "

" رحماك ايها الاب الصالح رحماك — تحنّن عليَّ ولا تسحقني بالقسوة والجفاء والاحتقار والازدراء . ارفق بي واجعل للصفح عني سبيلاً فاني ان لم امت الآن لم اعش طويلاً ! "

فاسرعت متيلدة اليها وخاطبتهُ متشفعة : —

" لا ترفضها ايها الاب الصالح لانهُ في استطاعتك حتى الآن ان تردها الى طريق الهدى والصواب

فصاحت اغنس مذعورة : —

" من هذه التي تتشفّع فيَّ ؟ اميرة انكلترة ؟ هي نعم هي وقد عرفتها من لباسها الديني — من جمال صوتها الفتّان ! أفالى هذه الدرجة من الهون بلغتُ حتى اكون مديونة لمن اساءت اليَّ وبغت عليَّ ؟

فسألتها الراهبة متعجبة : —

" على مَ توبخينني انا الغريبة في دمياط — الاسيرة في هذا القصر — ولم اعلم شيئًا عن اسمك ووجودك الاَّ في هذه الساعة ؟ "

" يكفي انكِ اغتصبتني حبًّا بذلتُ فيهِ اعزَّ مالي في هذه الحياة . فانتِ علةُ شقائي ومبعث عنائي . . . ! "

فاعترضها رئيس الاساقفة ساخطًا : —

" صه يا أغنس : ان شقاءك نتيجة خطيئتكِ . واذا كنتِ لا تزالين مصرَّةً على غروركِ فلماذا جئتِ الى هنا ؟ بل ماذا دعاك الى تحديش الآذان بهذه الالفاظ القبيحة ؟ "

" جئتُ اطلب حماية من جور كنودٍ يبغي إذلالي . جئتُ اطلب اسلحةً آخذ بها بثاري . ردّ اليَّ سيفي ورمحي فتعرف ذراعي كيف تخلّص اميرة القدس من هذا الذلّ العظيم . "

" اذهبي ايها المرأة الشقيَّة ارجعي ادراجكِ الى مقام عاركِ إبقي على الامتهان الجدير بكِ "

فقبضت متيلدة على يدهِ وخاطبتهُ بصوت الاستشفاع : —

" رفقًا بها يا ابي — ارثِ لضعفها واعضدها . انها خاطئة — اشفق عليها وتغلَّب على عواطفها بقوَّة صلاحك وتقواك . "

وقالت الملكة : —

" نعم يا ابي جرِّب اولاً علاج اللطف والحنوّ ولا تعاملها بالعنف مادمت ترى الى الرفق سبيلاً "

واذ ذاك جاءت الأمة التي تقدم الكلام على اجتماعها بالملكة ومتيلدة وكلَّمت سيدتها اغنس بنفسٍ متقطع قائلةً : —

" لقد شعروا بغيابكِ وهم الآن يفتشون عنكِ وقد انتهزت فرصة الاضطراب الناتج عن هربكِ واسرعتُ في المجيء اليكِ . ونحن هنا في أمنٍ لان هذا المدخل السريّ غير معروف عندهم . وقصر ملكة انكلترة معدودٌ بأمر الملك العادل حرمًا لا يجوز تفتيشهُ . "

فقالت الملكة : —

" تعالي يا اغنس تعالي الى منزلنا وعند رجوع الملك العادل من القاهرة أسألهُ ان يأذن لكِ في الانطلاق . . . "

فاعترضتها اغنس : —

" لاتسألي لهِ شيئًا لاجلي لاني لا أريد ان اكون مدينونة لهُ بحريتي ولا بحياتي . وعليَّ الاهتمام لنفسي . لاني سألتمس لي في عرض البيداء مسكنًا انزلهُ مدججة بسلاحي ومتوقعةً نهاية امري فان ختمت بالخير فذلك من جودكِ وشجاعتي "

فاقنعها رئيس الاساقفة بتعذر ما تبتغيهِ الآن ووجوب الإذعان الى الاقامة مع الملكة حتى تسنح لها الفرصة المناسبة للهرب . وحينئذٍ استندت الى ذراع امتها وسارت تصحب الاميرتين الى القصر حيث اخلت لها متيلدة مقصورتها واعتزلت الى غرفةٍ أُخرى صغيرة بجانبها تراجع جميع ما عرض لها من هذه الحوادث العجيبة الغريبة . وفي الختام تغلَّبت طهارة ست عشرة سنة على انباء بضع ساعات . فتقدمت صلاتها المعتادة ولم يبقَ في ذهنها من آثار ذلك المشهد سوى الاسف على شقاء اغنس المجهولة عندها اسبابهُ ودواعيهِ

الفصل السابع

متيلدة والملك العادل

وكانت اميرة القدس قد عدمت من زمان طويل السلام المخيم في فؤاد متيلدة واغلق عذاب ضميرها باب الندامة الحقيقية في وجهها وحال غيظها الشديد وحبها للانتقام دون الاسف على خطاياها فتحكم فيها البغض لحبيبها الذي هجرها وللملكة التي اجارتها ولمتيلدة البريئة من كل اثم ومظنة

ولما خلت بنفسها في حجرتها اخذت تراجع حوادث حياتها الماضية ولما تمثل لها فكر افترانها الابدي عن الملك العادل انتفضت كعصفور بللهُ القطر وصرخت بصوتٍ عالٍ وهي غارقة في بحر الذهول والشرود فأفاقت متيلدة مذعورة

ولما طلع الفجر وكان جميع من في القصر باقين نياماً طرق اذن اميرة انكتترة اصوات زفرات وتنهدات خارجة من مصدر ذلك الصراخ الذي ايقظها في الليل فاسرعت الى مقصورة اغنس فرأتها تروح وتجيء بخطًى متسارعة وعينين جامدتين امخنهما السهاد والحزن ولم تبردهما قطُّ دمعةٌ . فلما رأت متيلدةَ قادمةً اليها صاحت : —

" ماذا تريدين مني ! وهل جئتِ بوجهكِ المطبوعة عليهِ صورة الملائكة لتسخري بالارواح الشريرة العابثة بي ؟ "

فاجابتها الراهبة بدعة ورقة : —

" ايقظني عويلك يا أغنس فجئت لعلي اقدر ان اخدمك بشيء "

" تخدميني ؟ نعم ! أبحقٍ تقولين هذا ؟ اتريدين ان تخففي عنيَّ وطأة حزني ؟ اذًا أرجعي اليَّ القلب الذي سلبتنيهِ ! ردّي اليَّ حبيبي الملك العادل ! "

" اشكر الله يا اغنس على ان قلب هذا الرجل ليس عندي ! "

فاخذت اغنس بيدها وصاحت :.

" آه يا ليت قولك هذا يكون صحيحاً ! ليتني اقدر ان أُصدّقكِ ! اسمعي لي . اذا عرض عليكِ هذا القلبَ الذي هو ملكي — وقوام سعادتي في هذا العالم وفي العالم الآتي — فارفضيهِ لئلاَّ تصيري مثلي ! "

" ألا ترومين ان تعيشي منذ الآن عيشةً جديدة وتحيي حياة سعيدة . ألا تستطيعين ترك مبعث شقائك الى الأبد ؟ "

" ان اتركهُ ! ان اترك الملك العادل ! هذا مستحيل : لا اقدر ان احرم نفسي لذة محبتهِ — آه لو تعلمين ايَّ سعادة في تركي بين يديهِ بلادي — أهلي — نفسي — واعزّ شيء عندي بل لم تعلمي مبلغ الاثم الذي بلغتهُ باستسلامي الى ميلي الوحشي . فقد تمنيت من صميم فؤادي لو انقرض الافرنج كلهم عن وجه الارض حتى لا يبقى عائقٌ في سبيل مجد حبيبي . وجل ما اشتهتهُ مطامع كبريائي ان ارى الملك العادل ملك الملوك وسلطان السلاطين . ولهذا ارى الانفصال الابدي عنهُ اشدَّ هولاً من الدينونة الابديَّة . فاتركيني اذًا واذهبي اخبري رئيسك اني ارفض حتى الهمُ ان كان يأبى عليَّ محبة الملك العادل ! "

واذ ذاك سمعت متيلدة وقع اقدام امائها فاوصتهنَّ بالعناية باغنس وخرجت تتعثَّر باذيال الذعر والرعب مما سمعت وعاينت وارسلت على الفور تدعو رئيس الاساقفة فلما حضر قالت لهُ :

" ان اميرة القدس مصابة بحمَّى شديدة ذاهبة بصوابها حتى انها تهذي هذيانًا مخيفًا وتنطق بتجاديف لا تطيق الاذن سماعها "

فقال لها : —

" اذهبي الى الملكة واقتصري على العناية بما أنتِ منقطعة اليهِ من التعبُّد ولا ترجعي من غير ان تريني اولاً . "

فامتثلت متيلدة اشارتهُ وذهبت تفتش عن الملكة فوجدتها في القاعة ولما نظرتها برنغاريا مقبلةً نهضت لملاقاتها وقالت : —

" رجع الامير وعما قليل يأتي ليقصَّ علينا انباء شعبنا . فتعالي اجلسي بجانبي . "

فاطاعت متيلدة وجلست بقلبٍ مضطرب ووجنتين محمرتين . واخذت الاماء اللواتي كنَّ قد جئنَ الى الملكة بسلال الفواكه والثمار واطباق الرياحين والازهار يرقصنَ على نغمات الصنوج والدفوف رقصًا لم تنبسط لهُ الملكة وفرَّت عنهُ نفس متيلدة فانصرفت الى شرفة اطلَّت منها على زرقة الجوّ وخضرة الاشجار واستنشقت نسيم الصباح معطَّرًا بارج الازهار ورأت من

جمال الطبيعة حولها داعياً يدعوها الى الاعتزال للتامل باقدس الخواطر واطهر الافكار فلبّت هذا الداعي ونزلت الى الحديقة تلتمس التمشي على انفراد وسارت تجاري مجرًى انيقاً صافياً يترقرق بلوره على عقيقٍ وهو يقبّل الاذيال المتدلاّة من اغصان الليمون واقنان الورد والياسمين . وظلت عاملة على المسير ذاهلةً عن تحوّل تطوافها من بين الرياحين والازهار الى ما بين الادغال والعلّيق . ولم تنتبه الى ما صارت اليهِ الارض هنالك من تشعُّب المسالك الاّ بعد ما ضلّت سواء السبيل ورأت نفسها داخلة في تيهٍ يتعذّر عليها الخروج منهُ

ولكنّ استئناسها بالازهار البريّة والمناظر الغريبة التي لم تألفها قبلاً شغلها عن الخوف والقلق حتى طالت عليها شقة المسير على هذه الحالة وشعرت بالتعب فوقفت تستريح قليلاً تحت شجرة ياسمين باسقة الاغصان وارفة الظلال

وكان الملك العادل قد جاء الى القصر واذ لم يجدها فيهِ تعجّب فارسلت برنغاريا بعض الاماء للتفتيش عنها فلم يجدنها وبلغ رئيس الاساقفة غيابها فاضطرب . وحينئذٍ تذكرت الملكة انها شاهدتها في الشرفة المطلة على الحديقة فأسرعت نازلة الى جنة القصر لتفتش عنها

وادرك الملك العادل قصدها وعلّل نفسهُ بامكان اجتماعهِ بمثيلدة على انفرادٍ فعدا طائرًا على جناح الامل والحبّ وسار يتأثرها في جهة يعرف مداخلها ومخارجها جيّدًا حتى ابصر ثوبها الابيض من خلال الاغصان فانطلق اليها مبطئاً في مسيرهِ كأنهُ يمتع نفسهِ بلذة مشاهدتها قبل حصولها

فسمعت مثيلدة وقع خطواتهِ ولما رأتهُ وعرفتهُ وثبت بقوة الخوف وولّت هاربة . ولكنّ الحمامة التي قضت ايامها محصورة في القفص لاتستطيع الافلات من يدي الباز الذي يطاردها مطلق الجناحين فما ابطأ ان ادركها واخذ بثوبها وهمّ ان يطوّقها بذراعيهِ ولكنهُ امسك عن ذلك خشيةً واجلالاً . وخاطبها قائلاً : —

" ايتها الفتاة الحسناء ! يا ابنة السماء التي فاقت تصورات احلامي — التي صلتني نارًا لا اجسر ان المسها — لقد ملكتِ قياد انسان لم يذعن بعد قطّ لسلطة انسان . فمن اين لكِ هذه القوة ؟ بل ماذا يبعثك على هذا النفار ؟ وعلى مَ ترمقينني بعين الذعر والارتعاد ؟ انظري اليّ بعين الثقة والاطمئنان واعلمي ان انكلترة لن تشاهدك بعد الآن . "

فانتزعت يدها من قبضتهِ وخبأتها في طي كمّها وسدلت النقاب على وجهها وقالت : —

"عزمت على ان اقضي حياتي راهبة متبتلة . وقد جئت قاصدة زيارة الارض المقدسة استعدادًا لهذا الامر الخطير فاسمح لي اذًا ان انضمّ الى شعبي ولا تحاول باطلاً ان تثنيني عن عزمي "

فرأى من شدة اصرارها انها ثابتة على عزمها وان استمالة قلبها تتطلب اولاً اكتساب ثقتها بهِ واحترامها لهُ فقال لها : —

" ايتها الطهارة المتجسدة افعلي ماشئتِ فلا اعوقكِ بعد الآن عن اتمام ما تريدين "

واذ سألتهُ ان يرجع بها الى الملكة سار امامها في اقرب طريق الى القصر ومشت هي في اثرهِ ولما اقتربا من القصر شاهدا الملكة ورئيس الاساقفة مسرعين لملاقاتهما فتقدمت متيلدة تصغي بمزيد الارتباك الى اسئلة الملكة وتصبر على وقع نظر الرئيس

ولما استراحت افكار برنغاريا من جهة متيلدة سألت الملك العادل عما يعلمهُ عن زوجها وقبلما شرع في الجواب رفع نظرهُ فرأى بارونًا مقبلاً نحوهم فسأل الملكة مقطبًا : —

" من هذا الذي اقدم في مثل هذه الساعة على المجيء الى هنا من غير اذن ؟ "

فعرف رئيس الاساقفة ان البارون القادم جوسلين دي مونمورانسي فذكرهُ باسمهِ للملك فقال : —

" كثيرًا ما سمعت بهذا الاسم الطائر الشهرة ولكنهُ مع هذا كلهِ لا يحق لصاحبهِ التهوُّر والاعتساف . "

ثم قام يلاقي جوسلين ولما دنا منهُ قال لهُ : —

" هل نسيتَ انهُ لا يجوز لاحد الدخول الى هنا بلا اذنٍ صريح من ملكة انكلترة ؟ "

" اننا حينما استودعنا رتشرد زوجتهُ وشقيقتهُ حلفنا لهُ بالذود عن حياتهما حتى تستنزف شفار السيوف آخر نقطة من دمائنا . والآن لما جئت القصر سمعت بغياب الاميرة متولدة غيابًا يؤذن بالخطر الذي . . . . "

فاعترضهُ الملك العادل بقولهِ : — " ايُّ خطرٍ يمكن ان يلمَّ بها هنا ؟ "

" لم يهمني ان اعرف هذا بل كان ما سمعتهُ كافيًا لايجاس الخوف عليها ولهذا جئتُ لاحامي عنها بما تصل اليهِ قوتي "

فأعجب الملك العادل بعزَّة نفسهِ وصاحَ قائلاً : —

" اي مونمورانسي الباسل لا توجس بعد الآن خوفًا على اميرة انكلترة لاني سأتولى حراستها بنفسي . "

ثم حدَّثتهُ نفسهُ بامكان تقرُّب مونمورانسي من الاميرة ومناظرتهِ لهُ في حبها فسوَّلت لهُ الايقاع بهِ واكتساحهُ من طريقهِ . لكنهُ ما ابطأ ان تثبَّت في الامر واستردَّ لنفسهِ رصانتها المعهودة وقال مخاطبًا البارون : —

" اني اعلم يا مونمورانسي ان نفساً ابيةً كالتي في صدر شهم انوفٍ نظيرك تأبى الاقامة على ذلّ الاسار وهون الانحباس . فأنا أُطلق قيادك وافك اسرك . فانطلق الى رفقائك حرًّا وقل لهم اني لا ارهب جانبهم بعد ما اقدمتُ على اطلاقك اليهم . "

فتعجب جوسلين ولم يستطع إقناع نفسهِ بقبول هذه المنة . وإذ كان قد حلف لرتشرد بالبقاء مع الاميرتين وطّن نفسهُ على ان يبرَّ بيمينهِ او يصدرها عن مشارف الاسر بورود حينهِ

وكانت الملكة تودُّ انطلاق مونمورانسي ليحمل الى رتشرد اخبارها فصرَّحت برغبتها في ذلك ولم يبقَ للبارون سوى تعلةٍ واحدة فتقدم الى الاميرة متوسلاً اليها ان تسمح لهُ بالبقاء ولا توافق على انطلاقهِ — وحينئذٍ تقدَّم الملك العادل الى متيلدة وقال لها : —

اعلمي ايها الاميرة اني واقف لكِ احترامًا خالصًا طاهرًا وخدمةً صادقةً بلا منٍّ ولا سأمٍ . فتأملي في ما ينجم عن هذا كلهِ من الفوائد لشعبكِ واصدقائكِ واخيكِ "

فعبثت بها الحيرة والاضطراب ولم تستطع الاختيار وقد فارقها العزم وخانها الجلد . فلاذت بحكمة رئيس الاساقفة وقالت لهُ : —

" ارشدني يا ابي . قل لي ماذا يجب ان اختار "

فاجابها : —

" اعلمي يا ابنتي اننا في حاجة شديدة الى حسام مونمورانسي في ضواحي عكاء وليس من الحزم أن تبقيهِ هنا مغفلاً في غمدهِ وتحولي دون تجريدهِ في ساحة الوغى . ولكن اذا قضت عليكِ هذه الاعتبارات الجوهريَّة بان تطلقيهِ تحاولاً من قسمهِ فهي ايضاً تضطركِ الى رفض خدمة الملك العادل على عظمة شأنهِ وشدة كرم اخلاقهِ لما بيننا وبينهُ من الاختلاف السياسي هذا فضلاً عن انكِ في غنى عن مساعدة الناس "

فقالت : —

" ان جوابك يا ابي غاية في الحكمة والصواب . فعليهِ اعتمد وبهِ أعمل "

ثم التفتت الى جوسلين وقالت : —

" اي بارون مونمورانسي ان سبيل المجد مفتوح امامك فلا احول دون تأهبك للسير فيهِ . فانطلق الى المعسكر الخافقة عليهِ اعلامنا واسفك دمك الكريم في ما هو اعظم شأنًا من خدمتك لنا . ولا تنسَ ان تخبر اخي بكرامة اخلاق من نحن في اسرهِ . وانهُ ليسهل عليك تفصيل ما تفضل بهِ علينا لأنَّ اخلق بارون مثلك بفضل المعروف والشهامة عبارة عن نطقهِ بلغة وطنهِ ولسانهِ الطبيعي "

فأثر كلامها هذا تأثيرًا شديدًا في مونمورامي فقبّل هدب ثوبها وانحنى امام الملكة وحيّا الامير ورئيس الاساقفة وخرج

وبعد انطلاقهِ دنا الرئيس من الملك العادل وقصّ عليهِ قصة ابنة اموري — اخبرهُ برغبة اغنس في التكفير عن جرائمها بالانقطاع الى دير تقضي فيهِ غابر حياتها والتمس منهُ ان يأذن لها في ذلك فقال لهُ : —

" انت تعلم جيدًا ايها الاب المحترم اني لم أُغرِ اغنس بارتكاب ما ارتكبتهُ بل هي التي عرضت عليَّ حبًّا لم يمكني جمالها الرائع من رفضهِ لكني لم اجد من صفاتها ما يعثني على مقابلة حبها بمثلهِ . والمرأة التي لقيتها في غمرة الكفاح وساحة الطعان حيث كانت تباع الارواح بابخس الاثمان ولم يؤثر شيئًا في صلابة قلبها ما شاهدتهُ من الفتكِ باعزّاء قومها والسفك من دماء شعبها . لم تقوَ قطّ على امتلاك ذرقٍ من حبي . ولا على الأخذ بشيءٍ من مجامع قلبي . وانما للجمال الوديع المجمّل بالخفر والاحتشام . وللذات المزدانة بالطهر المستوجب الاحترام . يحنّ فؤادي بمزيد الهيام كما يحنّ الى . . . . "

فاسرع الرئيس الى اعتراض النطق بالكلمة التي كادت تنمّ بها شفتا الملك العادل وقال لهُ :—

" مولاي على مَ عزمتَ من جهة ابنة اموري ؟ "

" جعلت امرها في يدي الملكة فلتعنَ بها وتحنَّ عليها لانهُ لم يبقَ لها غيرها من واقٍ بعدما فقدت شقيقتها من عهدٍ قريبٍ — سيبل مانت . . . " فصاح رئيس الاساقفة : —

" مانت سيبل ؟ فماذا يصيب لوسيان ؟ وبمَ يتعلّل بعد الآن وقد مانت من كان يتذرّع بها الى طلب تاج بيت المقدس ؟ "

ثم افاض الملك العادل في شرح حالة الافرنج الراهنة واخبرهم بانَّ موت سيبل لم يغيّر شيئًا من طيش لوسيان ورعونتهِ فلا يزال مصرًّا على الادعاء بحقهِ في الملك وقصّ عليهم ما بين الملك رتشرد وفيليب اغسطس من الشقاق الذي آل الى انقسام الافرنج بعضهم على بعض

فزفر رئيس الاساقفة زفرة الحزن والاسف على سوء مصير شعبهِ وكانت الملكة متعطشة الى ابلاغ زوجها لواعج شوقها اليهِ فاستأذنت الامير في الانفراد وهو على الفور حيّاها مودّعًا وشيّع متيلدة بنظر الوجد والحنين وذهب لشأنهِ

تخفّت برنغاريا الى مخدعها واغلقت على نفسها واكبّت على الكتابة وسارت متيلدة تصحب رئيس الاساقفة الى المصلّى قاصدة ان تعترف لهُ بذنوبها التي وبخّت نفسها عليها فلما بلغا المكان المقصود جثت على ركبتيها امامهُ صارخة : —

" ما اشدّ حماقتي التي حملتني على هجر معتزلي الامين والمجيء الى هنا للوقوف على امور عبثت بسلامي السابق وذهبت براحتي الغابرة

" ماذا عسى ان يكون قد اعتراكِ وكدّر صفاء طهارتك ؟ "

" ان الامير فاجأني في البستان واخبرني بانهُ يحبني "

فأخذ يحدّثها في ما من شأنهِ ان ينشّطها ويزيل تأثير هذه الحادثة من افكارها . ولما رجعت الى مخدعها لم تجد اغنس هناك لأنّ الملك العادل كان قد امرها بالانتقال الى مخدع آخر قريب من برنغاريا وشدّد عليها التنبيه بأن لا تبرح مخدعها هذا الأحين تكون مع الملكة

الفصل الثامن

ابعاد رئيس الاساقفة عن دمياط

شغل حبُّ اميرة انكلترة قلبَ الملك العادل فلم يعد يكترث لشيء آخر سواهُ . وكرّت عليهِ الايام فلم يزدهُ كرورها الاّ قلقاً واضطراباً وبات من جراء هذا الحبّ الجديد عرضة للآمال والمخاوف فكان اذا نام يحوم الحبُّ على وسادتهِ ويبغتهُ بالهواجس والاحلام . واذا جلس للاستشارة او خرج لاستعراض الجيوش انساهُ موضوع حبهِ كلَّ شيء آخر وغادرهُ مبصراً لا يبصر وسامعاً لا يسمع . وكان كلما زاد حبهُ يقلُّ صبرهُ وتضعف ارادتهُ . ولم يخفَ عليهِ ان ما تعاملهُ بهِ الاميرة من الصدود والاعراض كان يزيدهُ بها هياماً ويزيدها في عينيهِ جمالاً

وعبثاً كان يذهب كل يومٍ الى قصر الملكة معللاً نفسهُ بان يرى الاميرة هناك وكثيراً ما كان يسأل عن سبب غيابها فيسمع جواباً واحداً وهو : — انها بمقتضى مطاليب نذورها لا تستطيع الحضور امام الرجال

ولما لم يعد في إمكانهِ الصبر على هذه الحال جاء ذات يوم الى الملكة واطلعها طلع امرهِ واندرها بانهُ لم يعد يستطيع احتمال هذه المعاملة وانهُ اذا دامت متيلدة محجوبة عنهُ لم يكن مسؤولاً عما يأتيهِ من الاعمال التي يتحوّل فيها عن الرفق واللطف الى القسوة والعنف . الى ان قال : —

" تعلمين ما في اطلاقكم جميعاً بلا اذن صلاح الدين من الخطر . ومع ذلك فلو طلبت مني متيلدة الإقدام عليهِ لما تأخرت عنهُ "

فتأثرت برنغاريا من كلامهِ وسرَّها الافتكار بامكان رجوعها الى زوجها لكنها لم تجسر ان تعلّل الملك الكامل بمثل هذا الامل واقتصرت على مقاسمتهِ الاسف على خيبة أملهِ وصرَّحت لهُ بانها لا تستطيع اكراه متيلدة على هذا الطلب مع انها تتوقعهُ بفروغ صبرٍ . فاكتفى بهذا التصريح ولم يستزدها شيئاً

ثم ذهبت الملكة الى متيلدة فوجدت رئيس الاساقفة عندها وقصَّت عليهما كل ما سمعتهُ من الملك وانهُ مستعدٌ ان يطلقهم جميعاً بكلمة يسمعها من متيلدة لانهُ يحبها محبة تفوق الوصف

فاضطربت الفتاة من سماع هذا الكلام وتوردت وجنتها البيضاء بحمرة فاقعة واطرقت اطراق الاتضاع واسرفت في لوم نفسها على إضرامها نار الحبّ في فؤاد هذا الامير

فقالت لها الملكة : —

" ماذا عليكِ لو نزعتِ عن الغلظ والعنف وسالت الامير ان يُطلق سراحنا . اسمحي لهُ ان يراكِ مرة واحدة فقط . فقد اقسم انهُ ليعطينَّكِ مهما طلبتِ ! "

فاعترضها رئيس الاساقفة بقولهِ : —

" لا اكتم عن جلالتكِ ان الاميرة بعدما اذعنت الى نصحي وارشادي لا تبقى دقيقة واحدة في حضرة رجلٍ اقدم على رفع نظرهِ الى محياها الطاهر

وفي الصباح التالي زار الملك العادل الملكة فبلَّغتهُ خلاصة ما كان من اجتماعها برئيس الاساقفة ومتيلدة فقال لها : —

" بما انهما رفضا مقابلتي والاصغاء الى ما عندي من الاقتراحات فلسوف الزم الصمت المطلق وادع غيري يحصد نتيجة هذا السعي الذميم "

فاجابتهُ برنغاريا باكيةً : —

" أوّاهُ ! إذاً اين عدلك الذي هو موضوع افتخارك ؟ أتؤاخذني بذنب غيري ؟ ألا تعلم انهُ لا يمكن تحقيق شيء مما ترجوهُ ما دام رئيس الاساقفة بجانب الاميرة "

" إذاً رئيس الاساقفة حائلٌ دون ادراك مرامي ؟ "

" انهُ كما لا يخفى عليك رجلٌ ذو حكمةٍ واختبار وتقوى . وهو عالم ان متيلدة زهدت في العالم ونذرت ان تقضي حياتها في التبتُّل لله منقطعة عن كل ما يعبث بطهارة نفسها "

فلما سمع الملك العادل هذا الكلام عزم في الحال على اخراج رئيس الاساقفة من دمياط ولكن الى اين ؟ الى احدى المدائن منفياً مأسوراً ام الى معسكر الافرنج ؟ . وهنا تنازعتهُ الفطنة وكرامة الاخلاق . ولكن في مثل فؤاد الملك العادل تكون الغلبة على الدوام للعاطفة

الثانية وعليهِ لم يلبث ان سدَّ أُذنيهِ دون استماع صوت الفطنة وعلى الفور استدعى اليهِ رئيس الاساقفة ولما حضر قال لهُ : —

" ارسل اليَّ صلاح الدين يقول انهُ لا يسمح باطلاق ملكة انكلترة حتى يرفع الافرنج الحصار عن عكاء . ولا اعلم هل يتغلَّب ميل رتشرد الى انقاذ زوجتهِ من الاسر على مطامع نفسهِ الحربيَّة ويفيدهُ جدًّا في مثل هذا الوقت ان يكون معضودًا باصالة رأيك ونصائح حكمتك وبناء عليهِ اطلق لك حريتك لتذهب اليهِ مع مونمورانسي وتطلعهُ على ما يعرضهُ صلاح الدين فاذا قبلهُ واقنع باقي الملوك الذين معهُ — وذلك في استطاعتهِ — كفينا البلاد والعباد غوائل الحرب وعشنا في صلحٍ وسلام . ولكن ان اصرَّ على عزمهِ واثر عكاء على زوجتهِ فقل لهُ اني متأهب لملاقاتهِ "

فلم يصعب على رئيس الاساقفة معرفة السبب الحقيقي لرغبة الملك العادل في ابعادهِ عن دمياط . لكنهُ قال في نفسهِ : — " لماذا يطلق لي حريتي ؟ لماذا يأذن لي في الرجوع الى شعبي ؟ الم يكن في استطاعتهِ ان يرسلني سجينًا الى مكان آخر ؟ او من الضروري ان تكون الشهامة الممتاز بها الملك العادل ظاهرة حتى في مساوئهِ ؟ "

ومجمل القول ان الحبَّ الذي اطاش الملك العادل راع رئيس الاساقفة وزادهُ تمسكاً بوجوب البقاء مع متيلدة ليقيها شرَّ الخاطر المعرَّضة لها . فقال للامير : —

" لا يظنَّنَّ سيدي الامير ان حبَّ رتشرد لمليكتهِ يغريهِ بقبول هذا الاقتراح المهين فمع انهُ لا يبخل حتى بسفك دمهِ في سبيل انقاذ الملكة من يدك ما كان قطُّ ليحجم عن تضحية برنغاريا حبًّا بمصلحة بلادهِ وقومهِ . وقس عليهِ باقي ملوكنا وامرائنا . ولا اكتمك اني لو آنست فيهم اقلَّ هشاشة الى قبول هذا الاقتراح لبذلت جهدي في صرفهم عنهُ بكلامٍ يصبغ وجوههم بحمرة الخجل والاستحياء من ركوب مثل هذه الدناءة . وحاشا لكاهن مثلي ان يقبل وهو رسول السلام سفارة كهذه ليس فيها سوى استثارة العداء وحب الانتقام "

" ومع ذلك فايَّاك انتدبتُ الى ابلاغها . وفي مساء هذا اليوم تنطلق مع القافلة التي تصحب مونمورانسي الى معسكر الافرنج محفوفًا بما كان لك عندي هنا من الرعاية والاكرام . لكني لا اسمح لك بالبقاء يومًا واحدًا في دمياط . وما اظنك تقدم على مخالفتي في هذا الامر "

وعلى الفور بادر رئيس الاساقفة الى الاجتماع باميرة انكلترة وقال لها : —

" لا ابقى عندك سوى دقائق معدودة . فالاله الصالح يحرسك ويحفظك . اتكلي عليهِ وحدهُ . ان الملك العادل صمم على ابعادي عنكِ لكي يأمن مراقبتي ورعايتي ويضمن لنفسهِ

الاقتراب منك " فصاحت متيلدة مرتعدة :

" ماذا . أتتركني يا ابي ! "

" ان يوم الضيق قد جاء يا ابني فعلينا ان نستقبلهُ بعزم وثبات . وليست هذه الامتحانات التي تتعرضين لها سوى عنوان محبتهِ تعالى . واذا مسَّت الحاجة فايَّاكِ ان تتأخري عن تضحية حياتكِ في سبيل ما هو اثمن منها وهو شرفكِ "

فسألتهُ باكيةً :—

" أوَّاهُ يا ابي اني لم ادرك مرادك بهذا الانذار فأتوسل اليك ان تزيدني ايضاحاً "

" ان الامير يتشخص بميلٍ عالميّ اليكِ ويروم ان يجعلكِ في عداد زوجاتهِ — انتِ ابنة الملوك وعذراء الطهارة والقداسة ! انكِ ترتعدين من سماع هذا الكلام وتشعرين بان مجرَّد الافتكار بهِ يشين قداستكِ ! فتشجعي ووطني نفسك على الموت ان مسَّت الحاجة لان الله يكون قريباً منكِ والسماء تنفتح لقبول نفسكِ المفدية

" رحماك يا ابي لا تتركني ! "

" اني مكرهٌ على ذلك كما اخبرتكِ . وفي مصارعتكِ التجارب وحدكِ زيادة مجدٍ لك واذا شعرتِ من نفسكِ بالضعف وعدم استطاعة الثبات فالتمسي من الامير ان يأذن لكِ في الذهاب الى البادية حيث تجدين اطلال دير للقديس يوحنا يقيم فيها ناسكٌ تقيٌّ عرف قبلاً بالحكمة والاقتدار على حلّ المعضلات وكشف اسرار الارض والسماوات . ثم زهد في الدنيا واقام في اطلال هذا الدير منقطعاً للصوم والصلاة واضافة الغرباء فاياهُ اعتمدي في المساعدة والتمسي صلواتهِ فانها تعرف اقرب طريق الى السماء "

وبلغ برنغار يا خبر انطلاق رئيس الاساقفة فجاءت تروم الوقوف على السبب فلما اطلعها على مقترح الامير لاجل ابعادهِ عن دمياط صاحت :—

" ويلاهُ ! ايطلب صلاح الدين لاجل فديتي ما يكون فيهِ العار والخجل لزوجي ؟ فان صحَّ ان هذا مرادهُ فاني موتاً اموت ولن ارى رتشرد المحبوب ! ولكن ليعلم رتشرد اني لااموت وحدي بل يموت معي في احشائي وارث اسمهِ وعرشهِ ! "

" خلي عنك الجزع فالعناية الالهية حافظة لك وسوف تعودين الى انكلترة ومعك سليل هنري الثامن العظيم . والآن استودعك متيلدة فاشمليها بعنايتك وقبل انطلاقي ساجتهد في اقناع اغنس بالذهاب معي إذ لا سبيل الى خلاصها الاَّ بابعادها عن دمياط . الوداع ايتها الاميرتان المنكودتا الحظ "

وبعد ما رفع يديهِ فوق رأسيهما وباركهما انطلق وعيناهُ غارقتان في الدموع وفؤادهُ مملوءٌ حزناً واكتئاباً

الفصل التاسع

الوصول الى عكاء

وذهب رئيس الاساقفة الى اغنس وعرض عليها الذهاب معهُ قائلاً لها : — "إذا لم يسهل عليك الذهاب الى المعسكر ففي دير القديسة هيلانة على جبل الكرمل تلقين قبولاً وترحيباً من قديساتٍ عائشات عيشة التقوى والطهارة والانضاع وقمع النفس والجسد فلا يحسبن انفسهنَّ افضل منكِ ولا يذكرنَ آثامك الاَّ حينما يلتمسن لك الصفح والغفران . وفي هذا المنقطع تستطيعين يا ابنة اموري ان تكفّري في المسوح والرماد وترضّين اباك السماوي . واحذري من ان تقسّي قلبك لانَّ اثم التمرّد والعصيان شرٌّ من اثم الخطيئة "

فصاحت اغنس مضطربةً : —

" اتركني يا ابي . اتوسّل اليك ان تتركني . فما انا بقادرةٍ — كلا لست بقادرةٍ ان اتوب . ليس في فؤادي مكان الاَّ لشيءٍ واحدٍ وهو حبُّ الانتقام ! "

" اذا كان الامر كذلك فاصحبيني الى المعسكر وهناك اقرني غراوتك بغيرة جيشنا وحمية عساكرنا "

" ليس الآن . ساتوقع ذلك هنا . ولا اذهب معك "

"خلي عنكِ العناد ولا تضيعي هذه الفرصة "

" قلت لك لا اذهب فلا تتعب ولا تعتب "

وحينئذٍ تركها وخرج ولما بلغ الباب التفت اليها لعلهُ يرى في وجهها علامة — كلمة او دمعة او زفرة تشير الى ندامتها فرآها لا تزال مصرّةً على عزمها ولم تبدِ اقلَّ علامةٍ تدلُّ على تحوُّلها عنهُ . فذهب خائب الامل يطلب القافلة خارج بوابة دمياط الشرقية وهناك رأى مع مونمورانسي عدداً من الاسرى الذين دفعوا فدية نفوسهم وأُذن لهم ان يصحبوا هذا البارون ويتطوعوا لخدمتهِ . وانضمَّ اليهم فريقٌ من الرهبان الزوَّار الذين ارادوا الشخوص الى اوربا عن طريق صور . وارسل معهم الملك العادل فصيلة من الجنود لحمايتهم على الطريق

وسار الرَّكبُ على شاطىء البحر المتوسط ليتنفّسوا بنسمات البحر لذع الحرارة المنبعثة من رمال الشاطىء المحرقة . وكانت جميع المدن التي اجتازوها قد اصبحت في حوزة صلاح الدين

ولم يكن منها واحدة خالية من رسوم عظمة الافرنج القديمة وآثار صولتهم الغابرة

وبعد ما اجتازوا غزة ويافا وقيصرية وعسقلان وجبل الكرمل اقبلوا على عكاء وأبصروا من بعيد اعلام الافرنج خافقة فوق معسكرهم فأُفعم فؤاد رئيس الاساقفة فرحاً وسروراً وجد المسير اليهم يتبعهُ مونمورانسي وظلَّ الباقون سائرين على مهل

ولما رأى حرَّاس معسكر الافرنج فصيلة من جند العرب قادمة اليهم من بعيدٍ ومعها كاهن يتفحصان المعسكر عن قربٍ ظنوها خدعة حربية واوجسوا خوف المباغتة فاعلنوا الحذر بابواقهم فنهض الافرنج على الفور الى اسلحتهم واندفعوا الى المقدَّم حتى اذا بلغوا الحصون رأوا رئيس اساقفة صور وقد اخذ منهُ التعب كل مأخذٍ وكان لوسيان اوَّل من عرفهُ فاسرع الى استقبالهِ ولا حاجة الى وصف الترحيب والسرور اللذين لقيهما وليم ومونمورانسي من ملوك الافرنج وامرائهم فانهما كانا عاملين شاملين يعجز القلم عن وصفهما .

ولما سأَلهما رتشرد عن زوجتهِ وشقيقتهِ قال لهُ الرئيس : —

" لا يمكن ان تنالا حتى في قصرها ما تنالانهِ عند الملك العادل من الاكرام والاحترام وسأُرجئُ تفصيل ما يتعلق بهما وبمجيئي الى هنا . اما الآن فارجو قبل كل شيءٍ ان تحسنوا ما استطعتم معاملة الجنود الذين رافقوني . واسمحوا لهم بالذهاب الى عكاء لاني وعدتهم بذلك جزاء حسن معاملتهم لنا في الطريق "

فأُجيب ملتمسهُ باستحسانٍ عام ورغب كثيرون من عساكر الافرنج في مرافقتهم الى بوابة عكاء وقد بالغوا في هذه المسافة القصيرة في معاملتهم لهم كاخوةٍ لا كاعداء .

وطلب رئيس الاساقفة الى رتشرد ان يأمر في الغد بانعقاد مجلس شوري عام واخذ يستعد لهُ بايقاظ افكار الجموع واعدادهم لاستماع ما كان مزمعاً ان يخاطبهم بهِ . واطلع على اسباب الشقاق الطارىء وخاطب رتشرد في شأنهِ ووبخ لوسيان على تصلبهِ المنذر بشرّ العواقب وعنف فيليب اغسطس قائلاً لهُ انهُ لم يأت الى الشرق لاجل تتويج ملك القدس بل لاسترجاع بيت المقدس . وخلا بدوق بافاريا الذي تولى قيادة الالمان بعد وفاة الامبراطور فردريك واستمال اليهِ الموسيتاليين وامراء جنوى والهيكليين وفرسان مار يوحنا

الفصل العاشر

فتح عكاء

وما تورّدت وجنة الشرق بضياء الفجر حتى نهض رئيس الاساقفة من مضجعهِ وسار الى مجلس الشورى حيث نصبت ثلثة عروش احدها لرتشرد والثاني لفيليب اغسطس والثالث بقي فارغاً لانهُ نصب لامبراطور المانيا المتوفى فاستوى نائبهُ دوق بافاريا على كرسيّ تحتهُ . وجلس بعدهُ منتخبو المملكة وامراء فرنسا وبارونات انكتارة واشراف الكنيسة كلٌّ في رتبتهِ وقام في الجهة الرابعة اشراف المشرق وامراء انطاكية والجليل ويافا وطرابلس والقبر المقدس يتقدمهم كلهم لوسيان وكونراد المتناظران والمتنازعان لعرش جلس عليهِ رجل آخر غيرهما

ولما انتظم عقد الجلوس وحفّ المجلس باولئك العظماء والكبراء نهض رئيس اساقفة صور مكشوف الرأس متوقد العينين وطفق يتدفق كالسيل بفصاحة سالبة وبلاغة خالبة وحجج دامغة وبراهين بالغة منذرًا بسوء المغبة ووخامة المنقلب متوعدًا اولئك الجانحين الى زرع الإحن والفتن بحصاد شر البلايا والمحن . جارحًا كبرياءهم باسنة الملام ناصحًا لهم بالعدول عن النزاع والخصام . ومما قالهُ لهم : —

"طالما سمعت رجال صلاح الدين يقولون بعضهم لبعض : لماذا زحف اولئك الملوك العظماء الينا ؟ أليخيموا في ارضنا ويتمنعوا في حصونهم وراء متاريسهم وهم لا يجسرون ان ينازلونا في ساحة الوغى ؟ ." وليس هذا منتهى العجب وغاية المصاب الاكبر أن صلاح الدين غير واقف امامكم موقف المشاهد اللاهي بمنازعاتكم بل ترونهُ منصرف العناية الى تجييش الجيوش وحشد الكتائب وتعبئة الفرق البحرية بالسفن الحربية حتى اذا تمّ لهُ المراد من كمال التأهب والاستعداد صلاكم نارًا لاتستطيعون عليها صبرًا وكسركم كسرة لاترون لها جبرًا

"وهو فوق ذلك كلهِ متوقع مضافرة حليف لهُ اشد من جيوشهِ بطشاً وفتكاً فكلّ يومٍ يمرُّ بكم في هذه الانحاء يحمل بين يديهِ عطشاً وجوعاً ووباء حتى اذا بلغت الشمس السرطان واخذت ايام الدبّ تمطركم بصيّب النيران ونضبت العيون والحياض ويبست الحقول والرياض وتفشى بينكم الوباء قائمًا على قدم الاجتياح والاكتساح ومغادرًا الذين نجوا منكم من فتكاتهِ اسرى الضنى لا قبَل لهم على حمل السلاح حينئذٍ ينقضّ عليكم صلاح الدين انقضاض النيازك ويوردكم موارد البوائق والمهالك . حينئذٍ يباغتكم ضرغام المعامع والمعارك الملك العادل الباطش الفاتك فيمكّن سنانهُ في الصدور وحسامهُ في الرقاب ويجرفكم جرف السيول للتراب

ويسدُّ امامكم للنجاة كل باب ولا يبقى من هؤلاء الامراء المجردين سيوفهم للجهاد سوى رسوم بوارٍ ودمار وآثار خزيٍ وعارٍ لا تمحى مدى الادهار ! "

فأُخذ الجميع ببلاغة بيانهِ وسحر لسانهِ واستولى عليهم سكوت الاقرار بصحة كلامهِ وصدق انذارهِ وبدت على محيَّا لوسيان علامات التأثر والاسف واما مركيز صور المتعجرف فلم يبدُ عليهِ اقلُّ تأثر مما سمعهُ بل ظلَّ معجباً بنفسهِ مباهياً بانهُ صاحب المدينة الوحيدة الباقية في حوزة الافرنج

ثم اراد رئيس الاساقفة ان يوطِّد بينهم اساس المصالحة فاسترعى الاسماع الى ما يأتي : —

" ارى امامي اميرين يدَّعيان حقَّ الاستواء على عرش القدس وكلٌّ منهما معضودٌ بقوَّة تشدُّ ازرهُ وتذود عن حقوقهِ وغير خافٍ عليَّ ان تاج القدس كان لسيبل وبعد موتها اصبح ميراثاً لاختها ايزابلا زوجة كونراد فيكون مركيز صور الوارث الشرعي لعرش بودوين. على ان لوسيان الذي تُوِّج ملكاً على القدس باجماع الامة لا يزال حيَّاً . فليس من العدل ان يغتصب هذا المنصب السامي بغير الموت . وليس بينكم من يهون عليهِ ان يضام لوسيان ويبخس حقهُ . ولكي لا يحرم كونراد ايضاً التمتع بالحق الذي اوجبهُ لهُ اقترانهُ بايزابلا أحكم هكذا : ليبقَ لوسيان معدوداً ملك القدس ما دام حيَّاً وبعد وفاتهِ سواءٌ تزوَّج مرَّة ثانية ورزق نسلاً او لا ينتقل حق الملك الى كونراد ونسلهِ من بعدهِ "

فاستصوبوا كلهم هذا الحكم واجمعوا على قبولهِ ثم نهضوا الى مائدة عليها الكتاب المقدس فوضعوا ايديهم عليهِ وتحالفوا على وجوب تنفيذ ماحكم بهِ رئيس اساقفة صور . وبعد ماحلفوا هذه اليمين صاح رتشرد : —

" غداً نهاجم عكاء ! "

فاجابهُ فيليب اغسطس : — " نعم غداً نهاجمها ! "

وقبلما انفرط عقد المجلس التمس مونمورانسي الاصغاء وقال : —

" لدينا امرٌ آخر يستدعي النظر والاهتمام وهو وجود ملكة انكلترا في ربقة الاسر واقدام الملك العادل على طلب فديتها على وجهٍ مهينٍ لنا جميعاً وهو رفع الحصار عن عكاء ! وفوق هذا فمن منَّا لايحتدم غيظاً ويحرق اسنانهُ حنقاً حين يعلم ان الملك العادل شغف بحب الاميرة متيلدة وهو على الدوام يطارحها احاديث الغرام والهيام . او اذا كان الى الآن يرى لديهِ اسباباً تدعوهُ الى احترام سليلة الملوك فما ادرانا انهُ لا يتغلب يوماً ما على هذه الاسباب ؟ اراكم تنتفضون من هول هذا الفكر واراك (مخاطباً رتشرد) تشاركني في طلب

الشخوص على جناح السرعة الى دمياط . ولكنني لا اطلب ان يذهب الجيش كلهُ بل ان يرافقني الامراء الذين نذروا نفوسهم وقفاً على صون حرمة الجمال . "

فصاح فيليب اغسطس

" ليس فينا من يتخلف عن الذهاب . لان الشرف والجمال موضوع حماية الجميع — حتى الملوك "

وقال لوسيان : —

" وانا سأحتفل باسترداد عرش القدس بفاتحة انقاذ هاتين الاميرتين "

وبعد المداولة في هذا الشان اتفقوا على انهم بعد افتتاح عكاء يعدُّون تجريدة ويرسلونها الى دمياط بقيادة رتشرد ومونمورانسي

ثم رتبوا الهجوم في الغد بان يكون رتشرد في مقدمة الانكليز وعلى جناحيهِ الهوسبيتاليون والفليون مقابل البرج الغربي وفيليب اغسطس مقابل برج الناصرة من الجنوب . وعهد الى لوسيان بالعناية بآلات الهدم وابراج الرمي المعدة من وقتٍ طويل لهذه الغاية لكي يحمل بها على الجهات الضعيفة من الاسوار ووعد كرنراد وعد المضطر المرغوم ان يساعدهُ

وعند اول الفجر خرج مونمورانسي بكتيبة من الجيش لحفر امراب تحت الاسوار الخارجية واقام لوسيان برجاً مشحوناً من معدات الرمي مقابل الثغرات التي لم يحكم ترميمها . وزحف الصوريون بالمجانيق والقذائف وسائر آلات الثغر والهدم

وهذه التاهبات كلها جرت وسكان عكاء لا يزالون غارقين في النوم مغترين بما كان مستولياً على الافرنج من الشقاق الذي حصرهم في معسكرهم الى الآن ولم يدروا ان رسول الموت قادم اليهم ومخيم بظلالهِ عليهم

وما تبلج الصباح الاَّ ايقظهم صليل الاسلحة ورنين الابواق ووقع الحوافر فخفوا الى الاسوار ورأوا من اعاليها الألوف العاملين على النقب والتسريب فحاولوا صدهم بان رموهم بالرشف ومذوَّب الرصاص فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً لان المحاصرين امطروهم بصيب السهام والمزاريق والقذائف والمجانيق واضطروهم الى التكوص فاخذوا يدافعون بقيادة الباسل الامير سيف الدين عليّ بن احمد المشطوب الذي اعملهُ صلاح الدين على عكاء وعهد اليهِ بحمايتها . وكانت اكثر ابراجهم قد فرغت من معدات الدفاع وثغرت الاسوار من جهات مختلفة ومع ذلك كلهِ ظلوا على ما يعهد فيهم من رباطة الجأش ولم يبدُ عليهم شيء من خوار العزم والميل الى التسليم

وحينئذٍ حمل رتشرد برجالهِ على البرج الغربي فزلزلهُ ودكهُ والقى بنفسهِ في الثغرة وامتلك الاسوار الخارجية بعد قتال عنيف اكره فيهِ العرب على التقهقر الى الحصون الداخلية واستولى فيليب اغسطس على برج الناصرة ولقي رتشرد وعقدا النية على مواصلة الهجوم حتى يمتلكا السور الداخلي

واذ ذاك بلغهما ان مونمورانسي اخذ الميناء واستولى على حصونهِ بواسطة جسور مدّها من الاسوار الخارجية الى الداخلية . فلم يشرعا في ثغر السور الداخلي حتى وجدا مونمورانسي بينهما في المقدّمة وقد القى بيديهِ سلّماً على السور واقتحم الغارة وكان لوسيان يتبعهُ من ورائهِ

وكان مونمورانسي اول من وضع يده على القلعة فصافحها بكفّ الظاهر الظافر غير مبالٍ بالاخطار التي تهدّدتهُ . ثم اختطف الراية من احد اصحابهِ ورفعها على السور اعلاناً للنصر والظفر . واذ ذاك انطبق عليهِ العرب انطباق القضاء المبرم واخذ يجول بينهم ويصول ويقوم دون تمكنهم منهُ ويحول . وفيما هو يفلّ عن يمينهِ الصفوف ويغمد حسامهُ في صدور الالوف ويورد من اقتحمهُ من تلك الجهة موارد الحتوف فاجأهُ واحدٌ عن يسارهِ بضربة بلطةٍ فلقت خوذتهُ شطرين وغادرت رأسهُ مكشوفاً للطعن والضرب . الاّ ان القضاء قدّر لهُ قدوم معين ونصير وفتح لهُ منفرجاً من ذلك الضيق العسير وحقق لهُ القول "وبينا العسر اذ دارت مياسير" وذلك ان لوسيان تمكن اخيراً من اغاثتهِ مصحوباً برجالهِ فانتشلوهُ من وهدة المخاطر التي كان ساقطاً فيها

وكان احمد المشطوب قد احتدم غيظاً من نجاة فريستهِ من يدهِ فحوّل تيار غضبهِ نحو لوسيان وصوّب رمحهُ اليهِ وطعنهُ طعنة لم تترك لملك القدس مجالاً للفرار منها فاصابت صدرهُ وغادرتهُ مجندلاً بدمائهِ

ثم وقف المشطوب يفكر في ما افضت اليهِ هذه المعركة . فان الحصون اخذت جميعها واصبح جيش الاعداء يجوس خلال المدينة . واذ ذاك وثب رتشرد لاغاثة لوسيان فانقذهُ وثار على المشطوب فظفر بهِ وامر فشد وثاقهُ

ولما راى اهل عكاء قائدهم اسيراً سلموا وقبلوا شروط فيليب اغسطس كلها

الفصل الحادي عشر

احمد المشطوب وصلاح الدين

وكان السلطان صلاح الدين قد انطلق بشطر من جيشهِ الى الموصل ليصد عنها هجمات عماد الدين صاحبها الاول . وبعد ما واقعهُ بضعة ايام وهزمهُ شر هزيمة اقفل يتهادى براح الغلبة على ضفاف العاصي . ولما بلغ سفح جبل الجليل لقيهُ احمد المشطوب مرسلاً اليهِ في طلب فدية اسرى عكاء مكشوف الرأس حليف الكآبة واليأس ولما مثل امامهُ انطرح عند قدميهِ صارخاً : —

" مولاي خذ حياتي ! فان الاعداء اخذوني على غرة وافتتحوا المدينة التي ائتمنتني عليها واكرهوني ان آتي اليك لاجل توقيع معاهدة الصلح "

فانقضَّ هذا النبأ على صلاح الدين انقضاض الصاعقة ووقف واجماً منعقد اللسان وقد استحال عليهِ ان يصدق ان بلاغة رجل واحد تمكنت من التغلب على الشقاق الذي كان ضارباً اطنابهُ في معسكر المسيحيين فوحدت كلمتهم وألفت قلوبهم ومهدت لهم في يوم واحد سبيلاً الى فتح اعظم معاقل فلسطين بعد القدس . فسأل المشطوب : —

" ومن عسى ان يكون ذلك الرجل الذي استطاع تنفيذ سلطتهِ على افكار ملوك كثيرين ذهبت بهم المصالح الذاتية كل مذهب . واية يد تمكنت من ثغر الاسوار المثلثة التي حصنت عكاء بها ؟ "

" اما ذلك الرجل فهو اسقف صور المشهور . واما فتح عكاء فقد اشترك فيهِ رتشرد وفيليب اغسطس ولكنهما لم يكونا ليجدا الى الظفر من سبيل لولا سيف مونمورانسي الماضي الصقيل "

" اما ان يكون ما اسمعهُ منك في حلم او تكون كاذباً لان اسقف صور ومونمورانسي هما الآن اسيران في دمياط "

" نعم كانا هناك ايها السلطان الاعظم لكن الملك العادل اطلق سراحهما وارسلهما الى معسكر الافرنج فبلغاهُ في السادس عشر من رجب . وفي السابع عشر منهُ عقد اسقف صور مجلس المصالحة بينهم وفي اليوم الثامن عشر شنوا علينا غارة شعواء ورفعوا اعلام انتصارهم على اسوار عكاء

" اتعلم ايها العبد الزنيم الى اي غرضٍ وخيم ترمي بكلامك الاثيم ؟ ألا تدري انك تحاول بهذا حملي على اساءة الظن في اخلاص اخي ؟ "

" ان الملك العادل يا مولاي لايحاكيهِ احدٌ في امانتهِ للسلطان الاعظم . ولكن ماقلتهُ لجلالتك يصدقهُ ويشهد بصحتهِ الرجال الذين اتوا بالاسيرين من دمياط . ولولا تهيبي غيظ السلطان العادل وتنصت الذين حولنا لاطلعت جلالتك على اكثر من هذا "

" تعال اذًا كلمني على انفراد ولكن توخَ الصدق جهدك واحذر الكذب اذا كانت حياتك ثمينة عندك "

ثم امر السلطان فضرب سرادقهُ وخلا بالمشطوب الذي جثا عند قدميهِ وقال : —

" انَّ اخاك يا مولاي دان على عزَّتهِ لهوًى خانهُ عليهِ الصبر وأُخذ بقوة هي فوق ما يفعلهُ السحر. فان فتاةً ذات جمال فتَّان تيمت قلبهُ وسبت لبهُ فتغير منذ علق بها من حال الى حال وربى كبد الامور المعهودة اليهِ بسهام الاهمال وجعل مصالح العباد والبلاد ضحيَّة لتلك الفتاة البارعة الحسن والجمال "

" ما اسم هذه الفتاة ؟ "

" هي الاميرة متيلدة شقيقة الملك رتشرد هذه التي لاجلها هجر الملك العادل قصرهُ ونثر عقد نسائهِ واطلق سراح اسقف صور ومونمورانسي ولو أمرتهُ لجاء بها ايضًا الى معسكر الافرنج لانهُ اقسم ان يطيعها في كل ما تأمرهُ بهِ "

" كفى بهذا دليلاً على كذبك لأن الملك العادل لم يقسم قط قسمًا كهذا والاَّ كانت قد أمرتهُ ان ينضمَّ الى الافرنج ويسلمهم كل ما أُوتمن عليهِ . فهل فعل شيئًا من هذا ؟ "

" لم يفعل بعد . ولكن اذا هاجها لاعج الوجد وتسامحت بشيء من كبريائها واقترحت عليهِ ان يضحي في سبيل حبها وطنه و . . . "

" لا يتردد الملك العادل طرفة عين في إيثار الواجب على دواعي حبهِ ! ويستحيل عليهِ ان يغدر بي كما يستحيل عليَّ ان ارتاب في شرفهِ . فقد يمكن ان يكون عاشقًا وقد يتسنَّى لهذه الاميرة ان تحملهُ على تضحية حياتهِ في سبيلها . اما تضحية شرفهِ فذلك رابع المستحيلات . ولو لم تكن قد خاطرت بنفسك لاجلي في معارك كثيرة لأمرت بقتلك جزاء اجترائك على اتهام اخي بمثل هذه التهم الباطلة . ولكن لا تخف . فلسوف اطلب لك العفو ممن اسأتَ اليهِ . انطلق عاجلاً الى دمياط وامثل امام الملك العادل واعترف بجريمتك والتمس عفوهُ وسلمهُ الاوامر التي القيها اليك وانظر بعينيك امانتهُ في اجرائها واتمامها "

فانصرف المشطوب امتثالاً لامر السلطان . وفي المساء استدعاهُ صلاح الدين وقال لهُ بعدما اعطاهُ الاوامر مختومة بخاتمهِ السلطاني : —

" هذه تطلع الملك العادل على رغائبي . ينبغي ان يرسل ملكة انكتترة الى القاهرة حيث يحتفظ بها بكل ضبط فاضطرَّ رتشرد الى قبول ما اقترحهُ عليهِ قبل اطلاقها وهو تسليم عكاء . ومعلوم ان الملوك الذين شاركوهُ في الفتح لهم مثلهُ حق تملكها وهم اقلُّ منهُ اهتماماً بالمساهلة فيرفضون طلبي ورفضهم هذا يحدث بينهم منازعات جديدة — منازعات شديدة تقصّر بلاغة اسقف صور عن حسمها وفصلها وتمكنني من سحقهم وتمزيق شملهم . وفي اثناء ذلك يجمع الملك العادل جيوشهُ ويضمُّها الى الجنود التي في دمياط والقاهرة ويوافيني بها الى حيث انتظرهُ . وقبل انطلاقهِ يُرسل الاميرة الانكليزية الى اخيها . يُعدُّ لها سفينةً في دمياط . واذا عفا عنك فانت تصحبها الى معسكر الافرنج . فاذهب الآن وانظر هل يجعل الملك العادل فتاةً تحول بينهُ وبين اخيهِ ؟ "

وكانت متيلدة قد عملت بعد انطلاق اسقف صور بموجب وعدها لهُ . فاغلقت على نفسها في مقصورتها واصرَّت بعزيمة شديدة على مقاومة اغراءات الملكة وتسويلات نفسها حتى ملَّت الملكة من خيبة مساعيها في استمالة متيلدة الى الملك العادل وساءها جدًّا تمادي امرها وانفصالها عن زوجها حتى أُصيبت بمرضٍ انحلها وخيف منهُ على حياتها — واسرعت متيلدة الى عيادتها ولبثت عندها لا تفارقها . وفيما كانت ذات ليلة جالسة بجانب فراشها قالت لها برنغاريا : —

" لا يسعني ان اشكر لكِ معروفكِ في سهرك عليَّ وعنايتكِ بي . ومع ذلك كان في امكانك ان تعيديني الى الحياة بكلمةٍ واحدة للملك العادل ان يردني الى رتشرد . عالليني بأمل اللقاء برتشرد فاتعافى وانشط من عقال الضعف والسقم "

" سأُجيب طلبكِ عند سنوح اول فرصة "

وفي ظهيرة اليوم التالي شعرت الملكة بنشاطٍ نشأ عن تجدُّد آمالها وراحة افكارها فغادرت فراشها وحملت الى متكإٍ مقابل الشبّاك حيث استنشقت النسيم العليل وسرحت نظرها في مهل الدلتا الريّان الجميل وجلست متيلدة بجانبها تطربها بانشاد بعض الترانيم بلحن رخيم وصوت يشفي السقيم . واذا بعبد دخل يقول ان الملك العادل في القصر يسأل عن صحة الملكة فرمقت برنغاريا متيلدة بنظرة التماسٍ اعربت عمَّا لا يستطيعهُ ابلغ الكلام فنهضت متيلدة على الفور لتنجز ما وعدت

فلما رآها الملك العادل قادمة اليهِ اوغل في الدهشة ووقف لا يبدي حراكاً كمن رأى في حلمهِ رؤيا جميلة وخاف ان يتحرك فيطلع فجر التعقل ويلاشي ليل الوهم . اما متيلدة فانحنت امامهُ باحتشام وقالت : —

" قد جئت يا مولاي باسم ملكةٍ منكودة الحظّ التمس رحمتك . انها لا تزال مريضة جدًّا . والحزن والغمّ هما سبب مرضها . وحياتها الثمينة متوقفة على زوال هذا السبب فوعدك اياها بارجاعها الى زوجها ينقذها من مخالب الموت "

" لا اعلم ماذا تكون نتيجة هذا الامر . لكن مشيئتكِ منشأُ حرية الملكة . فهي حرة من الآن . هل تريدين ارجاعها الى زوجها ؟ فليكن كذلك "

" لله كرم اخلاقك وطيب اعراقك ! فلقد طوّقتني منة اذكرها ما حييت بالحمد والشكر وجعلتَ اسرتي مدينة لك ابد الدهر ! "

ثم خرجت من لدنهُ الى حيث كانت الملكة وقالت لها :

" منحكِ الملك العادل حريتكِ ولسوف تسافرين عندما تمكنكِ صحتكِ من ذلك — "

فقالت لها الملكة : —

" بايّ لسانٍ استطيع ان أُوفيكِ حقكِ من الشكر ؟ ومتى ارى الملك العادل فأُوفيهُ حقهُ من الثناء على هذه اليد البيضاء ؟ "

واذ كان الليل قريباً حملت الملكة الى مضجعها حيث حفتها فيهِ احلام مفرحة لذيذة —

اما متيلدة فعبثاً حاولت الرقاد لأن هجير النهار وحرّ الليل ارّقاها وسلبا راحتها فالتمست لنفسها ترويحاً في حجرةٍ ملاصقة لمخدع الملكة تشرق من نوافذها على حديقة القصر . وجلست بجانب النافذة وفتحت كتاب الصلوات وحاولت القراءة لكنّ افكارها حالت دون ذلك واخذت عيناها تنطبقان على رغمها ورأسها يميل متدلياً على يدها . وبينما كانت نسمات الليل تعبث بصفحات كتابها كانت افكارها تحوم حول كل ما عرض لها في اجتماعها بالملك العادل حتى قضت ليلها بين قراءة متقطعة قصيرة وذهول متوالٍ طويل . وعند الفجر انطرحت على سريرها معييةً من تلك المعارك الذهنية التي شهدتها لكنها لم تنم الاّ قليلاً جدًّا فان احدى الجواري جاءت تقول لها ان الملكة تريد ان تراها . فخفت مسرعة اليها وبعد ما جلست بجانبها سألتها بعد سكوتٍ طويل : —

" عندما سألتِ الاميرامس ان يسمح باطلاقي هل سألتهِ من جهتكِ انتِ ؟ "

" وما الداعي الى ذلك ؟ هل يخطر ببالهِ ان يفرّقنا ؟ هل يرتكب الاميرا ثم حبسي هنا ؟ "

" انكِ عندما تقيسين اعمال الناسِ باعمالكِ ولا ترينها جارية على مبادىء العدل وقواعد الفضيلة لا تخطر ببالكِ المحبة مع انها محدقة بكِ من كل جهةٍ وقد تمثلت لكِ بصورها المختلفة في هوى اغنس العنيف الاثيم وغرام الملك العادل الشديد وتعلقي انا برتشرد هذه المظاهر كلها عرضت لكِ وانتِ عنها غافلة ذاهلة "

" اما وعدت اني لا اعرف محبة لرجل مدى حياتي ؟ ايصحُّ ان انبذ النذور التي جئت لانذرها ؟ "

فقالت الملكة : —

" على كلٍّ ارى ان الملك العادل لن يسمح بانطلاقكِ "

" اذًا انا شقيةٌ الى الغاية . وحالتي مخيفة جدًّا ! "

" لا اظنُّ ان قلبهُ المغرم بك يسمح لهُ بمفارقتك "

" اذًا ساراهُ ثانية والتمس ذلك منهُ "

" فوّضي الامر اليَّ لعلي اتمكن من اقناع الامير بالعدول عن افكارهِ من جهتك لعدم امكان التغلب على ما يحول بينكِ وبينهُ . وان اخفق مسعاي عندهُ رفضت الحرية التي منحها ومتُّ هنا "

" لا يجوز ان تذهبي ضحيةً ما قضى الله بهِ عليَّ "

" بل الواجب يفرض عليَّ البقاء معكِ في دمياط "

" بل يأمركِ بالانطلاق الى زوجكِ متى امكنكِ ذلك . اما انا فلا تخافي عليَّ . الله ملجإي وقوتي . اذهبي يا اختاهُ اذهبي "

الفصل الثاني عشر

حيرة الملك العادل

وفي ذلك اليوم أُخبرت الملكة بقدوم الملك العادل فاستقبلتهُ في غرفتها ومتيلدة جالسة بجانبها حسب العادة . وبعد ما هنأها بمعافاتها وشكرت هي لهُ جميلهُ ومعروفهُ لسماحهِ لها بالانطلاق الى زوجها قالت لهُ : —

" وهذه الحرية التي انعمت بها ليست لي فقط بل لشقيقة زوجي . . . . "

فاعترضها بقولهِ : —

" ان شقيقة زوجكِ لم تسألني من جهة نفسها "

" لم ترَ من ضرورة لذلك . او لم تعدنا باننا لا نفترق ؟ "

فالتفت الى متيلدة وسالها مجتهداً في اخفاء انفعالهِ : —

" هل ترومين الذهاب ؟ هل تريدين ان تبرحي دمياط ؟ "

" نعم يا مولاي . ان عينيَّ تحنّان شوقاً الى رؤية ارض ميلادي "

فامتقع الامير وذعر وانقطع عن الكلام وغاص في لجج التأملات . ثم افاق من ذهولهِ واخبر الملكة بانهُ عندما تتأهب للسفر ينظر في امر شقيقتها . ثم قال لمتيلدة : —

" وفي هذه الاثناء اذا اصغيتِ اليَّ اطلعتك على الاسباب التي تحول دون الاسراع في حكمي من جهة سفركِ الى ذلك الحين فان اصررتِ بعد ذلك على عزمكِ وأنتِ عالمة انكِ تذهبين بحياتي وسعادتي فحينئذٍ لا امنعك بل يكون طلبك علامة انطلاقكِ وتفجيعة حياتي "

وعلى رغم بسالتهِ المشهورة وعزة نفسهِ المعهودة سحّت اجفانهُ بعبرات سالت على خديهِ وقبلما تمكن من مسحها رأتها متيلدة وسالت عيناها بمثلها واغزر منها . فلما ابصر دموعها ازداد اضطراباً على اضطراب ولم يعد في طاقتهِ الصبر على هذا المشهد فخرج على الاثر . ولما خلت الملكة بمتيلدة قالت لها : —

" لا تيأسي فان موانع انطلاقكِ ستكون اقل مما ظننتِ "

فسألتها متيلدة : —

" وهل تظنين ان سفري يفضي الى موتهِ ؟ "

" اذا اصررتِ على مقابلتهِ بالصدِ والاعراض فقد يقوده اليأس الى مثل هذه النتيجة "

فاوجست متيلدة خوف حصول هذه النتيجة ووعدت الملكة بالكف عن مجافاة الامير ومهدت لنفسها اعذاراً ومسوغات لمخالفة نصائح اسقف صور امها تغير الاحوال والعمل بمقتضى الضرورات . وعندما كانت تلجأ الى الصلوات الانفرادية والتأملات الروحية كانت صورة الملك العادل تخترق حجاب انفرادها وتمثل امامها على اسلوب لا يحول ولا يزول

ولم تلبث برنغاريا ان لاحظت تأثير هذه الاضطرابات في وجه متيلدة . لكن شوقها الشديد الى الاجتماع برتشرد حال دون تمكنها من الوقوف على سرّ هذا التغيير العابث باخت زوجها فنسبتهُ الى خوفها من البقاء وحدها في دمياط .

وظل فؤاد الاميرة متيلدة عرضة نزاع بين الواجب وداعي المحبة يوماً بعد يومٍ حتى خارت قواها واصفرت وجنتاها

ولما اكملت الملكة استعدادها للسفر رأت من الضروري ان تكلم الملك العادل عن متيلدة لعلها تتمكن من اخذها معها . ففي احد الامساء بينما كانت جالسة مع متيلدة دخل الملك العادل على الفور وجلس قريباً من متيلدة . فاستكدت الملكة ذهنها لعلها تظفر بمقدمة لكلامها فلم يفتح عليها بشيء وفيما هي تضرب اخماساً لاسداس كانت متيلدة تتململ من هذا السكوت المخيم على مجلسهم ولم يسعها ان تنظر الى عيني الملك العادل . واذ لم يعد في امكانها الصبر على هذه الحالة نهضت تريد الخروج . واذ ذاك نشطت الملكة من عقال حيرتها وانطلق لسانها بالكلام فقالت : —

"مولاي قد حان وقت تعيين سفري فساموت ان لم اذهب لكنني لا اقدر ان اذهب بلا متيلدة"

فاجابها : —

"اذا كانت هذه مشيئة متيلدة فلن تراني بعد اليوم لكنني اطلب ان اكلمها على انفراد فاذا الحت بعد ذلك على الذهاب معك لم اعارضها وتعيين يوم السفر متوقف عليكما"

فنهضت الملكة وقالت لمتيلدة : —

"سمعت ما قاله الامير . فانطلاقك متوقف عليكِ"

وبعد خروج برنغار يا جلس الملك العادل مكانها وساد عليهما سكوت طويل خشي ان يخترق حجابهُ وخافت متيلدة الاقدام على ذلك فدنا منها ولمس يدها بيدهِ فانقدت جبهتها بحمرة نارية ولم تعد تستطيع التنفس واخذ المنديل المسدول على صدرها يعلو ويهبط بحركة قلبها المضطرب فلما رآها في هذه الحالة جلس امامها معرباً عن عزة نفس وطهارة حب وصدق اخلاص يندر وجودها في قلب غيره . ولكنها ابت على رغم مواعيده وتوسلاتهِ ان تصغي اليهِ وحاولت الخروج فبسط ذراعيهِ وطلب ان تصغي اليهِ فقالت لهُ

"لا اصغي الى شيء سوى الامر بانطلاقي"

"وهل هذا شرط عفوك ؟"

"اذا منحتني حريتي وعدتك باني لا اذكر سوى حسناتك"

فلما رآها عازمة على الانصراف ولم يستطع احتمال فراقها ناداها قائلا : —

"قفي قليلاً فسيكون لكِ ما تريدين"

فصاحت وقد انساها فرحها ثقل الالم الذي اناخت بهِ على فؤاد محبها : —

"يا لشوقي الى ارض ميلادي ! الى اترابي ! الى ديري"

فانقضّ عليها الامير مغتاظاً وامسكها بيدها على رغم مقاومتها وقال لها : —

" يا لكِ من فتاةٍ عادمة الشكر قاسية الفؤاد ! تسرّين بما فيهِ عذابي غير آسفةٍ على ما بي ولا سامحةٍ بدمعة حزناً على مصابي ! فلستِ بذاهبة قبل ان تسمعي ما اقولهُ لكِ "

وبعدما اضطرها الى الجلوس اخذ كلتا يديها في يدهِ الواحدة واسند يدهُ الاخرى على ظهر كرسيها وتفرّس في وجهها وقال : —

" لا استطيع فراقكِ لا اقدر ان أُبعدك عن نظري — فان رُمتِ الرجوع الى اوربا ذهبت معكِ . وان اردت البقاء هنا كملكة فذلك لكِ "

" ايها الامير الكريم . اما لك جلد ان تحمّل كرجل شجاعٍ ما قضى بهِ القدر من الموانع التي بيني وبينك ؟ "

" استعدي من الآن للانطلاق فلستُ بمعارضٍ لك على الاطلاق "

وبعد خروجها دخل عبدٌ ووقف يتوقع الاستئذان — فلما طال عليهِ الوقوف تكلم فتفرّس فيهِ الملك العادل صامتاً ثم اعرض عنهُ ودخل الى مخدعهِ

وكانت انباء سقوط عكاء قد انتشرت في دمياط ولم يبقَ من يجهلها سوى الملك العادل الذي اغلق على نفسهِ ولم يجسر احدٌ ان يدنو منهُ غير مدعوٍّ

وكان احمد المشطوب قد ارسل العبد ليبلغهُ خبر قدومهِ فلما اعياهُ الانتظار الحّ بوجوب دخولهِ اليهِ حالاً واظهر اوامر السلطان مختومة بخاتمهِ الملكي . فانفتحت لهُ الابواب وانزاح من طريقهِ الحرّاس ولم يجسروا على معارضتهِ . فلما مثل بين يديهِ سلّمهُ كتاب صلاح الدين واخبرهُ بسقوط عكاء . فدهش الملك العادل لسماع هذا الخبر ولم يستطع تصديقهُ . فقال لهُ المشطوب : —

" اتعجب جدّاً من دهشتك مع انك انت ايها الامير علة مكابدتنا لهذه الخسارة العظيمة "

" ماذا تقول ايها العبد المهان : "

" اقول ان فصاحة اسقف صور وبسالة مونمورانسي مكنتنا الافرنج من فتح عكاء . فعليك اذاً تبعة انكسارنا "

" لا انكر عليك اني ارتكبتُ خطأً فادحاً لكنني سأُكفر عنهُ باسترجاع عكاء "

" ولكن كيف تعيد ايها الملك نفوس اولئك الامناء الذين قضوا في سبيل الدفاع عن عكاء ؟ "

" ساخذ بثار اولئك الشهداء الذين كنتُ سبباً لسفك دمائهم الزكية "

" يعزُّ عليَّ ان ارى ملكاً مثلك يدين لهوى نفسهِ الامارة بالسوء ويذهب وطنهُ ضحية فتاةٍ صخّابة . . . "

فزجرهُ الملك العادل قائلاً : —

" اخرس ايها العبد الزنيم . واحذر من النطق بكلمة اخرى تمتهن بها اميرة انكلترة ! اغرب عن نظري ! "

فاطاع المشطوب وصية سيدهِ الاخيرة لا الاولى وخرج يجاهر بين الشعب في ذمّ الملك العادل والاميرة الانكليزيَّة التي كانت سبب هذه البليَّة

وبعد ما اطلع الملك العادل على كتاب اخيهِ تنازعتهُ الافكار المتناقضة والاميال المتخالفة فحار في امرهِ لا يدري ماذا يفعل ايطيع داعي هواهُ ويعصي اخاهُ أم يطيع امر السلطان ويخالف داعي اميال قلبهِ وعواطف نفسهِ — وبعد جهاد عنيف قضاهُ في التأمل والافتكار عزم على اجراء ما يأتي : —

في الصباح يصدر امرهُ باعداد سفينةٍ تحمل متيلدة الى عكاء . وفي فجر اليوم التالي ينبغي ان تسير الى طيتها — وهو نفسهُ يذهب بالملكة الى القاهرة . ويسرع الكرة الى صلاح الدين ويطلب منهُ تصديق وعدهِ لها بالاطلاق

وفي الصباح ذهب الى الميناء ليعد السفينة المزمعة ان تنقل الاميرة متيلده فاصدر الاوامر المشددة بخصوص استكمالها معدات راحتها وسلامتها . وفي طريقهِ لقي المشطوب فقال لهُ بلسان الابهة والسيادة : —

" غداً ايها العبد ترافقك الاميرة فاحتفظ بها بما لا مزيد عليهِ من العناية اذا كانت حياتك الاثيمة كريمة في عينيك "

ثم دفع اليهِ كتاباً الى الملكة يخبرها فيهِ بانهُ اضطر بناء على اوامر السلطان ان يؤجل اتمام وعدهِ لها وبعد يومين يصحبها الى القاهرة واعدّا اياها بانهُ لا يلبث بعد ذلك ان يبعث اليها بكوكبة من الفرسان تذهب بها الى معسكر الافرنج

ويرح دمياط يجمع العساكر ويدربهم على فنون الحرب استعداداً للانطلاق بهم الى صلاح الدين

الفصل الثالث عشر

سفر الملكة

وتذكرت برنغاريا وعدها لاغنس اميرة القدس فخفت اليها لتخبرها بانها اصبحت قادرة على انجاز وعدها بارجاعها الى شعبها

وكانت اغنس قد صممت على عدم مفارقة موضوع حبها فبثت عليهِ العيون والارصاد استطلاعاً لحركاتهِ وسكناتهِ . ولما علمت بمجيء المشطوب قابلتهُ سرًّا ووقفت منهُ على الاوامر القادم بها من لدن صلاح الدين . واطلعتهُ على هيام الملك العادل بالاميرة الانكليزيَّة وتضحيتهِ مصالح الامة والوطن في سبيل شغفهِ بها . فلما جاءت اليها الملكة ودعتها الى الذهاب معها قالت لها : —

" الم يبلغك نقض الامر المؤذن بانطلاقكِ ؟ "

" ماذا تقولين ؟ فقد وعد الملك العادل امس بانطلاقنا "

" وبعيد وعدهِ جاء احمد المشطوب من عند السلطان يأمر بارجاع الاميرة متيلدة حالاً الى معسكر الافرنج وحبس جلالتكِ في القاهرة حتى يرضى رتشرد برد عكاء "

نخان الملكة الصبر والجلد عند وقوفها على هذا القضاء المخيف وسقطت مغشيًّا عليها . ولمَّا افاقت رأت متيلدة جاثية بجانبها فقالت لها : —

" رحماكِ يا متيلدة خذيني من هنا — فلا ارى هذه المرأة القاسية التي سرَّها مصابي واضحكها انتحابي "

ثم حملت الملكة الى مقصورتها حيث انطرحت على سريرها باكية بكاء مرًّا وقد اطلعت متيلدة على ما سمعتهُ من اغنس واهابت بدوق لنكستر وامرتهُ ان يذهب في الحال الى الملك العادل ويسألهُ عن صحة الخبر . فقال لها الدوق : —

" لقد برح الملك دمياط وعهد الى المشطوب بتنفيذ اوامر السلطان في غيابهِ . وغدًا تقلع السفينة بسموّ الاميرة الى عكاء "

" فصاحت الملكة اوّاه يا اخاهُ . ان تركني قضي عليَّ في الحال ! اسرعي اليهِ التمسي رحمتهُ " فنهضت متيلدة وقالت لدوق لنكستر : —

" سر بي ايها الدوق الى قصر الملك "

وعلى الفور ذهبت الى القصر ودخلت تخترق صفوف العساكر غير مبالية بسوى السعي في اطلاق الملكة . ولما طلبت الدخول الى مقام الملك اوقفها الحرّاس واخبروها انهُ برح دمياط منذ بضع ساعات

ثم خرج اليها المشطوب واخبرها ان رجاءها باطل وانها ينبغي ان تذهب غدًا الى اخيها والملكة تؤخذ الى القاهرة حيث تبقى الى حين ردّ عكاء الى المسلمين . ومما قالهُ لها : —

" ماذا تسألين الستِ تعلمين ان اوامر السلطان مقدسة عند رعاياهُ ؟ فلو طلبَ حياتك لاغمدتُ علي الفور هذا الخنجر في صدركِ . ولو طلب رأسي لحملتهُ اليهِ بيدي . فلا تروي ما لا ينال ولا تعللي نفسكِ بالمحال . اذهبي استعدي للانطلاق معي غدًا صباحًا وخذي معكِ لزوجة رتشرد هذا الكتاب من الملك العادل "

فرجعت متيلدة مسرعة بالكتاب وقد احيا فيها شيئًا من الرجاء قائلة في نفسها لعلّ الملك رثى اخيرًا لحالة الملكة . ولما دخلت دفعتهُ اليها ففضّت ختامهُ ولم ترَ فيهِ لسوء حظها سوى القضاء عليها بالاسر في عاصمة مصر . فاستولى عليها اليأس واستحوذ واخذ منها الغمّ كلّ مأخذ وقالت لمتيلدة التي كانت قد اوغلت في النوح والبكاء : —

" خلي عنكِ البكاء يا متيلدة واتركيهِ لزوجةٍ قضي عليها ان تموت متجرّعةً غصص البؤس والشقاء . " ثم رفعت عينيها الى متيلدة فرأت في وجهها بارقة املٍ لاحت كنورٍ اضاء في الدجى . فصرفت اماءها بحجة التماسها الراحة وقالت لمتيلدة بلهفةٍ : —

" ماذا بدالكِ ؟ قولي . رحماك قولي ! "

" بدا لي ان تنطلقي غدًا عوضًا عني لابسة ثيابي وسادلةً على وجهكِ برقعي الطويل . وانا ابقى هنا مكانكِ واتحمل تبعة ذلك ايًّا كانت . لا محلّ للرفض والوقت اقصرُ من ان نقضيهُ بالاخذ والردّ . لا يسعنا ان نذهب كلتانا . فلا بدّ من ذهاب واحدة منّا انتِ او انا . ولكن يجب ان تذهبي انتِ الى زوجكِ وشعبكِ الذين بكِ تتعلق آمالهم من جهة توقع خلفٍ لرتشرد "

" ليكن كما تريدين . ساذهب وأُخبر العالم بإنكارك لنفسكِ "

وقبيل الفجر نهضت متيلدة وصرفت عنها جواريها بحجة اشتغالها بوداع الملكة . ثم خلعت ثيابها والبستها لبرنغاريا ولبست هي ثياب الملكة . وبعد ما فرغنا من تنكرها دخل دوق لنكستر ونساء الاميرة وبعض الحرّاس . فقال الدوق يخاطب الملكة القائمة بزي متيلدة : —

" ننتظر امر سموك في نشر الشُرُع للإقلاع "

فاومأت اليهِ برغبتها في المسير واطاع الدوق اشارتها وسار بها الى الميناء . فدخلت السفينة من غير ان تكشف برقعها . ولما جلست في الحجرة المعدَّة لها رجع حرّاس الملك الى المدينة ورفع البحّارة المرساة ونشروا الشُرُع واخذوا يشقُّون العباب بمجاذيفهم والسفينة تمخر بهم جارية وفق المشتهى

ولزمت الملكة حجرتها بحجة الدوار ولم تسمح بالدخول اليها لسوى دوق لنكستر وبعض حاشيتها الذين اطلعوا على سرّ تنكرها ونجاتها . ولم يهتم المشطوب بامر الدخول اليها . ولهذا لم يعلم بشيء من امرها حتى بلغت عكاء ورآها مع زوجها تهزأ بهِ وبوعيدهِ

الفصل الرابع عشر

تصريح الملك العادل

وبعد انطلاق برنغاريا اسرعت متيلدة الى مصلاّها واقامت فيهِ عدة ساعات قضتها في الصلاة لاجل سلامة الملكة لاهيةً عن نفسها بالاهتمام بغيرها . ثم دعت اليها هرميون كونتة لستر واطلعتها على امرها وسفر الملكة وقالت لها : —

" اكتمي هذا السر جهدكِ واذيعي ان الملكة مريضة . وغدًا اذا رجع الملك وطلب مقابلة الملكة فلا بأس لان برنغاريا تكون حينئذٍ قد بلغت حيث يتعذّر ارجاعها "

وفي اليوم الثالث اصدت جوانب المدينة بصليل الاسلحة وهتاف المبوقين إيذانًا برجوع الملك العادل بالجيوش التي حشدها . وما لبث بعد وصولهِ ان امر باعداد سفينة ليسير بها في الغد الى القاهرة . ثم ارسل يطلب مقابلة الملكة

فخفَّت هرميون الى متيلدة واخبرتها بقدوم الملك العادل فراعها هذا الخبر المفاجئ لكنها تجلَّدت واسرعت الى مصلّى الملكة وجلست تنتظرهُ هناك

فلما دخل ورآها في مجلسها لم يخامرهُ ريبٌ في انها برنغاريا . فحيَّاها من بعيد وجلس مقابلها واخذ يفكر في حزنها الذي عدَّ نفسهُ سبب حدوثهِ ومبعث صدورهِ وقال : —

" لا بدَّ انهُ بلغ جلالتكِ اني انقدتُ على رغمي الى تخييب املك واخلاف وعدي لكِ على ان ذلك لا يطول امرهُ فلسوف تكون شقة حزنكِ قصيرة العهد . فغدًا اذهب بكِ الى القاهرة حيث تقيمين في قصر الخلفاء حرّةً مختارةً كما انتِ هنا . وبعد ما اجمع جيوشي

انطلق بهم الى السلطان واستأذنهُ في اطلاق سبيلكِ فتذهبين الى قرينكِ وترين التي انحجبت رؤيتها عن عينيَّ الى الابد . فهل تذكريني عندها ؟ هل يلذُّ لها الاصغاء الى حديثكِ عني ؟ قولي لها انها ذهبت بسعادتي ورجائي ومطمعي في الحياة . اخبريها اني سأخرج الى الحرب عازماً على التخلص من وجودٍ لم يعد لهُ بعدها من قيمة في عينيَّ ! "

فتحرَّكت الاميرة بعامل شفقة لم تستطع التغلب عليهِ ونهضت وقد ازاحت عنها برقعها وقالت لهُ : —

" عبثاً احاول ان اخدعك يا مولاي . . . "

فصاح الملك العادل بصوت الدهشة والفرح وانتصب على قدميهِ وهو يكذّب عينيهِ واذنيهِ بما رأى وسمع . اما هي فتغلَّبت على اضطرابها وقالت : —

" رأيت الملكة مشرفة على الموت . ففديتها . البستها ثوبي واطلقتها عوضاً عني . فافتح لي باب السجن ودعني ادخل المعتزل الذي اخترتهُ لنفسي "

فاجابها : —

" قضى القدر ان تبقي على رغمك ورغم الاوامر التي صدرت بوجوب انطلاقك وفي هذا ما فيهِ من الدليل على وجوب بقائنا معاً متحدين اتحاداً لا ينفصلنا عنهُ سوى الموت ! "

فاقشعرَّ جسم الاميرة عند سماعها هذا الكلام وصاحت : —

" صن لسانك ايها الامير عن مثل هذا القول المنكر "

" اسمعي يا متيلدة . ان حبي لك يفوق الوصف ويعجز ابلغ الكلام عن ايضاحهِ . بجيوش شعبكِ واخوكِ ورجالهُ حتى اخي ايضاً — هؤلاء كلهم ليسوا بقادرين ان يفصلوا احدنا عن الآخر . يجب ان تكوني لي على رغم كل قوة تحول دون ذلك . واني احترم عادات قومكِ وشعائر مذهبك فلا اتعرَّض لكِ في شيء من هذا القبيل . لا اطلب منكِ سوى ان تمنحيني محبتكِ "

" مولاي ان صحَّ ان لارادتي سلطةً عليك فارجوك ان تتركني الآن . وغداً اكون مستعدةً للذهاب معك الى القاهرة "

فلبَّى طلبها على الفور وحيَّاها وخرج

الفصل الخامس عشر

اطلاع اغنس على سرّ بقاء متيلدة

خرج الملك العادل من عند متيلدة يفكّر في الاسباب التي حملتها على البقاء في دمياط وارسال الملكة عوضاً عنها . فلم يمكنهُ ان يصدق ان بقاءها نشأ عن مجرّد محبتها للملكة ورغبتها في اجتماعها بزوجها . بل حكم بان ميل متيلدة اليهِ سهّل عليها انكار نفسها وايثار الملكة عليها . وبناءً على اعتقادهِ هذا عزم ان يسعى جهدهُ في تقوية هذا الميل حتى ينمو ويستحيل الى محبة شديدة تشغل قلب متيلدة وتستأثر بعواطفها وامالها وتتغلب على ارادتها وتزيل ما بينها وبينهُ من الحواجز والموانع

هذه الاعتبارات كلها عرضت لهُ في اثناء تأملاتهِ فهشّ لها وبشّ وعلل نفسهُ بادراك ما تصبو اليهِ وتتمنى الحصول عليهِ . ولم يبطئ ان ملّك المحبة قيادهُ وجعلها الآمرة الناهية في جميع شؤونهِ واحوالهِ

ولكنهُ مع خضوعهِ المطلق لسلطة المحبة لم ينسَ العلاقة الاخوية التي تربطهُ بصلاح الدين . ولم يفتهُ ان اخاهُ هذا يتوقع قدومهُ بذاهب الصبر وان مصير سلطنتهِ متوقف على وصولهِ اليهِ في الوقت المعين . فعليهِ اذاً ان يبذل جهدهُ في الاسراع اليهِ . ولكن ماذا يفعل باميرة انكتترة ؟ اياخذها معهُ ويعرّضها لخطر قربها من معسكر شعبها ام يبقيها في مصر ويكابد لوعة فراقها ؟

وبعد تأمل طويل في هذا الامر عزم ان ينطلق في الغد بمتيلدة الى القاهرة فيبقيها هناك في قصر الخلفاء محفوفة بما تستحقهُ من الاعزاز والاكرام ويذهب الى ملاقاة اخيهِ في المكان المعين . وعلى الفور اصدر امرهُ الى احد قادتهِ بالمسير بالجيش الى حيث يوافيهِ بعد بضعة ايام . وكانت اغنس في هذه الاثناء قد بثت الرقباء والجواسيس للوقوف على حركات الملك العادل وسكناتهِ . فعلمت انهُ بعد رجوعهِ الى دمياط دخل قصر الملكة عابساً مقطباً وخرج من عندها طلق المحيّا باسم الثغر وانهُ عزم على المسير في الغد الى القاهرة وان برنغاريا ذاهبة معهُ . وان عندهُ اموراً مهمة يجب ابلاغها لاخيهِ قبل ذهابهِ اليهِ ولذلك سيرسلها اليهِ الليلة مع رسول مخصوص

فرابها هذا الامر واخطرت الغيرة على بالها ما اخطرت المروءة على بال متيلدة وعزمت ان تحقّق الامر بنفسها بما يمكنها من السرعة . ولم تلبث ان اسرعت الى حيث تقيم الملكة

وطلبت ان تراها. فلم تجبها هرميون كونتة لستر الى ذلك بحجة ان الملكة مريضة جداً لا تستطيع مقابلة احدٍ ايًّا كان . فاعترضت اغنس على هذه الحجة بان الملكة قد قابلت الملك العادل وانها عازمة على الانطلاق غداً الى القاهرة فهي اذاً ليست مريضةً وتستطيع ان تقابلها اذا شاءت . لكنَّ هرميون ظلت على عزمها ولم يثنها عنهُ اعتراض اغنس والحاحها . فعادت من حيث اتت وقد زادت اقتناعاً بصحة ما رابها من امر الملكة . وعمدت الى السعي في الوقوف على جلية الامر من وجهٍ آخر . وذلك بان اجتمعت بالرسول الذاهب برسالة الملك العادل الى اخيهِ ورشتهُ بجميع الحلى والجواهر التي كان الملك العادل قد اعطاها اياها فدفع اليها الرسالة وفيها ما خلاصتهُ : —

" وددت ان اطيع اوامرك يا أخي ولكنَّ القدر حال دون ذلك . وكأن الله ابى ان أخلف وعدي لملكة انكلترة . ففي غيابي خُدع المشطوب الذي فوضتُ اليهِ تنفيذ امرك من جهة سفر الملكة على انهُ براء مما حصل وكذلك انا . وسأبرهن لك ذلك عمَّا قليل باسترجاع عكاء ووضع مفاتيح جوهرة الشرق عند قدميك "

فلما اطلعت اغنس على مضمون الرسالة صاحت بصوت الغيظ والغضب : —

" اذاً صدقت هواجسي وظنوني ولم اكن مخدوعة باوهامي ! "

ثم التمس منها العبد ان تعيد الرسالة اليهِ فصاحت بهِ : —

" لن تراها في يدك ابد الدهر . اذهب الى شمال سورية والتمس لنفسك ملجأً حيث تقصر يد الملك العادل عن الوصول اليك "

فما ابطأ العبد ان عمل باشارتها وفرَّ آبقاً حين كان الملك العادل يظنهُ ذاهباً في طريقهِ الى اخيهِ صلاح الدين

اما اغنس فسعت بعد هذا الى الحصول من بعض حرَّاس القصر على خوذة وترسٍ ورمحٍ وعزمت على إنفاذ ما سوَّلتهُ لها نفسها الاثيمة من اغتيال من عدَّتها مناظرة لها في حب الملك العادل

الفصل السادس عشر

محاولة اغتيال متيلدة

وكانت متيلدة الى الآن تجهل ما عزم عليهِ الملك العادل . فلم تعلم أيبقى معها في القاهرة ام يضطرها الى تصحبهُ الى سوريَّة . وكان كلا الامرين مكروهاً عندها فلا يرضيها غير الانفصال عن الملك العادل ولو بالزجّ في غيابات السجن

وفي صباح اليوم التالي زارها الملك العادل واطلعها على ما عزم عليهِ من جهتها وقال لها : —

" سامضي بكِ الى قصر الخلفاء في القاهرة حيث تقيمين على ما تشائين من السعة والرحب والاعزاز والاكرام واذهب على الفور الى ساحة القتال حيث اقوم بما يفرضهُ عليَّ وطني وصلاح الدين " فصاحت متيلدة : —

" يا لشقاء الافرنج ! اواه يا اخي رتشرد . اسفي عليك يا شقيقي . انك واردٌ حتفك لا محالة بيد خصمٍ لا تستطيع مقاومتهُ ! "

فاجابها الملك العادل : —

" ثقي يا متيلدة اني اضحي نفسي في سبيل دفع كل مكروهٍ يقضي بذرف دمعةٍ واحدة من عينيكِ . ولن يصابَ اخوك باذًى استطيع دفعهُ عنهُ بنفسي . ولكن اذا بذلت حياتي في سبيلهِ فهل لكِ حينئذٍ ان تذرفي على دمي الزكي دمع رأفةٍ قصَّرت محبتي عن اكتسابها منكِ ؟ "

وفيما هو يتوقَّع منها جواباً على سؤالهِ هذا وهي تحاول إخفاء دموعها التي تبوح لحبها بسرّ ضعفها وتطلعهُ على شيءٍ مما في قلبها ارتفع صراخ مخيفٌ في الغرفة المجاورة ودخل على الفور رجلٌ مدجج بالاسلحة وبيدهِ سيف مسلولٌ وهجم على متيلدة — واذ لم يكن مع الملك العادل سلاح يحميها بهِ عزم ان يقيها بنفسهِ فحال بينها وبين الذي هجم عليها ولكنَّ اليد التي اعدَّت السيف لاختراق قلب متيلدة قصَّرت عن ان تبلغ بهِ فؤاد الملك العادل فلم تصبهُ بسوى جرح خفيف اسال دمهُ غزيرًا . فلما رأت متيلدة الدم صابغًا حلتها البيضاء توهمت ان الضربة قاضية فاضاعت رشدها وخانها عزمها وهمت بالسقوط على وجهها لو لم تسندها يد هرميون التي اسرعت بالمجيء اليها على اثر دخول اغنس

اما الملك العادل فترك متيلدة مغشيًّا عليها بين يدي كونتة لستر وخرج يتأثَّر الجاني . فادرك اغنس خارج المصلَّى واذا بها قد تنحَّت الى جانبٍ وقالت لهُ والسيف مسلول في يدها : —

" احذر فلن تؤانس من يدي ضعفًا ولا رحمةً "

" تبًّا لكِ ! "

" نعم تبًّا لي لاني لم اتمكَّن من الانتقام كما اردت ولكن اذا اخفق مسعاي الآن فلن يخفق فيما بعد "

قالت هذا واسرعت في الخروج . فاوصى الملك العادل هرميون بحراسة سيدتها وخرج يتأثَّر اغنس ليحول دون إنفاذ مسعاها

ولما افاقت متيلدة من اغمائها سألت هرميون بلهفةٍ شديدة

" اباقٍ الملك العادل حيًّا ؟ "

" لم يُصَبْ بسوى جرح خفيف وقد خرج لاطفاء الفتنة التي شبَّت اغنس نارها فانها وشت بالملك العادل الى الجيش والشعب وقالت لهم انهُ استهان باوامر صلاح الدين فأطلق الملكة وابقاكِ انتِ وانهُ مفتونٌ بحبكِ . فهاجوا كلهم وماجوا وتبعوها الى ابواب القصر طالبين حياتكِ . ولو اصابتكِ الطعنة التي وجَّهتها تلك الاثيمة اليكِ لنفضت عليك حالاً ولكن محبتها للامير حالت دون اصابتها مقتلاً منهُ ومن هذا يتَّضح لكِ انهُ عرَّض نفسهُ للقتل حبًّا بوقايتكِ منهُ "

وفي المساء جاء دوق نورفولك واخبر متيلدة بان الملك العادل تمكن من اخماد الفتنة وان اغنس لاذت بالفرار وقد فتشوا عنها في المدينة كلها فلم يقفوا لها على اثر

وكانت هذه الحادثة قد حملت الملك العادل على تغيير ما رتبهُ من جهة متيلدة فعدل عن ابقائها في القاهرة وعزم ان يأخذها معهُ . وكتب الى صلاح الدين رسالة أخرى اخبرهُ فيها بما كان من امر الفتنة التي اثارتها اغنس في دمياط وارسلها اليهِ مع احد رجالهِ الامناء

اما اغنس فلما رأت خيبة مساعيها الشريرة تدججت بالسلاح الكامل وامتطت جوادًا يسابق الرياح فساربها ينهب الارض على طريق سورية . وفيما هي سائرة في طريقها ابصرت رجلاً يجري وراءها على ظهر ناقةٍ فعلمت على الفور انهُ رسول من قبل الملك العادل فاستوقفتهُ فلم يحفل بها فحملت عليهِ وقومت سنان رمحها نحوهُ ففعل مثلها ولكنها عاجلتهُ بضربةٍ القتهُ على الارض وغادرتهُ ضحية امانتهِ لسيدهِ . وما ابطأت ان عمدت اليهِ وانتزعت الرسالة من صدرهِ واستأنفت مسيرها

ولما اطلع الملك العادل متيلدة على عزمهِ ان يأخذها معهُ الى حيث ينتظرهُ اخوهُ توسلت اليهِ ان يسمح لها بالذهاب الى اطلال دير على شاطئ البحر . فدهش اشدَّ الدهش من طلبهِ كهذا واخبرها بما في طريقها الى الدير المذكور من المخاطر والصعوبات التي يتعذر على من كان مثلها ان يتغلب عليها . فلم تثنِ عن عزمها بل الحت عليهِ واكثرت من التوسل والالتماس قائلةً ان اتكالها على معونة من انقطعت لعبادتهِ يسهل عليها كل صعب ويقيها كل خطرٍ

ولما رأى انها مصرةٌ على عزمها هذا اصرارًا يصعب عليهِ ان يحوّلها عنهُ وعدها انهُ ينظر في الامر بعد وصولهِ الى القاهرة

وخرج من عندها متعجباً جداً من ثبات جاشها وشدة عزيمتها وغير مصدقٍ ان فتاةً مثلها تقدم على تعريض نفسها لتحمل اخطار واتعاب مثل هذه

الفصل السابع عشر

السفر الى القاهرة

وفي صباح اليوم التالي خرجت امبرة انكلترة بصحبها دوق غلوستر وهرميون كونتة لستر وبعض الضباط الانكليز الى شاطىء النيل حيث كانت سفينة معدّة لاخذهم الى القاهرة . فتقدمهم الملك العادل وصعد بمتيلدة الى مرادق من نسيج الذهب مفروش باثمن البسط الفارسيّة وعليهِ انفس النمارق فاجلس الاميرة وجلس بجانبها

ونشر البحارة الشُّرُع واعانوا الريح بمجاذيفهم فدفعت السفينة من موقفها فسارت تشق بهم لجج النيل الى القاهرة . وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي النهر مما يسرُّ النواظر ويبهج الخواطر ولكن متيلدة حرمت نفسها لذة التمتع بهذه المشاهد الجميلة وارخت برقعها الطويل واحتجبت في مطاويهِ واخفت يديها في ثنايا كميها . واخذت افكارها تجول حول موضوع ذهابها الى الدير على شاطىء البحر الاحمر وانفصالها الابدي عمن احبها محبة لا توصف وخاطر بنفسهِ في سبيل نجاتها من يد اغنس . فتمثلت لها مرارة اليأس التي يتجرعها بفراقها وشق عليها ان تقابل معروفهُ العظيم بمثل هذا الصدّ والاعراض . فرثى لهُ قلبها وحدّثها بوجوب العدول عن عزمها وكادت تصغي الى هذا الصوت الجديد لولا ان ضميرها وبخها على ما بدا من ضعفها وذكّرها نذورها وما عليها من الواجبات لله

وكان الملك العادل في هذه الاثناء يتفرّس في جمالها المنقطع النظير ويزداد بها شغفاً وهياماً . واذ لم يعد يسعهُ الصبر على الانقطاع عن محادثتها مدّ يدهُ ليمسك بيدها فانتزعتها منهُ وقالت وهي في ذهول عميق اشبه بسباتٍ : —

" اللهمَّ عفوك وغفرانك ! انك شاهدٌ يا الهي على جهادي العنيف في مقاومة هذا الحب اصفح عن ضعفي وعجزي وهب لي قوّة تمكنني من التغلّب على اميال قلبي "

ثم التفتت الى الملك العادل وقالت لهُ وقد افاقت من ذهولها : —

" رحماك ايها الامير حوّل عينيك عن شقائي ودعني اذرف دموع الندامة بعيدة عمّن كان سبب انسكابها . واجعل من هذه الدقيقة فاصلاً ابدياً بيني وبينك "

فحرك كلامها عاطفة الاحترام في قلب الملك العادل ولم يعد يجسر ان يرفع نظرهُ الى

وجهها . وبعد ما لاذ هنيهة باطراف الصمت قال لها : —

"عيشي بسلام ايتها الفتاة الشريفة . فلن اكلمك بعد الآن عن المحبة التي يغيظكِ سماعها"

ولما وصلوا الى القاهرة لزمت منيلدة عزلة انقطعت فيها عن مقابلة الزائرين ما عدا بعض الجالية الذين لما سمعوا بقدومها اسرعوا اليها للسلام عليها فسألتهم عن المخاطر التي يلقاها المسافر الى ساحل البحر الاحمر ثم اطلعتهم على قصدها بقولها : —

" نذرتُ نذرًا لا تستطيع قوةٌ على الارض ان تثني عزمي عن اتمامهِ وهو ان اجتاز المفاوز المحرقة لالتمس مشورة الناسك المتعبد المقيم على ساحل البحر الاحمر . فمن منكم يا اصدقائي يروم ان يصحبني في هذا السفر ؟ "

فاجابوا بصوتٍ واحد : —

" كلنا "

" اذًا اكتموا هذا الامر ولا تبوحوا بهِ لاحدٍ . واعدُّوا كل ما نحتاج اليهِ سرًّا . وعما قليل أُخبركم بزمان اجتماعنا ومكانهِ "

وبعد خروجهم دخل دوق غلوستر وقال لها : —

" هو ذا الملك العادل يستعرض الجيوش التي جمعها استعدادًا للزحف بها الى اخيهِ وسيقضي اليوم وغدًا في حشد الجيوش واستعراض الكتائب وبعد غدٍ يذهب بها وبمملوكهِ . وقد ارسل هذا الكتاب الى مملوكهِ واظنهُ يذكر فيهِ تفصيل ما عزم عليهِ "

فتناولت الكتاب من الدوق وتلت فيهِ ما خلاصتهُ : —

" بعد يومين انطلق بكِ الى بلاط صلاح الدين وأعدكِ اني أُطيعكِ في كل ما تطلبين ما عدا إرجاعكِ الى معسكر الافرنج ولا اعارضكِ في شيء ما خلا ذهابكِ الى ساحل البحر الاحمر "

ولكنَّ معارضة الملك العادل لم تكن لتثنيها عن عزمها . ولما كانت واثقةً باخلاص دوق غلوستر وامانتهِ أطلعتهُ على قصدها فأُعجب بشدة عزمها وثباتها والتمس منها ان تأذن لهُ في ان يصحبها في زيارتها . فاجابتهُ الى ذلك واخبرتهُ بالمكان الذي عيَّنتهُ للتأهب والاستعداد وقالت لهُ : —

" اذهب الى حيث قلت لك وقل للذين وعدوا ان يصحبوني ان يبذلوا جهدهم في اعداد كل ما يلزم باسرع ما يمكن . وعند ما يرخي الليل سدولهُ ويبرح الملك العادل القاهرة الى منف اذهب اليكم ونخرج معًا لطيتنا "

الفصل الثامن عشر

زيارة الناسك

برح الملك العادل القاهرة الى منف لتعبئة ما بقي من الجيش من غير أن يداخلهُ اقل ريب في ما عزمت متيلدة عليهِ . والاَّ لم يفارقها ساعة واحدة ولكنهُ كان يعلّل نفسهُ بأنها مثّلت لعينيها اهوال المخاطر التي تتهددها في هذا السفر فعدلت عنهُ

ولما اقبل الليل جاء دوق غلوستر الى متيلدة وخرج بها بحجة الذهاب لزيارة عين في المطرية يقال ان العذراء استراحت عليها عند مجيئها الى مصر وغسلت المسيح بمائها . فلما بلغتها وجدت الذين وعدوا ان يصحبوها في انتظارها ومعهم ثلثة ادلاَّء وقد اعدُّوا جملين وبعض الثمار اليابسة ومقداراً من الماء

وكان سيرهم في اليوم الاول سهلاً لم يعانوا فيهِ شيئاً من الصعوبة ولكنهم في اليوم الثاني اقبلوا على اطراف البادية واخذوا يسيرون في رمضاء محرقة لا ماء فيها يروي الظماء ولا اشجار يلطف ظلها حرارة الشمس . ولكنَّ متيلدة ظلَّت على رغم هذه المشاقّ والمصاعب متجلّدة متحمّلة فلم يبدُ عليها اقلُّ علامةٍ لخوار العزم ولا بدرت منها كلمة بالتذمُّر والشكوى . على انها رثت من صميم فؤادها لما عاناهُ رفقاؤُها من ألم الجوع والعطش والحرّ والتعب وبذلت في مؤاساتهم جهدها وكثيراً ما آثرتهم على نفسها واروت عطشهم بجرعات من قطرات الماء المعينة لها

ولا نشغل القارئ بتفصيل ما عانوهُ من المشاق والمتاعب التي يعجز القلم عن وصفها بل نكتفي بالقول انها كانت اعظم ما يستطيع الانسان تحمُّلهُ . وبعد ما كابدوا في اجتياز البادية جهد البلاء اقبلوا على عين ماء على شاطئ البحر فوردوها بلهفةٍ وشوقٍ لا مزيد عليهما

وبعد ما اراحوا غليلهم واستوفت اجسادهم قسطها من الراحة استأنفوا المسير على شاطئ البحر وقضوا يوماً في التفتيش عن اطلال الدير فلم يقفوا لها على اثر . اخيراً ابصرت متيلدة من بعيدٍ صخرة كبيرة يتكسر موج البحر على قاعدتها وفي قمتها شيءٌ مستدقٌ اشبه بالحربة اوالسهم فحدثتها نفسها بان هذا هو المكان المقصود واهابت برفقائها فخفوا اليهِ مسرعين . ولما دنت منهُ اتضح لها ان تلك العلامة في قمتهِ انما هي صليب مرفوع فوق صومعة الناسك . ولما بلغت اطلال الدير جاست خلالها حتى انتهت الى باب مصلًّى او كنيسةٍ صغيرةٍ فدخلتها غير هيابةٍ ولا وجلةٍ

وقد اعانها ضياء القمر على رؤية الناسك جاثياً في صدرها يقيم صلاتهُ المسائيَّة . فاقتربت اليهِ وقالت لهُ : — " السلام عليك ايها القديس المحترم من الناس والمبارك من الله ! "

فاجفل الناسك من سماع صوتٍ بشريٍّ لم يسمعهُ منذ ثلثين سنة سوى مرة واحدة وزاد عجباً واستغراباً لما رأى صاحب الصوت فتاةً بارعة الجمال وقد اقدمت على ما تحور دونهُ عزائم الرجال . فاستأنفت الاميرة كلامها وقالت لهُ : —

" جئتك ملتمسة منك عوناً ومساعدةً وقد عانيت ما عانيتهُ من المخاطر والاتعاب حبًّا بالحصول على نصائح وارشادات من حكمتك وتقواك وصلاحك فهب لي ما املت ولا تخيب رجائي "

فعطف الناسك عليها وانهضها من مجثاها وقال لها : —

" طيبي ايها الفتاة نفساً فسيكون لكِ ما تطلبين . ولكن من المحقق عندي انكِ لم تجيئي وحدكِ فاين هم رفقاؤكِ ؟ "

" لقد سبقتهم اليك وها هم قادمون ورائي . واني اسمع الآن وقع اقدامهم خارجاً "

فخرج الناسك لملاقاتهم مرحباً بهم وقد سرَّ جدًّا بمشاهدة بني جنسهِ بعد انقطاعهِ عنهم سنين هذا عددها . وبعد ما حياهم التحية المعتادة واكرم مثواهم ودعا لهم وباركهم سألهم عن بلادهم وشعبهم فقال لهُ دوق غلوستر : —

" نحن الضباط من اوربا وهولاء الملكيون من مصر وسورية وهذه الفتاة هي الاميرة متيلدة اخت الملك رتشرد الملقَّب بقلب الاسد "

وبعد ما استراحوا قليلاً دعاهم الى الجلوس حول حجرٍ كبير منبسط امام مخدعهِ ودخل فاخرج اليهم كل ما عندهُ من الطعام غير مهتم للغد وكان مقصوراً على كعك وتمر وشهد العسل فوضعهُ امامهم على الحجر وطلب اليهم ان يتناولوهُ و يعذروا قصورهُ عن تقديم شيء اخر منهُ قائلاً لهم : — "هذه اول مرة شعرت فيها بفقري مدة الثلثين سنة التي قضيتها في هذا المكان"

فاجابهُ احد الضباط : — " ان كرم الضيافة في كوخك الحقير اعظم جدًّا مما يراهُ الانسان في بلاط الملوك وقصور العظماء "

فقال الناسك : —

" كان بلاط فرنسا مشهوراً بكرم الضيافة فهل خالف ملكها الحالي ما كان عليهِ سلفاؤهُ "

فقال لهُ احد السوريين : — " ان ملكها فيليب اوغسطس في سورية مع ملك انكلترة يحاولان استرجاع بيت المقدس من السلطان صلاح الدين "

ثم قصُّوا على الناسك ما لصلاح الدين واخيهِ الملك العادل من الهيبة والسطوة في مصر وسوريَّة وسائر المشرق . وما يلقاهُ ملوك الافرنج من المصاعب في سبيل التغلب عليهما واسترجاع بيت المقدس منهما

الفصل التاسع عشر

انقاذ متيلدة من ايدي اللصوص

وبعدما تناولوا الطعام الذي اعدَّهُ لهم الناسك طلبوا في ظلال النوم راحةً كانوا جميعهم في اشد الاحتياج اليها

وفيما هم نيام ذهب الناسك الى شاطىء البحر يجمع ما يستطيعهُ من المحار وبيض السلاحف ليطعم ضيوفهُ في الصباح . ونهضت متيلدة في اول الفجر تطلب الناسك ولما بلغت الشاطىء وقفت على صخرعالٍ تستنشق نسيم الصبا وتستقبل مليكة الانوار شمس النهار فشاقها المنظر وهاج بها تذكار ما مرَّ بها في ايامها الاخيرة من الحوادث واخجلها جدًّا ان هذا المنظر الطبيعي البديع الذي تجلى لها بملء جلالهِ وجمالهِ لم يكن كافيًا لتحويل افكارها عن الحب الذي اصبى قلبها وسبى لبها بل كان في عيني نفسها اقلَّ اعتبارًا من موضوع ذلك الحب

وحينئذٍ تنهدت تنهدًا عميقًا واخرجت من اعماق صدرها زفرةً سمعها الناسك الذي لم يكن بعيدًا عنها فخفَّ اليها ودنا منها وقال لها : —

" قولي لي يا ابنتي ماذا عسى ان يكون هذا الحزن الذي يكاد يمزّق احشاءكِ ؟ وايَّةُ خطيئة سريَّة تذهب براحة ضميرك وتكدر صفاء سلامك ؟ وهل يمكن ان ظاهركِ المشرق بنور الطهارة والبراءة يخفي داخلهُ نفسًا ملطخة بالآثام ؟ "

" نعم فان خطيئتي عظيمة وحمل نفسي ثقيل . وسألقيهِ امامك ملتمسةً منك عونًا على إزالتهِ عني "

" انضي يا ابنتي امام الله وتوبي اليهِ توبةً صادقةً فيمنحك الغلبة على الافكار الباطلة التي تزعج نفسك وتكدر صفاء راحتكِ "

ثم عاد بها الى اطلال الدير حيث كان رفقاؤها قد افاقوا من نومهم ودعاهم الى مصلاهُ لحضور صلاة الصباح . وبعد انقضائها رجع بهم الى صومعتهِ وجاءهم بالطعام الذي اعدهُ لهم . وفيما هم يتناولونهُ اخذ يسألهم عن رئيس اساقفة صور وقال لهم : —

" لما انقطعتُ عن العالم كان وليم بعد في حداثتهِ . ولكنَّ ما لاح عليهِ حينئذٍ من ملامح الحكمة والتعقل انبأ بما سيكون لهُ من الشأن العظيم والمقام الرفيع "

فطفقوا يحدثونهُ عن رئيس الاساقفة ويخبرونهُ بفضائلهِ الرائعة وشهرة حكمتهِ الذائعة وسلطتهِ الدينيَّة الفائقة وغير ذلك مما امتاز بهِ من المواهب السامية والسجايا الحسنة

وقضوا سحابة يومهم يتحدثون تارةً عن الدير وبانيهِ وما بقي من اطلالهِ وتارةً عن بعثات الافرنج واسبابها ونتائجها . حتى اذا توارت الشمس بالحجاب واقبل الليل طلب الزائرون الراحة حيث وجدوها في الليلة الماضية وذكَّرت مثيلدة الناسك وعدهُ لها بان يسمع اعترافها ويعينها على ازالة حمل همومها وخطاياها فسار بها الى قرب البحر وجلس بجانبها واخذ يستدرجها في الاسئلة وينشطها بسرد الآيات الكتابيَّة حتى باحت لهُ بسر محبتها للملك العادل بين مجم العبرات وتصعيد الزفرات وقصت عليهِ بالتفصيل قصة شخوصها من بلاد الانكليز مع اخيها الملك رتشرد الى الشرق والغرض الذي من اجلهِ غادرت الدير وحادثة امرها مع الملكة في دمياط وما تلا ذلك من الحوادث التي يذكرها القارىء

فدهش الناسك من سماع هذه القصة العجيبة دهشاً ممزوجاً بالحزن والاسف وقال لمثيلدة

" ما العذر الذي تحملهِ لجواز التمتُّع بمثل هذه المحبة الاثيمة ؟ "

" لا ادري سوى اني رأيت الملك العادل فاحببتهُ "

" هل أُخذت بسحر جمالهِ ؟ "

" بالجهد شعرت بشيء من ذلك "

" هل أُغريت بتوقع الحصول على امجادٍ عاليَّة والتمتع بملاذَّ دنيويَّة ؟ "

" لم يدر ذلك قطُّ في خلدي ولا خطر ببالي "

" بمَ كنت تشعرين عندما كان يجلس بجانبكِ ؟ "

" بأني أُحبهُ "

" ألم تفتكري حينئذٍ بالامور التي تحرم عليكِ محبةَ كهذه ؟ "

" لم اكف قطُّ عن تذكرها "

" هل نسيتِ ان هذا الرجل خصم الافرنج العنيد ؟ "

" لم انسَ ذلك قطُّ "

" وبعد ذلك ؟ "

" سرتُ في طريق الحب مواصلة النوح والبكاء غير جاهلةٍ بانهُ ينتهي بي الى البؤس والشقاء "

" خلي عنكِ يا ابنتي الاستسلام لضعفكِ . تمسكي بما كان لكِ من العزم وارجعي الى حمى الفضيلة والطهارة "

" يصعب عليَّ يا ابتِ ان اصف لك حقيقة حالتي . أرى نفسي منقادةً على رغمي الى

ما ترتعد فرائصي من تصور هول الوقوع فيهِ. ارى امامي هوة عميقة لا قرار لها ولستُ مستطيعة التغلب على ميلي الى الهبوط فيها. اكابد تباريح اشدّ من آلام الموتِ وقعاً و يلذّ لي تجرّع آلامها. وقد عرضتُ نفسي لاخطار قطع البادية التي يحجم عنها اشد الرجال إقداماً لالتمس منك عوناً على محو صورة الملك العادل من قلبي ومع ذلك اخاف كل الخوف انك تمنحني سؤلي هذا . وفي هذه الدقيقة الرهيبة — حين ارى سيف الانتقام العادل مسلولاً فوق رأسي وصوتك المهيب معدًّا للنطق بالقضاء المخيف عليَّ — يحدثني قلبي العاصي بالحب ويسمو بي الى ما فوق هذه المخاوف كلها "

"صه ايتها الفتاة المنكودة الحظ ؟ "

ولكنَّ متيلدة لم تعد تستطيع سماع شيءٍ من كلام الناسك لانَّ جلدها خانها وقواها خارت من فرط الاعياء وطول الصوم وشدة الجهاد والنزاع المتواصل بين عواطف قلبها وعوامل عقلها فسقطت مغشياً عليها

فاضطرب الناسك لاغمائها واوجس خوف دنو أجلها وعدا الى ينبوع ماء قريب منهُ وجاءها بقليل من مائهِ ورش بهِ وجهها فافاقت من اغمائها وفتحت عينيها الزرقاوين والتفتت حولها فرأت اشعة القمر الفضية تنير ظلام الليل والناسك حانياً عليها حنو المرضعات على الفطيم . ثم نبهت ذاكرتها واسترجعت ما فارقها من الإدراك فاحاطت علماً بما هي عليهِ الآن فاقشعرَّت من شدة الذعر وانتفضت كالعصفور بللهُ القطر. وهمَّ الناسك بان يكلمها في ما يبدد سحب يأسها و يعيد لها بعض العزم والثبات واذا باصوات صليل اسلحة وصياح خوف وذعر اخترقت فجأة حجاب السكوت السائد على تلك الاطراف ولما طرقت أذني الناسك صرخ :

" اخاف ان يكون البدو قد اكتشفوا آثار الزائرين في البادية واتوا يفاجئونهم وهم نيام. اني ذاهبٌ لتضحية نفسي في سبيل الدفاع عن اخوتي. اما انتِ يا ابنتي فادخلي هذا الكهف ولا تعرضي جمالك لعيون لصوص البادية . . . . "

قال ذلك وادخلها كهفاً هناك واعترض لُثمة حديثهِ ظهور اشباح حجبت ضياء القمر فنظرا واذا برجال ليس عليهم من الثياب الاَّ ما يستر عورتهم وقفوا في مدخل الكهف وسيوفهم المسلولة ملطخة بالدم وعيونهم تخترق داخل الكهف لترى ما فيهِ. ولما ابصروا عذراء ذات جمال منقطع النظير هجموا عليها يريدون اختطافها. فالقى الناسك نفسهُ امامهم ورمقهم بناظر يتطاير منهُ شرر الغضب والحنق ورفع يديهِ نحو السماء وزعق بهم : —

" تنحوا يا ابناء المعصية : ارجعوا من حيث جئتم والاَّ استنزلت من السماء ناراً آكلة

على كل يدٍ اثيمة تمتد الى مس هذه الفتاة بسوء "

فراعهم سمع هذا القضاء الرهيب الذي أنذرهم بهِ واعجموا بعض الاعجام لكنّ زعيمهم ما لبث ان زمجر كالاسد المفترس وازاح يد الناسك من طريقهِ وهجم على متيلدة

وباسرع من انقضاض الصاعقة التي انذرهم الناسك بانحدارها نشب بينهم شابٌ يتطاير الشرر من عينيهِ و ينقض الموت من حدّ حسامهِ المسلول وقد حكمهُ في كل من قام في سبيلهِ واخترق بهِ منفذًا الى متيلدة . فلما وصل اليها اخذها بين ذراعيهِ على اسلوب استخف بكل خطر حتى بالموت نفسهِ وخرج بها من الكهف قبلما يترك للناسك مجالاً للاعتراض

اما الناسك فلما استرجع رشدهُ الذي ضعضعهُ هذا الحادث الفجائي خرج يعدو في اثر الخاطف فلم يرَ في طريقهِ سوى من بقي من اللصوص الذين مزق شملهم الرعب وشتتهم الذعر وقد اطلقوا سوقهم للريح مرددين باعلى اصواتهم اسم من كان علة ذعرهم واضطرابهم وسبب نكوصهم على اعقابهم : — " الملك العادل ! الملك العادل ! "

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد بذل ما ينتهي اليهِ جهدهُ في الاسراع بحملهِ الثمين فلم تثنهِ انات النازعين ولا اهوال الموت نفسهِ عن مواصلة العدو والاسراع غير مبالٍ بسوى الخاطر التي انتشل متيلدة من مخالبها ولا يزال معرضاً لكرة تعيدها عليهِ بقوة تنبو ذراعهُ الشديدة عن رد تيارها حتى بلغ حيث كان جوادهُ في انتظارهِ فاعتلى صهوتهُ ومتيلدة باقية بين يديهِ واطلق لهُ العنان فانطلق بهِ في عرض البادية يسابق الرياح ووراءهُ فصيلة من جنودهِ يجدون السير في اثرهِ

اما متيلدة فامسكت بذراعي من احبتهُ وانقطعت كمن في حلم عن التحرك والتنفس مخافة ان تستيقظ وتقف على ما هي فيهِ من الخطر الشديد

الفصل العشرون

عهد الخطبة

ولما بلغ الملك العادل سفح القلزم ترجل عن جوادهِ ليمكن متيلدة من الحصول على شيء من الراحة . وكان بالقرب منهُ ربوة تظللها اشجار الجميز والطرفاء فصعد بمتيلدة اليها واعدّ لها في ظلالها مجلساً تستريح فيهِ قليلاً وتركها تتمتع بصفاء هذه الراحة وحدها

ولما خلت متيلدة بنفسها راجعت الحوادث التي عرضت لها فلم تستطع ان تدرك سر ظهور الملك العادل امامها عند تعرضها لاشد خطرٍ طرأ عليها في حياتها ليدفعهُ عنها ويخلصها منهُ

حين كانت تظنهُ ذاهباً في طريقهِ ليوافي اخاهُ صلاح الدين. ثم تحولت افكارها نحو الناسك واصدقائها الذين صحبوها في هذه الزيارة ولا سيما دوق غلوستر فاضطربت اضطراباً شديداً لاجلهم واوجست ان يكونوا كلهم قد ذهبوا ضحايا تطوعهم في خدمتها

واذ ذاك جاءها الملك العادل بقليل من الماء البارد لتروي بهِ غليلها فنظرت اليهِ نظرة تعجُّب ممزوج بالشكر والحيرة وصاحت : —

" لله من هول هذه الحوادث الاخيرة ! فماذا اصاب الناسك ؟ وماذا ناب اصدقائي الامناء وماذا خبأهُ لي القدر من الكوارث ؟ "

فقال لها الملك العادل : —

" اشربي هذا الماء البارد وسكني روعك قليلاً . فاننا سنبقى هنا حتى يهب من البحر نسيم بليل يلطف حرارة الهواء ويمكننا من استئناف المسير وسانتهز هذه الفرصة في توبيخك ولو قليلاً على ما بدر منكِ من الطيش وقلة الحكمة . ولو اقتصر عملك هذا على تعريض نفسي وحدها لخطر الموت لسكت ولم افهُ قط بشيء من التذمر والاعتراض . . . "

" لم اجهل الخطر الذي عرضتُ نفسي لهُ ولكني لم اتوقع قط بلوغهُ اليك لاني كنتُ واثقة انهُ لا شيء على وجه الارض يحول دون انطلاقك الى اخيك الذي كان ينتظر قدومك اليهِ بذاهب الصبر "

" ولكن هل ظننتِ اني بعدما رجعتُ الى القاهرة وسمعتُ بانطلاقك وتوقعتُ تعرضك للخطر الذي وجدتكِ فيهِ اتأخر عن المبادرة الى إنقاذك لسبب من الاسباب ؟ اني على الفور عزمتُ على اتباعكِ واقتفاء اثرك غير مكترث لما اعترضني من الموانع . فلو اطعتني منذ البداءة لأمنت التعرض لهذه الاخطار وكفيتني الاتهام بالتمرد والعصيان "

ثم قصَّ عليها تفصيل ما عاناهُ من المشاق قبل وصولهِ الى اطلال الدير واخبرها بانهُ عند دخولهِ اليها كان اللصوص قد فتكوا باصدقائها وكان دوق غلوستر في حالة النزع فنظر اليهِ وعرفهُ وتكلف النهوض قليلاً وقال مشيراً الى الكهف حيث كانت متيلدة والناسك " خلص متيلدة " واسلم الروح

فصاحت متيلدة وقد اجهشت في البكاء : —

" اسفي عليك يا دوق غلوستر الشريف العظيم صديق اخي الامين لقد ذهبت ضحيَّة اهتمامك بي وكنتُ انا سبب فقد حياتك الثمينة ! — وهل قتل معهُ جميع اصدقائي ؟ "

" تركتُ معظم رجالي عندهم ليدفنوا من مات منهم ويعنوا بالجرحى . ولم يمكني ان ابقى

بنفسي لانَّ همّي الوحيد كان منصرفاً نحو تخليص حياتك "

ثم نهض بها نازلاً الى حيث كان رجالهُ ينتظرونهُ وكان الحر في معظم اشتدادهِ وريح السموم تلفح باحر من اللهب والخيل لا تزال تلهث لهثاً متواصلاً عاقها عن استئناف المسير والرجال يتشامون متطيرين وينذرون بعضهم بعضاً بسوء المصير — فارتأى الملك العادل ان يسير بالجمال ويترك الخيل . ولكي يسهل على رجالهِ اطاعة اوامرهِ استعان بالقدوة والتمثيل وانطلق امامهم ماشياً على قدميهِ بجانب الجمل الذي امتطتهُ متيلدة وسار رجالهُ وراءهُ على رغمهم وفي وسطهم ما بقي من الجمال محملة قرب الماء والزاد والخيمة

وانقضت بقية ذلك اليوم بلا حادث يستحق الذكر وكان من رأي الرجال ان يقضوا الليل كلهُ في السرى تخلصاً من حر النهار . لكنَّ الاعياء كان قد بلغ من متيلدة مبلغاً كاد يذهب بحياتها . فلم يرَ الملك العادل بدّاً من الوقوف على رغم تذمر رجالهِ وتبرمهم . وما ابطأ ان نصب الخيمة وانزل متيلدة فيها طالباً اليها ان تلتمس الراحة بالنوم ولو بضع دقائق

وانطرح الرجال على الرمال وما ابطأوا ان استغرقوا في نوم عميق من شدة التعب . وظل الملك العادل وحدهُ ساهراً على حراسة الخيمة لا سمير لهُ في تلك المفازة المقفرة الموحشة سوى القمر والنجوم

ولم تغمض اجفان متيلدة سوى دقائق معدودة حتى افاقت وطلبت الى الملك العادل ان يستأنف المسير فاجاب طلبها في الحال وايقظ رجالهُ وسارت هذه القافلة الصغيرة تجدُّ السير في ما بقي من ساعات الليل

ولما طلع النهار وبزغت اشعة الشمس رأوا عن بعدٍ اعمدة رمالٍ كثيفة منعقدة في الجو وهي مقبلة عليهم تارةً تسرع اسراع الرياح الهوجاء وطوراً تتثاقل وتسير الهوينا . فلم يبقَ عندهم اقل ريبٍ في تعرضهم لريح جنوب تشويهم شيًّا

وحينئذٍ بدت علامات التمرد على رجال الملك العادل وجاهروا بان ما أصابهم هو نتيجة وجود متيلدة معهم وانهم اذا سمحوا ببقائها كانت البادية قبوراً لهم لا محالة . ولكنَّ الملك العادل تمكن ولو في الظاهر من قمع عصيانهم واكرههم على مواظبة المسير حتى انتصف النهار واخذت الشمس تمطرهم بعارض من نار شوى اجسادهم . وحينئذٍ اصابت شظيةٌ من الصوان المحدد رجل الجمل الحامل متيلدة فعطلتها واقعدتهُ عن المسير . فامر الملك العادل في الحال باعداد جمل آخر عوضاً عنهُ . ولكنَّ رجالهُ عدوا هذه الحادثة دليلاً على صدق ما اعتقدوهُ فجاهروا بالامتناع عن اطاعة امر اميرهم واجمعوا على وجوب تضحية من كانت سبباً لتعرضهم

لهذه المخاطر وتقدم اشدهم جسارةً وتمردًا ليقبض على متيلدة فانقضَّ الملك العادل الى جانبها وبسط احدى يديهِ عليها لحمايتها فهاج الجنود هياجًا تعدَّى كل حد وصاحوا بصوت اصدت لهُ جوانب البادية وهجموا على الامير بنفس واحدة ليختطفوا فريستهم من يدهِ

ولم يكن قيام عشرين جنديًا على الملك العادل يحول دون تمكنهِ من البطش بهم لولا وجود متيلدة معهُ. ولذلك عمد على الفور الى الاستعانة عليهم بالحيلة . فنكص بمتيلدة الى الوراء وصوَّب سيفهُ الى صدرها وقال : —

" اذا كان لا بدَّ من تضحية هذه الفتاة فانا الذي يفعل ذلك ولكن بعد ما انتزع نصل حسامي من صدرها اغمدهُ في صدري فاموت واطلب الى الله ونبيهِ ان ينتقما لي منكم ويطالباكم بدمي . ولسوف يطاردكم صلاح الدين الى اقاصي الارض ويأخذ منكم بثار اخيهِ

" اننا نطلب دم هذه الفتاة لا غير . دعنا نبطش بها وافعل بنا بعد ذلك ما تشاء

" ان تقدمتم خطوة واحدة مزجت دمي بدمها وتركت السماء والارض تتعجبان من شدة هول الانتقام الذي يحلُّ على رؤوسكم الاثيمة ! "

فاحجموا عند سماع قولهِ هذا وتنحوا جانبًا يتشاورون في ما يفعلونهُ واخيرًا عزموا على ان يتركوهُ هو ومتيلدة لما يقضي بهِ عليهما القدر ويكونون هم براء من تبعتهِ . فابقوا لهُ الجمل الجريح والخيمة وثلث قرب ماء وقليلاً من الثمار المقددة وانطلقوا

وكانت متيلدة في اثناء هذا المشهد الرهيب في اغماء اشبه بالموت فلم تفق منهُ حتى غابت الشمس ولطَّف نسيم المساء شيئًا من حرّ النهار الخانق ففتحت عينيها وهي في الخيمة التي ضربها الملك العادل فوقها بعد ما هجرهُ رجالهُ . ولما اخبرها بانصرافهم وقصَّ عليها ما جرى لهُ معهم رفعت يديها الى السماء وقالت والدموع ملء عينيها : —

" انظر يا ابي السماوي ! انهُ باذلٌ حياتهُ لاجلي ومع ذلك يمنعوني عن محبتهِ "

" اسمعي يا متيلدة . اننا الآن وحدنا في هذه البادية الواسعة الاطراف كما كان ابوانا الاولان . وربما كان الغد موعد انطلاقنا من هذا العالم . فماذا يمنع انطلاقنا معًا متحدين كاننا شخص واحد ؟ "

" اعلم ايها الملك العادل اني احبك . واعتراني هذا الذي أبديهِ امام الله لم تكن قطُّ لتظفر بسماع كلمة منهُ لولا دنوُّ الاجل وروُّيتي الموت مخيمًا بظلالهِ علينا . اني احبك . ولولا الاختلاف الذي بيني وبينك لفضَّلتُ البقاء معك في هذه البادية على جميع الامجاد التي يحضني بها ملوك الارض . ولو كنت موافقًا لي في معتقدي لربطت نفسي بك بعهودٍ امام الله

وحده . ولكني مع ذلك كله ما تحوّلتُ عن الحرص على واجباتي وشرفي . فقد تكون حياتي قصيرة جدًّا ولكن يجب ان تبقى على طهارتها ونقاوتها . حتى اذا دُعيتُ غدًا لتسليمها وجب عليَّ ان اردّها الى الله بلا عيبٍ ولا دنسٍ كما اعطانيها . قل لي ايها الملك العادل هل تعتقد اعتقادي ؟ "

" لا احاول الحصول على محبتكِ بالغشّ والخداع كما اني لا أُنكر عليكِ ما أجدهُ فيكِ من الفضائل التي اعجب بها كل الاعجاب . ولكنني لا أُقيد نفسي بالخضوع لقوانين معتقد أجهل قواعدهُ وفرائضهُ فاذا امرتني بالغدر بأخي وحمل السلاح ضدّ وطني عصيتها كل العصيان . على اني لا اظنّ ان الدين الذي يجملكِ بهذه الفضائل يفرض عليَّ ارتكاب خيانةٍ كهذهِ ! فاقبليني كما انا فاكون لكِ والله وحدهُ يتولّى رشادي وهدايتي ان كنتُ في حاجةٍ الى ذلك "

فجثت متيلدة على ركبتيها ودعت الملك العادل فخرَّ على ركبتهِ بجانبها ثم اخذت يديهِ بيديها ورفعتها الى السماء وقالت : —

" اسمح لي ايها الاب السماوي ان اتي بهِ اليكَ "

ثم قالت : —

" انهض الآن فقد اصبحتَ اهلاً لما تطلبهُ مني . اني اعدك بانهُ لن يكون لاحدٍ سواك حقٌّ بان يدعوني زوجة لهُ . اقول هذا واقسم بهِ امام الله الذي يملأ وجودهُ المطلق هذه البادية الواسعة ويخيم على فؤادك "

الفصل الحادي والعشرون

الرجوع الى مصر

وعند الفجر نهض الملك العادل يستعدُّ لاستئناف المسير فقدّم الى متيلدة قليلاً من الماء والتمر وقال لها : —

" هذا كل ما استطيع تقديمهُ لك يا حبيبتي في وليمة خطبتنا "

" ان المحبة تجعلهُ افخر وليمةٍ في عينيَّ "

ولما عزما على المسير حاولت متيلدة ان تمشي لكنَّ الملك العادل ثناها عن عزمها هذا مخافة ان تدمي الحصى قدميها فحملها بذراعيهِ ينشطهُ الامل الجديد الذي احياهُ فيهِ المشهد الاخير . فأسندت رأسها الى صدرهِ واغمضت عينيها وكان التعب والحرّ قد أخذا منها كل

مأخذٍ فأخذت تراوح بين الحلم واليقظة . ثم تغلب عليها الضعف تدريجاً فلم تعد تذكر شيئاً مما حولها ولا رأت ريح الجنوب القائمة على قدم الثوران ولا الشمس الصابة على اطراف البادية احمى النيران — هذه كلها مع تباريحها وآلامها وتوبيخ ضميرها ووطنها وآلها — غابت عن ذاكرتها فلم تعد تذكر شيئاً سوى محبتها وذلك الذي تطوقها ذراعاهُ

ولكنها بعد مضي عدة ساعات شعرت باضطرابٍ عابثٍ بخطوات حاملها فأعادها هذا الشعور الى الصحو التامّ وفتحت عينيها فراعها أن رأت علامات الاعياء الشديد على وجههِ وزادها رعباً على رعبٍ حين شاهدتهُ ملطخاً بالدم . فافلتت على رغمهِ من بين ذراعيهِ وصاحت :—

"حبيبي الملك العادل ! مالك ؟ ماذا اصابك ؟" "خلي عنك الجزع . لم يصبني شيء"

وكان العرق البارد مكللاً وجههُ وقد اقعدهُ الاعياء عن الوقوف ولا يزال الدم يقطر من فمهِ من شدة التعب والحرّ ومع هذا كلهِ حاول اخفاء ما بهِ عنها وقال لها :—

"اني الآن احسن كثيراً . فلنستأنف المسير لان جبل الخليل لم يعد بعيداً عنا"

"لا بل دعنا نموت هنا . وليس في موتنا معاً من بأسٍ ! لاننا اذا عشنا فقد يعرض لنا ما يقضي باقتراقنا احدنا عن الآخر وحينئذٍ نأسف اشد الاسف على فوات اليوم الذي وعدنا فيهِ الموت باتحادٍ ابديّ"

فلذّت هذه التأملات للملك العادل . ثم استعان بمتيلدة على النهوض واطلق لنظرهِ عنان الاستشراف فلاحت لهُ قمة جبل على بعد شاسع . فرفع صوتهُ واخذ ينادي باعلى ما يستطيعهُ من اصوات الاستغاثة فلم يكن من سامع ولا من مجيب . فعاد الى متيلدة يتعثر باذيال الخيبة وانطرح على الرمل بجانبها يتوقع الموت الذي لم تكن فيهِ قوة على ردهِ . فادركت متيلدة ما هو عليهِ من شدة اليأس واخذت يدها بيدهِ وقالت :—

"انّ هذه الساعة التي اتمكن فيها من محبتك بلا خوفٍ ولا خطيئة لهي اثمن ساعات حياتي كلها . فليتني اتحقق اننا حتى في العالم الآتي نجتمع معاً ولا نفترق" . "حيثما ذهبت اذهب"

"اذاً الى الابد ؟" . "الى الابد"

وفي هدوء الليل حمل النسيم على جناحيهِ من نحو الشرق صوتاً ضعيفاً اشبه بالهمس فدبّ الرجاء في صدر الملك العادل ونهض يصغي والصوت يزداد قوةً ووضوحاً حتى سمع اقدام جمل ثم صهيل جواد ثم اصواتاً بشرية . فصاح من شدة الفرح :—

"هذه قافلة قادمة ! لقد نجونا !"

وكانت هذه القافلة عبارة عن رجالهِ الذين تركهم في اطلال الدير . فلما ابصروهُ هو

ومتيلدة في حالة النزع من شدة الاعياء والجوع والعطش هبوا باسرع من لمح البصر اليهما واغاثوهما بقليل من الماء والطعام لارواء الظمإ وسد الرمق ثم اركبوهما واسرعوا بهما الى جبل الخليل حيث انزلوهما كهفاً تمكنا فيهِ ان ينالا حاجتهما من النوم الطويل العميق

وفي اليوم التالي استأنف الركب مسيرهم الى القاهرة ولم يعرض لهم في الطريق شيء يستحق الذكر سوى ان متيلدة أخذت تمثل لعينيها الموانع العظيمة التي تعرض لها وتقضي باتصالها عن حبيبها فتذكرت الحرب الحامي وطيسها بين العرب والافرنج وموقف الملك العادل الحرج فيها . فلم ترجُ منهُ الانحياز الى جانب الافرنج ولا ارادت ذلك واذا ظلَّ امينًا لوطنهِ أبى اخوها وملكها الذي لهُ السيادة المطلقة عليها ان يعطيها لاخي صلاح الدين وساعدهِ الايمن

وهذا الاضطراب الذي عبث بافكار متيلدة أخذ ايضاً مأخذاً عظيماً من افكار الملك العادل فتذكر ان الشرف والمحبة الاخوية فرضا عليهِ واجباتٍ عظيمة جدًّا وان حبهُ لمتيلدة عاقهُ عن اتمام هذه الواجبات. كان يجب عليهِ ان يكون منذ وقتٍ طويل بجانب اخيهِ يطرح اكاليل الانتصار عند قدميهِ ولكن الحب انساهُ الواجب والشرف وحملهُ على ترك جيشهِ عندما وجب عليهِ ان يزحف بهِ . ولما دخل القاهرة استقبلهُ الشعب والجيش بالاكرام والاحترام ولكنهم كلهم نظروا الى متيلدة شذرًا واعرضوا عنها بوجوهٍ باسرة لانهم عدوها علة سقوط عكاء وتأخر الملك العادل عن موافاة اخيهِ

الفصل الثاني والعشرون

" اياها طالب "

وفي اليوم التالي وقف ببوابة القصر فارسٌ متقنعٌ ممتطٍ جوادًا اسود فاحمًا وطلب الاجتماع بالملك العادل . فادخلهُ احد الحجاب الى غرفة محاذية لمجلس الامير ودخل يخبرهُ بقدومهِ فامرهُ ان يدخل بهِ عاجلاً . فلما دخل ورجع الحاجب ادراجهُ قال لهُ الملك العادل : —

" اكشف ايها الفارس قناعك . وقل ما تريد مني . فلا اظن ان وجود الاميرة متيلدة يثنيك عن اظهار نفسك وطلب ما جئت لاجلهِ "

فازاح الفارس لثامهُ واسفر عن محيًّا مونمورانسي الجميل الجليل ولما رآهُ الملك العادل ومتيلدة دهشا دهشاً لا مزيد عليهِ وكادا يكذبان اعينهما

وكان على ترس مونمورانسي منطقة البروج وفي مركزها سهم موجهٌ نحو رسم العذراء (برج السنبلة) وحولهُ نقشت عبارة ترجمتها " اياها طالب " فلما وقع نظر الملك العادل على

هذا الشعار ادرك حالاً ان متيلدة هي ضالة مونمورانسي التي ينشدها في القاهرة فقال لهُ

" اي بطل عكاء لا ادري اي طيش اغراك بالمجيء الى حيث يكفي ذكر اسمك لان يقضي عليك بموت عاجلٍ لا قبل لي بانقاذك من مخالبهِ ؟ "

فاجابهُ مونمورانسي بعد ما ادى التحية الواجبة لاميرة انكلترة : —

" اعلم ايها الملك العادل ان احمد المشطوب لما بلغ معسكر الافرنج وانكشف لهُ حقيقة الخدعة التي جازت عليهِ وانهُ قد جاء بالملكة لا بالاميرة غضب غضباً لا يوصف واتهمك بالغدر والخيانة واشاع عنك بان هيامك باميرة انكلترة على شدتهِ كان دون رغبتك في الاستقلال عن صلاح الدين ومحالفة الافرنج ليعينوك على الاستئثار بعرش مصر . وقد ذاع هذا الخبر في معسكر الافرنج وكان الملك رتشرد في مقدمة المصدقين لهُ وتوقع انك تشترط لمحالفتك لنا قبولهُ بان تكون اختهُ زوجة لك. فلم يسرّهُ هذا الامر لانّ لوسيان منذ شاهد الاميرة متيلدة في قبرس شغف بجمالها وبعد وفاة زوجتهِ سيبل التمس من رتشرد ان يسمح لهُ بها . ونظراً لما بينهما من الصداقة المحكمة العرى اقسم لهُ ان متيلدة اذا رفضت نذر الترهب ورضيت ان تتزوج لا تستطيع ان تقترن برجل سواهُ . . . "

فقال الملك العادل حانقاً : —

"ما اسخف هذا الوعد المبني على الطيش والرعونة ! وما اشبههُ بوعدهِ ان يعيدَ اليهِ التاج الذي اضاعهُ ! وان عرش القدس وقلب متيلدة كليهما ليسا تحت سلطة رتشرد ؟ "

فصبغت حمرة الخجل وجنتي متيلدة واستانف مونمورانسي كلامهُ : —

" اما فيليب اغسطس وباقي ملوك الافرنج فخالفوا رتشرد في تحزبهِ للوسيان وقضوا بوجوب اعطاء الاميرة متيلدة لك اذا وعدت بالانضمام الينا . فناقضهم عدة امراء في ذلك وقالوا ان حق الاختيار يجب ان يكون لمتيلدة نفسها . اما انا فلم اكن من رأيهم فقط بل عرضتُ ايضاً ان اخرج بالف من الفرسان الامراء طالباً الاميرة لاسمع من شفتيها ما تختارهُ واسفك آخر قطرة من دمي في سبيل تنفيذ إرادتها

" ما اظنك اقدمت على دخول المدينة بفرسانك "

" دخلتها وحدي . وتركتُ فرساني متوارين في ظاهرها ولا يظهرون الاّ اذا مست حاجة اليهم وابيتَ ان تطلق الاميرة متيلدة "

" لستَ بقادر على اخذ الاميرة اتكالاً على ما لديك من القوة . فان لي في المدينة جيشاً كبيراً يحول دون قصدك هذا "

"ضاعفهم اذا شئت فلا ارهب جانبهم. ولكن اجبني على سؤالي — هل تقبل بما نشترطهُ عليك؟ وانتِ ايها الاميرة هل ترومين الانطلاق؟" فاجابهُ الملك العادل: —

"لا اقبل بشروطكم. ان شرفي اعظم من ان يسمح لي بان اخون اخي واغدر بوطني اما الاميرة فلعلها لم تبقَ حرة لتختار ما يعرضهُ عليها ملوكها وامراؤها"

فاخذت مونمورانسي دهشة عظيمة يعجز القلم عن وصفها. ثم سمع الملك العادل وقع خطى قادم في الغرفة المجاورة فخف لاستقبالهِ ليعترض دخولهُ ويحول دون مشاهدتهِ لمونمورانسي ولما انتهى الى الباب حياهُ ضابط يدعى خالدًا كان من اشد رجالهِ امانةً واخلاصًا واشجع ضابط في جيش صلاح الدين والتمس منهُ على الفور ان يخلو بهِ على انفراد لامر ذي شأن واذ لم يسعهُ انتظار جوابهِ دنا منهُ واسرَّ اليهِ وقال

احذر ايها الملك العادل ولا تضع دقيقة واحدة في سبيل التخلص مما انت فيهِ الآن. فالمدينة كلها في هياج واضطراب. وفي اجتيازي اليك سمعت القوم يهمسون بعضهم الى بعض ان في القصر فارسًا من فرسان الافرنج. وقد تدفعهم شدة الهياج الى الهجوم على القصر. ثم ان هياج الشعب اصغر الاخطار التي تتهددك. فان اخاك قد قضى عليك بالموت: "

فاغلق الملك العادل الباب وادخل خالدًا الى حيث كانت متبلدة ومونمورانسي وقال لهُ:

اعد يا صديقي حديثك بلا خوف امام اميرة انكلترة وهذا الامير المخلص الشجاع "

فحسر مونمورانسي لثامهُ وقال: — لا خوف عليَّ ممن يدعوهُ الملك العادل صديقهُ "

فتأثر الملك العادل من شدة ثقتهِ بهِ واكد لهُ انها لم توضع في غير موضعها ثم طلب الى خالد ان يطلعهُ على سبب قضاء صلاح الدين عليهِ بالموت فاجابهُ: —

"كيف تسألني عن السبب وانت عالمٌ بهِ؟ اما أعدتَ ملكة انكلترة الى زوجها؟ اما ابقيت اختهُ عندك؟ وهذا العصيان المزدوج ارتكبتَ اثمهُ في شر الاوقات — حين كان عفو صلاح الدين عن ذنبك في سقوط عكاء باقيًا حديث الالسنة والشفاه!"

"الم تبلغهُ رسائلي التي اوضحت لهُ فيها ما سألتني عنهُ الآن؟"

"لا اعلم. ولكني علمتُ ان ابنة اموري (اغنس) ذهبت اليهِ واكدت لهُ خيانتك فابى ان يصدقها وظلَّ واثقًا بامانتك حتى جاءهُ المشطوب معفر الوجه ممزق الثياب وشكا اليهِ انك خدعتهُ وخنت سلطانك. فاقشعرت ابدان الحاضرين من شدة هول هذه التهمة الفظيعة ولا تسل عن غيظ صلاح الدين فانهُ كان مما يفوق وصفهُ ويتعذر التعبير عنهُ. ثم قصَّ عليهِ المشطوب تفصيل خيانتك مبتدئًا من ذكر ازدرائك باوامرهِ اذ ارسلت الملكة وابقيت

الاميرة، وانطلقت بها الى القاهرة لتجعلها ملكة مصر مستعيناً بالافرنج على تأييدك في مملكتك الجديدة. وحينئذٍ عقد صلاح الدين مجلس شورى وطلب من اعضائهِ الحكم عليك بما يستحقهُ عصيانك. ولما احجموا عن النطق بالحكم وعلم انك لا تهاب الموت لو حكم بهِ عليك أهاب بالمشطوب وامرهُ ان يركب في اثني عشر الفاً من العساكر الى القاهرة ويقبض عليك باية وسيلة كانت ويقودك مكبلاً بالسلاسل الى ساحة المدينة وقبلما يذيقك الموت الاليم يسلم اميرة انكلترة امام عينيك لا يدي الطغام الرعاع ليفعلوا بها ما يحسن في عيونهم ! ولما سمعتُ قضاء السلطان الرهيب نسيت اثمك ولم اعد اهتم بسوى نجاتك فخرجت من المجلس وامتطيت فرسي التي تسابق الرياح فبلغت جبل الطور في يومين ومن قمتهِ شاهدت جيش المشطوب يجدُّ المسير فضاعفت سرعة عدوي حتى بلغت القاهرة الآن ولكني لا اضمن تأخر المشطوب عن الوصول الى ما بعد شروق شمس الغد "

فاخذ الملك العادل يضرب اخماساً لا سداس توصلاً الى طريقة ينقذ بها متيلدة من الخطر المحدق بها من غير ان يضطر الى ابعادها عنهُ. فلم يرَ في الحالة الحاضرة منفذاً لما اراد ولا مخرجاً مما احاط بها من الضيق الخانق بسوى تسليمها الى مونمورانسي. فاخذها بيدها وقادها اليهِ وقال لهُ : — "خذها يا مونمورانسي الى معسكر الافرنج. واني لاخلاصك وشجاعتك وشرفك مستودع خطيبة الملك العادل

فصعق مونمورانسي بهذا البلاغ الغريب لان مخاوفهُ التي أوجسها من جهة متيلدة لم تبلغ هذا الحد. وهمَّ بالاعتراض والاستيضاح. فسبقتهُ متيلدة الى التصريح بما اغناهُ عن ذلك واخبرتهُ بما عاهدت الملك العادل عليهِ في البادية

وحينئذٍ خرج الملك العادل ينظر في إعداد ما يلزم لانطلاقها

الفصل الثالث والعشرون

سفر متيلدة الى عكاء

فجمع كل النصارى الذين في القاهرة وامر بتوزيع الاسلحة عليهم واوعز اليهم ان يخرجوا افراداً الى ظاهر المدينة قرب المطرية حيث يوافيهم باميرة انكلترة واميراً آخر لم يبح لهم باسمهِ

ثم عاد الى متيلدة وقال لها : —

" كل شيء معد. ان نساءك ومحفتك في انتظارك وستنطلقين من احد ابواب القصر السرية محفوبة بخالد "

" اني مفارقهُ لك فراقاً قد يكون ابدياً . افلا تخبرني بالخطر الذي يتهددك والوسائل التي عزمتَ على اتخاذها لصرف غضب صلاح الدين عنك ؟ "

" لا اعلم . ولست مبالياً الآن بغير الاهتمام بسلامتكِ ونجاتكِ من الخطر . فلا تسأليني شيئاً واقصري يا حبيبتي حتى عن الكلام معي . واذهبي حرصاً على حياتك الثمينة — اذهبي قبلما يخونني جلدي واعدل عن التسليم بسفرك . تعال يا مونمورانسي . انك في اشد خطر فلا يصح ان اتركك وحدك . اتبعني لنوافي الاميرة في آخر القناة قرب سفح جبل المقطم "

ولما خرجا وجدا عند بوابة القصر جمهوراً غفيراً يروم اعتراض مسيرهما . وكان مونمورانسي قد سدل قناعهُ على وجههِ بخلاف الملك العادل فانهُ سار حاسر اللثام واشار الى الجمع بالتنحي فاطاعوهُ مأخوذين بهيبة جلالهِ واخلوا لهُ الطريق فانطلق هو ورفيقهُ آمنين

وكان الملك العادل ينظر الى مونمورانسي في اثناء مسيرهما من طرفٍ خفي فرأى رباطة جأشهِ نقية لا يشوبها شيءٌ من الخوف . فاعجب بشجاعتهِ اشد الاعجاب واطلعهُ على ذلك بعدما اجتازا الجموع وقال لهُ : —

" اعترف لك باني لو رأيت للخوف اقل اثر عليك — بل لو ان يدك التي قبضتها ضغطت يدي اقل ضغط يصورهُ القلق والاضطراب عند اجتيازنا في وسط ذلك الجمهور الحانق الغاضب لما عددتك اهلاً لحفظ الوديعة التي ائتمنتك عليها ولا توقعت لمتيلدة اماناً معك لان الرجل الضعيف في حضرة الموت يكون اضعف في مقاومة عواطفهِ واميالهِ "

فاجابهُ بلهجة الترفع والاباء : —

" مهما يكن من عواطفي واميالي فثق بانك — بعدما استودعتني سر العلاقة التي بينك وبين اميرة انكلترة — قد اقمتَ بيني وبينها حاجزاً حصيناً لن تجسر آمالي على محاولة تعديهِ واذا كان سوء الحظ قد قضى عليَّ بان ادفن حبي العقيم في اعماق صدري فاعلم اني سأعنى عناية لامزيد عليها بشدة كتمانهِ حتى يتعذر على متيلدة اختراق استارهِ والوقوف على آثارهِ "

وبعد قليل جاء خالد بالاميرة متيلدة ونسائها فساروا كلهم الى ظاهر المطرية حيث كان النصارى ينتظرونهم فعرفهم الملك العادل بمونمورانسي فرحبوا بهِ واكرموا استقبالهُ وولوهُ قيادتهم

ولم يبعدوا قليلاً حتى وصلوا حيث كان الفرسان الامراء ينتظرون مونمورانسي فخفوا الى استقبال اميرة انكلترة واحاطوا بمحفتها وحيوها تحية التجلة والتعظيم ثم ادوا التحية نفسها للملك العادل بعدما عرفهم بهِ قائدهم مونمورانسي

وبعدما استدل مونمورانسي من خالد على الطريق التي يجب ان يسيروا فيها ليجتنبوا ملاقاة المشطوب وجيشهِ اشارت متيلدة بالمسير والحزن يقيمها ويقعدها ورجع الملك العادل وخالد الى القاهرة وفي فؤادهِ نار جوى احرُّ نار الجحيم ابردها

الفصل الرابع والعشرون

خيبة المشطوب

ولما دخل الملك العادل المدينة امر بجمع جيشهِ المتفرق فاطاعوا الامر باسرع من لمح البصر وفي ساعات معدودة أُقيمت الحصون والمتاريس والخنادق حول المدينة احتياطاً لصد هجمات المشطوب اذا حدثتهُ نفسهُ بذلك بعد وصولهِ الى ضواحيها

وفي اليوم التالي اعلن الحراس القائمون في ابراج القاهرة للاستطلاع والاستكشاف انهم رأوا على بعد جيشاً كبيراً يزحف على المدينة فجمع الملك العادل الجنود والاهالي في الساحة الكبرى وقال لهم: — "لقد اوغر صدر صلاح الدين عليَّ ووشى بي اليهِ فعدني خائناً وارسل المشطوب لقتلي فهل تسلمون بذلك ؟"

فصاحوا جميعهم صيحة استنكار دوت لها جوانب القاهرة واقسموا بصوت واحد انهم يفدونهُ بنفوسهم ولا يسلمونهُ الى المشطوب الاَّ بعدما تسفك دماؤهم في سبيل الدفاع عنهُ حتى تأثر الملك العادل من شدة محبتهم لهُ وقوة سلطتهِ على قلوبهم

فانفذ على الفور رسلاً الى المشطوب يدعوهُ اليهِ للنظر في ما هو آتٍ لاجلهِ بطريقة سلمية اجتنابًا للعداء وحقنًا للدماء . فلبى المشطوب الدعوة ودخل القاهرة محجوباً ببعض اعوانهِ وزار الملك العادل في قصرهِ . وبعد ما حيَّا وجلس قال لهُ الامير : —

"بلغني ما انت قادم لإنفاذه من قبل صلاح الدين فاعلم انك لست بقادر على تنفيذ واحد من الامرين . لان الاميرة متيلدة اصبحت على مقربة من معسكر اخيها ورأسي الذي تروم قطعهُ بيد رجالي الذين بكلمة من فمي يكتسحونك انت وجيشك من عالم الوجود قبل مغيب الشمس . فنصيحتي لك ان ترجع الى اخي وتخبرهُ بما رأيت وسمعت . وقل لهُ اني عالم بان الافرنج عازمون على مهاجمة قيصرية . فليوافني اليها وهناك يرى هل اصاب ظنهُ في ما اتهمني بهِ وهل استحق العار الذي قضى بهِ عليَّ ؟"

"لا انكر ان قيصرية لا تسقط اذا نصرتها ولكني لا استطيع الرجوع الى اخيك ما لم آخذك اسيراً"

" تأخذني انا اسيرًا ! وبكلمة واحد تفعل ما عجزت عنهُ جيوش الافرنج كلها ! ان شرف اسر الملك العادل اكبر جدًّا مما يستحقهُ رجل نظيرك ! واليد التي تقيد يديَّ بالسلاسل لم تخلق بعد. واذا لم يرضك ما قلتهُ لك فارجع حالاً الى معسكرك واستعد للقتال وسترى قبل مغيب الشمس من منا يكون اسير الآخر

فنهض المشطوب وأعلن استعدادهُ للقتال ومضى

وبعد مضيهِ اسرع الملك العادل الى رجالهِ ودربهم على الاحاطة بالعدو في الدقيقة المعينة. وما كاد جنود المشطوب يتحركون حتى رأوا انفسهم محاطين من كل جانب بجيش الملك العادل وباسرع من وميض البرق نشب اخو صلاح الدين في وسطهم شاهرًا حسامهُ وحاسرًا لثامهُ. وناداهم بصوت طالما اطربهم سماعهُ في ساحات الوغى وبث فيهم روح البسالة والاقدام في حومة الصدام وقال : —

" اعلموا يا رفقائي في الكفاح والجلاد واخوتي في المذهب والاعتقاد انهم يطلبون منكم قتلي فهل تجيبون هذا الطلب وترضون ان يورد الملك العادل موارد العطب ؟

فلما سمعوا صوتهُ الذي طالما حنوا الى ترديد صداهُ وشاهدوا جمال طلعتهِ وجلال محياه عبث التشويش بصفوفهم ولم تنجح للمشطوب حيلة في اصلاح اختلالهم وحفظ نظامهم لانهم لم يعودوا يطيعون لهُ امرًا ولا يسمعون كلمة بل بعضهم القوا اسلحتهم الى الارض والبعض فروا هاربين ومعظمهم انحازوا الى صفوف قائدهم القديم. ولما رأى المشطوب انهُ بقي وحدهُ قائدًا بلا جيش دعا اليهِ بعض ضباطهِ الذين اخذتهم شفقة عليهِ وسار بهم راجعًا من حيث اتى

وبعدما اراح الملك العادل رجالهُ يومًا واحدًا خرج بهم قاصدًا قيصريَّة ليدفع عنها غارات الافرنج. ولما وصلها بعد سفر طويل شرع في الحال يتفقد حصونها واسوارها وامر ببناء ما كانت في احتياج اليهِ من معدات الدفاع

ثم اهاب بخالد صديقهِ الحميم وطلب اليهِ ان يذهب حالاً الى معسكر الافرنج ويتجسس انباء متيلدة وينظر هل وصلت بسلام. فلبى اشارتهُ على الفور ووعدهُ ان يقوم بهذه المهمة حق القيام

وفيما كان المشطوب راجعًا الى صلاح الدين لقي اغنس في مقدمة فرقة من العرب قادمة لاعانتهِ على الملك العادل. فابلغها ما حل بهِ وقال لها ان متيلدة برحت القاهرة الى عكاء فلعلها تدركها على الطريق قبل وصولها اليها . فلبت اشارتهُ على الفور وسارت وراءها واستأنف المشطوب مسيرهُ الى صلاح الدين واخبرهُ بما حصل فقام يستعدُّ للزحف على قيصرية ليوقع باخيهِ اشد العقاب

الفصل الخامس والعشرون

في سبيل انقاذها

عرض لأميرة انكلترة منذ مال قلبها الى الملك العادل صُوَر مختلفة من مشاهد الحب وتقلبت عليها في دمياط والقاهرة والبادية اطوارٌ متعدّدة واحوالٌ متنوعة علمتها ان للمحبين طرقاً كثيرة يشرحون بها غرامهم فينطقون بلا لسان و يبلغون القلوب شكواهم من غير حاجة الى آذان . لذلك لم يخف عليها ما كان في فؤاد مونمورانسي مع شدة حرصهِ على كتمانهِ واعجبها جدًّا انهُ تغلب على عواطفهِ وكبح جماح امياله فلم تتعدَّ حدود التأدب والاحترام . وسار بجانب محفتها ساكتاً لا يتكلم الاَّ اذا كلمتهُ . واذا سألتهُ عن شيءٍ أجابها بما لا مزيد عليهِ من الاختصار

وما اجتاز الركب عسقلان والرملة حتى رأوا على بعد فصيلة كبيرة من جنود العرب مقبلة وكأنها استقلت عدد الحامية السائرة في حراسة اميرة انكلترة فشنت الغارة عليها

وتوقف مونمورانسي هنيهة يفكر في ما يجب عليهِ لانهُ لم يتعوَّد قطُّ غير الهجوم في جميع المعارك التي خاض غمارها . اما الآن فوجود الاميرة التي اؤتمن على حراستها وحمايتها قضى عليهِ ان يلزم خطة الدفاع مكرهاً لا مختاراً وحذا بقية الامراء حذوهُ واصطفُّوا حول محفتها

ورأى العرب ذلك فتعجبوا لانهُ كان على خلاف ما عهدوهُ من فرسان الافرنج فطمعوا بهم وعدُّوا وقوفهم موقف الدفاع دليل خوفهم وضعفهم فزادوا جرأة واقداماً واشتد عزمهم على مهاجمتهم . لكنهم بالجهد تمكنوا من الدنو اليهم حتى فتك حسام مونمورانسي بطليعتهم فتكاً ذريعاً وفرقها شذر مذر . ولما علموا ان خصمهم بطل عكاء تذكروا كيف كان ينقض على اسوارها انقضاض الصواعق وهو يفلُّ الصفوف ويورد الالوف موارد الحتوف فنكصوا على اعقابهم واركنوا الى الفرار ما عدا فارساً ظلَّ واقفاً لا يبدي هجوماً ولا يحاول عن نفسهِ دفاعاً وهو يرمق المحفة التي فيها الاميرة بعين الغيظ والحنق . ثم دنا منها و بامرع من لمح البصر سدَّد مزراقهُ نحوها ورماهُ فاخترق استارها واصاب طرفهُ ذراع متيلدة فجرحها جرحاً خفيفاً . فخف مونمورانسي اليها ورأى اطراف ثوبها ملطخة بالدماء وكان الفارس قد لوى عنان جوادهِ وبذل المهماز في شاكلتهِ فعدا بهِ يسابق البرق

فاعترى مونمورانسي غيظٌ شديدٌ أخرجهُ عن رشدهِ وصوابهِ وأغراهُ بمطاردة ذلك الفارس غير حاسب للامور حساباً . اما الفارس فظلَّ يجذبهُ وراءهُ وهو يروغ في النكوص

قدامهُ حتى صار على مقربةٍ من رفقائهِ الذين سبقوهُ الى الفرار . واذ ذاك ادركهُ مونمورانسي وابتدرهُ بضربةٍ القتهُ الى الارض وما أبطأ ان ترجَّل عن جوادهِ واستلَّ سيفهُ ليوردهُ حتفهُ فصاح بهِ الفارس : —

" اطعن يامونمورانسي اطعن واغمد حسامك في صدر امرأة بلا معين ولا نصير ! "

فازاح مونمورانسي اللثام عن محيا عدوهِ واذا بهِ اغنس نفسها . فشقَّ عليهِ ذلك وأبى ان يفارقها قبلما يعينها على النهوض مع انهُ رأى فرسان العرب يقتربون اليهِ و يستعدُّون لاعادة الكرة عليهِ . وما استوت اغنس على قدميها حتى اخذت رمحها وترسها وحملت عليهِ . اما هو فاقتصر على ردّ حملاتها من غير ان يتعمد الايقاع بها . واذ ذاك كان فرسان العرب قد لموا شعثهم وجمعوا اطرافهم ودنوا منهما فصاحت بهم اغنس : —

" النجدة يارجال صلاح الدين على عدوكم مونمورانسي ! "

ولما احاطوا بهِ من كل جانبٍ تركتهم اغنس وعدت الى الجهة التي كانت فيها متيلدة . فادرك مونمورانسي مرادها واخترق بقوة حسامهِ منفذاً بين الصفوف المحدقة بهِ وجرى وراء اغنس فادركها فحملت عليهِ حملة صادقة . لكنهُ مع تحققهِ ان فتكهُ بها يمكنهُ من الانضمام الى رفاقهِ قبل وصول فرسان العرب اليهِ فضَّل الموت على حياة يشوبها عار البطش بامرأة . فظلَّ يتقي ضربها على شدتهِ وعنفهِ مترفعاً عن الحمل عليها حتى انضمَّ اليها رفقاؤها واخذوا يهاجمونهُ من كل جانبٍ وهو يجول بينهم و يصول وقد قطع الامل من النجاة لكنهُ ارتاح الى بذل حياتهِ في سبيل من وعد بسفك آخر قطرةٍ من دمهِ في الدفاع عنها . وأعجبت اغنس ورجالها ببسالتهِ التي لم يروا لها شبيهاً وكادوا يعدلون عن الحمل عليهِ ابقاء على حياتهِ الشريفة لو لم يروا في الهرب من امامهِ عاراً لا يستطيعون احتمالهُ

ولما استبطأ الفرسان الامراء رجوع قائدهم تفرَّقوا يفتشون عنهُ حتى اتوا حيث وجدوهُ جاثياً على ركبتهِ يردُّ هجمات الحاملين عليهِ بقطعةٍ من سيفهِ وقد أُثخن بالجراح وامتزج دمهُ بدماء الذين اردامم واقام جثثهم حولهُ متراساً . فاندفعوا بنفسٍ واحدةٍ لانقاذهِ ولم يرَ رجال العرب مندوحة عن الفرار فاركنوا اليهِ واغنس في طليعتهم

وكانت قوى مونمورانسي قد انحلت من شدَّة آلام الجراح ونزف الدماء فحملوهُ الى حيث كانت بقيتهم تحرس محفة الاميرة ونزعوا عنهُ عدة الحرب فشاهدوا بملء الرعب والاسف قطعة رمح ناشبة في صدرهِ . ولما فحص جرَّاحهُ جروحهُ كلها قال انهُ يرجو شفاءهُ اذا تمكَّن من نزع قطعة الرمح من صدرهِ ولما حاول ذلك انشأ في مونمورانسي المآ اعاد اليهِ رشادهُ ففتح

عينيهِ ونظر نظرة بحث وتفتيش عمن لم تفه شفتاهُ بذكر اسمها وفاء بوعدهِ لخطيبها . فدنت منهُ ووجهها غارق بالدموع ووضعت يدها على يدهِ فاخذها وادناها من شفتيهِ وقبلها قبلة احترام لا ينكرها عليهِ الملك العادل نفسهُ . فقالت لهُ متيلدة : —

" ان اخي وجميع ملوك الافرنج سيلومونني اشدَّ اللوم على تضحية حياتك الشريفة ! "

" لا بل سيفرحون . واني لاستحلي موتاً تقودني يدكِ الى بابهِ . قولي للملك العادل اني ساطلب هدايتهُ امام عرش الرحمة الالهية حيث اقف عما قليل لانَّ سعادتكما آخر شيء اتمناهُ على الارض . وارجو ان مبادئ الشرف والاحترام التي عشتُ عليها تبقيني حيًّا في قلوب مواطنيَّ وفي قلبكِ ايتها الاميرة ؟ "

" الى الابد ! "

" اذاً اموتُ سعيداً "

ثم استحلف رفقاءهُ الامراء ان يأخذوا جثتهُ معهم ويدفنوها على ربوةٍ امام عكاء وقال لجراحهِ ان يحاول نزع قطعة الرمح من صدرهِ فأحجم من شدَّة إشفاقهِ فمدَّ مونمورانسي يدهُ اليها وانتزعها وأسلم الروح

وبعدما وفَّاهُ الامراء حقهُ من الندب والرثاء أعدُّوا لهُ نعشاً وضعوهُ عليهِ وغطوهُ بالرايات والاسلحة التي غنمها في ساحات النزال وساروا قاصدين عكاء

وقبلما دخلوها تقدَّمهم احد الامراء وقصَّ على الملوك خبر وفاة مونمورانسي فخرجوا كلهم لاستقبال متيلدة وجثة فاديها وكاد حزنهم على موتهِ يساوي سرورهم بسلامتها ان لم يزد عليهِ وبعدما صلوا عليهِ وابَّنهُ رئيس اساقفة صور تأبيناً كأنهُ لاعظم الملوك والامراء دفنوهُ في المكان الذي عيَّنهُ قبل وفاتهِ

الفصل السادس والعشرون

هواجس لوسيان

ولما خلت الملكة بمتيلدة سألتها ان تطلعها على ما جرى في غيابها بين الملك العادل وبينها فقالت لها : —

" لم يكفَّ الملك العادل منذ برحت دمياط عن اقامة الادلة الصادقة على شدة تعلقهِ بي فلم يعد في وسعي الاستمرار على التصلب وعدم التأثر . على انهُ يجب عليَّ ان استشير رئيس الاساقفة في امري قبلما اطلعكِ على حقيقة ما اشعر بهِ من جهة الملك العادل "

وما لبثت متيلدة بعد رجوعها الى المعسكر أن صارت قبلة انظار جميع مَن فيهِ من الملوك والامراء ولا سيما ملك القدس فكانوا يتسابقون الى اكتساب رضاها ونيل نعمة في عينيها . اما هي فلم تبدِ لاحدهم اقل ميلٍ يشعر بالايثار والتفضيل بل عاملتهم كلهم معاملة واحدة ولكنها كانت ترتاح الى سماع حديث اميرٍ جليل القدر متقدم في العمر وهو الكونت هوغ امير طبريَّة

هذا الامير اقام عدة سنين اسيرًا بالاسم في بلاط صلاح الدين فعرف الملك العادل معرفة تامة وأعجب كل الإعجاب بشجاعتهِ ومروءتهِ وشرف نفسهِ وعلى يدهِ أُطلق سراحهُ واعيد الى اسرتهِ وقد استرجع كل ما كان لهُ من الاموال والمقتنيات . فكان حديث هذا الامير الشيخ اطراء شمائل الملك العادل والثناء عليهِ وكانت متيلدة تصغي الى هذا الحديث المشتهى اصغاء الجليس الى الوتر

وكان رجال العرب في اثناء الهدنة كثيرًا ما يدنون من معسكر الافرنج ويشتركون معهم في العابهم العسكرية على اختلاف انواعها وازداد الفريقان في الاختلاط والتمازج والتآلف حتى صار عساكر الافرنج يرقصون على نغمات موسيقى العرب ورجال العرب ينشدون اغاني الافرنج

وفي ذات يوم دخل ساحة الالعاب في معسكر الافرنج فارس عربيٌّ ممتطٍ جوادًا كريمًا وطلب ان يكون من جملة اللاعبين وقال انهُ مستعدٌّ لمطاعنة فارسين من فرسان الافرنج بشرط ان تكون جائزة الغلبة السماح بان يحيي اميرة انكلترة ويذهب من غير ان يميط لثامهُ

فقبلوا شرطهُ وطلبوا الى متيلدة ان تختار فارسين وعلى الفور حدثتها نفسها بوجوب اختيار من يكونان اقلَّ الفرسان دربةً واختيارًا فدعت اميرَي الجليل ويافا فبرزا للفارس العربي وبعد جولات معدودة انتصر عليهما وسار على ظهر جوادهِ الى جهة الرواق الذي اقامت فيهِ متيلدة . وكان لوسيان واقفًا بجانبها فحسد الاعرابي على هذا الظفر وطلب ان يبارزهُ فاعترضتهُ متيلدة وقالت : —

" ان شروط الكفاح تمت والشرف لا يسمح بمخالفتها "

وحينئذٍ ترجل الفارس عن جوادهِ وصعد الى حيث كانت الاميرة فانحنى امامها وقبَّل طرف ثوبها ثم نهض واسرَّ اليها : —

" هزم الملك العادل جيش صلاح الدين في القاهرة وهو الآن في قيصرية . وقد ارسلني اليكِ ليطمئنَّ قلبهُ بالوقوف على انباء سلامتكِ . اني انا خالد "

فغشي محيًا متيلدة حمرة خجل لم تخفَ على جميع العيون التي كانت ناظرة اليها . فضغطت الملكة يدها وزاد رئيس اساقفة صور اضطرابها بان رمقها بعين التفحص . وبعد انطلاق خالد سألها اخوها : —

" هل تعرفين هذا الفارس ؟ "

" لكنَّ شروط الكفاح لا تبيح لي اعلانهُ ولو كنت اعرفهُ "

" يحقُّ لي كاخيكِ وملككِ ان اطلب ذلك منكِ "

فقال فيليب اغسطس : —

" لكنك كاشرف امير على الارض تأبى فعل ذلك . وماذا يضرُّ سيدة ذات جمال منقطع النظير ان يتسابق الرجال الى اكرامها من كل صوب ؟ "

واذ ذاك اعلنت الملكة رغبتها في الانصراف فنهضت وتبعتها متيلدة على الاثر . واستأذن لوسيان ملك القدس في ان يصحب الاميرتين الى محفتيهما فقال لمتيلدة لما دنا منها : —

" ان حسدي لهذا الفارس على انتصارهِ اقلُّ مما على الارتياح الذي ابديتهِ اليهِ "

ان اخي نفسهُ لم يتهمني بابداء ارتياح الى هذا الفارس . واذا كانت نفسك تحدثك بنزالهِ فليس لي حقٌّ ان احول دون ذلك "

" سأنازلهُ واغلبهُ ولو كان الملك العادل نفسهُ "

فنظرت اليهِ متيلدة بعين الشك والارتياب في إمكان ما يعلل نفسهُ بهِ وادرك لوسيان ذلك فقال لها : —

" اتظنين انهُ لا يمكن التغلب عليهِ ؟ "

" يظهر لي ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يراهُ الافرنج في الملك العادل "

واذ ذاك بلغت محفتها فحنت رأسها للوسيان اشارة الوداع ودخلت المحفة من غير ان تمكنهُ من الجواب

ورجع لوسيان ادراجهُ مغتاظًا من الاسلوب الذي اشارت بهِ متيلدة الى الملك العادل ورأى ان موت مونمورانسي لم يرحهُ من عناء اكبر مناظر لهُ . وكان الحبُّ والطمع بالشهرة قد اغرياهُ بالسعي في الحصول على شقيقة ملك انكلترة ولم يَرَ من رتشرد الأكل ما زادهُ اقتناعًا بامكان نجاح مساعيهِ . ولكنَّ خوفهُ من مناظرة الملك العادل لهُ كدَّر صفاءهُ وأضعف رجاءهُ ثم تذكر ان متيلدة قضت وقتًا طويلاً في الاسر عند الملك العادل وليس بعيدًا انها تكون قد مالت اليهِ واذا نجحت في حملهِ على اعتناق مذهبها لم يبقَ لرتشرد باب لعدم قبولهِ

زوجاً لشقيقتهِ لانَّ محالفتهُ تفيد الافرنج فائدة لا تقدر

وعند تصوُّرهِ امكان حصول هذا الامر اشتدَّ اضطرابهُ وازداد قلقاً على قلقٍ وعزم على مقاومة كل سعي في هذا السبيل

وكان اول شيء فعلهُ على الفور انهُ خلا برتشرد وبعد ما افرغ جهدهُ في تملقهِ واستعطافهِ عرَّض امامهُ بذكر متيلدة ورغبتهِ في خطبتها فوعدهُ رتشرد انهُ سوف يجعل هذه الخطبة ختماً لما بينهما من الصداقة وقال لهُ في الختام : —

" اذا كان قلب شقيقتي باقياً فارغاً شغلتهُ بك كما أُريد والاَّ فسترى ماذا افعل ! "

الفصل السابع والعشرون

الاعتراف

ثم ذهب الملك رتشرد الى مخدع شقيقتهِ فوجدها جالسة مع الملكة ورئيس اساقفة صور وبعد ما حياهم وتمكن من الجلوس قال لها : —

" اراكِ يا متيلدة لا تزالين لابسة ثياب الحداد على مونمورانسي الشريف المأسوف عليهِ ولا بدَّ من القول ان استمرار هذا الحداد يفسح مجالاً للظن بانكِ تقومين بهِ لداعٍ اعظم من الأسف على فقد منقذكِ "

" اذاً سأخلعها مذالان واعود الى ثوب الترهُّب "

" لكني رأيتكِ في الايام الاخيرة اقلَّ اهتماماً بالامور الدينيَّة فقلتُ لعلكِ عزمتِ على العدول عن اتمام نذوركِ . ولا اقول هذا لقلة احترامي لما كنتِ مصممةً ان تقفي نفسك عليهِ بل لاني ارى انكِ ولدت لأن تكوني ملكة لا راهبة . ولديك كثيرون من الامراء الذين يتمنون شرف الحصول عليك وافضلهم ملك بيت المقدس . لكني لا اراكِ تجدين في صفاتهِ الشخصية ولا في صداقتهِ لي ما يحملكِ على الاحتفال بهِ فانت غير مكترثةٍ لهُ ولا لغيرهِ وقد بلغني من رئيس الاساقفة والملكة انكِ كنتِ كذلك في دمياط فلم تبالي بالملك العادل على رغم ما امتاز بهِ من الفضائل الرائعة . فهل باقٍ قلبكِ فارغاً من هذه العواطف؟ وهل في عزمكِ ان تبقي الى الابد غير دائنةٍ لسلطة الحب البشري ؟ "

" لا اعلم ماذا يخبأهُ لي القدر في كنانتهِ ولكن اذا خطر الزواج ببالي فما من قوةٍ على الارض تكرهني على العدول عمن اختارهُ وارضاهُ "

" قولي لي اليس بين الامراء الذين حولكِ مَن تحدثك نفسك برفض نذوركِ لاجلهِ ؟ "

" ولا واحدٌ "

" اذًا انتِ عازمة على اتمام نذوركِ ؟ "

فلم تجبهُ على هذا السؤال الصريح بسوى السكوت وذرف الدموع فقال لها : —

" لا بدَّ من شاغلٍ سريٍّ عابثٍ بافكاركِ وسأنوط استجلاءهُ برئيس الاساقفة فهو يطلع عليهِ باعترافكِ لهُ ويخبرني بهِ "

ثم خرج الملك والملكة وبقيت متيلدة ورئيس الاساقفة . فدنت منهُ على قدم الوجل والاضطراب وجثت على ركبتيها قدامهُ وقالت بين ذرف العبرات وتصعيد الزفرات : —

" اسمع يا ابي اعترافي . واطلع على سرّي المحزن . واعلم انَّ عهدًا — رباطًا سريًا — يربطني بالملك العادل ! "

" بالملك العادل مع ما بينك وبينهُ من الاختلاف في المعتقد والعادات ؟ "

" لا يخفى عليك انهُ كان منقذي الوحيد من مخالب الموت في البادية وقد آثر ان يضحّي حياتهُ في سبيلي على ان يتركني اموت وحدي . فبينما كان ظلُّ الموت مخيمًا علينا — وامام الله الذي ظننا انهُ يدعونا عما قليل لنعطي حسابًا عما فعلناهُ — أحببتُ ووعدت ولكنهُ هو ايضًا ارتضى ان يكون مثلي ولا يخالفني في شيءٍ "

" اللهمَّ لك الحمد والشكر ! — افتحي يا ابنتي قلبك لله بلا خجلٍ ولا استحياء واشكري لهُ رفقهُ بك وانقاذهُ حياتكِ . وأعيدي على مسمعي ذكر هذه الحوادث العجيبة . وكيف قبل الملك العادل ان يجاريكِ "

" قبل ذلك عند ما رأى نفسهُ مشرفًا على الموت "

" وهل عدل عن عزمهِ هذا بعد ما نجا من مخالب الموت ؟ "

" لم يكن من السهل اقناعهُ الى النهاية على يد فتاةٍ ضعيفةٍ مثلي . ولا يظنُّ — كما لا اظنُّ انا ايضًا — ان معتقدي يوجب عليهِ ان يخون بلادهُ ويغدر باخيهِ . "

" اذا تمكنتُ من اقناعهِ بما أُريد لم يبق لي حاجةٌ في هذه الدنيا سوى ان اباركما اقترانكما واموت "

" واذا صار الملك العادل كما انا فهل تأذن لي يا أبي ان أحبهُ ؟ "

" نعم بلا ريب وسأبذل السلطة الممنوحة لي في الحصول على رضى اخيكِ "

" وأيُّ حاجة تبقى حينئذٍ للحصول على رضى اخي ؟ "

" لانهُ وعد غير الملك العادل بك . . . . "

" ليس لاحدٍ غيري حق التسلط على قلبي . وحياتي انما تكرّس لله او تعطى للملك العادل . واذا أبى الله عليَّ هذه المحبة اطعتهُ لانهُ هو وحدهُ قادرٌ ان يفصلني عمن انا مديونة لهُ بحياتي "

" اخاف ان اصرارك على ما يخالف رضى اخيك يكلفك عناء شديداً اذا حاول الملك العادل عدم مجاراتك في ما ترومين . على انك اذا كنتِ واثقةً بصحة موافقتهِ لك من هذا القبيل فلا تخافي لاني سابذل جهدي في تذليل الصعاب والتغلب على جميع الموانع التي تعترض نجاح مسعاكِ "

" لما فارقتهُ في القاهرة كان اخوهُ صلاح الدين قد أُرسل يشوعدهُ فلم يخفل بوعيدهِ وقد بلغني انهُ استظهر على مندوب اخيهِ وهو الآن في قيصرية . "

" اذاً يجب عليَّ ان اسرع في اطلاع ملوكنا على هذا النبإ المهم . فقد طالما استفاد العرب من انشقاقنا وانقسامنا فيحقُّ لنا الآن ان نستفيد من انقسامهم "

" وهل انت عازمٌ ايضاً ان تطلع اخي على سرّي ؟ "

" نعم سانصُّ عليهِ بالتفصيل كل ما جرى لكِ من الحوادث منذ كنتِ مع الناسك على شاطئ البحر الاحمر حتى رجوعكِ الى القاهرة وحينئذٍ يعلم علم اليقين بانك في محبتك للملك العادل لم تزيغي عما يجب عليك "

الفصل الثامن والعشرون

وليم ولوسيان

ولما دخل رئيس الاساقفة مجلس الملك رتشرد وجد عندهُ ملك القدس ودوق برجندي يتشاورون في امرٍ ذي بال وهو انَّ فيليب اغسطس ملك فرنسا رجع الى اوربا ووكل قيادة جيشهِ الى دوق برجندي . وكان رئيس الاساقفة يعلم ذلك لانَّ ملوك الافرنج كانوا يستشيرونهُ في كل امرٍ ارادوهُ . اما رتشرد فاقلقهُ سفر مناظرهِ بغتةً وارتاب منهُ موجساً خوف انتهازهِ فرصة غيابهِ عن انكلترة وشنهِ الغارة عليها

فسكن رئيس الاساقفة اضطرابهُ وازال ارتيابهُ واقنعهُ بوجوب الاتكال على شرف ملك فرنسا وعزّة نفسهِ اللذين يحولان دون إقدامهِ على عمل معيب كهذا . ومما قالهُ لهُ : —

" دعهُ يذهب الى بلاده ويتولَّ بنفسهِ تسكين القلاقل التي هبت رياحها في غيابهِ وعوض ارتيابك منهُ تأسف على حرمانهِ مشاهدة بيت المقدس واعلم ان العناية الالهية قدَّرت لنا معيناً غير منتظر يسير امامنا ويمهد لنا سبيل استرجاع هذه المدينة المقدسة . انَّ الاسدين اللذين يحميانها يقتتلان وصلاح الدين والملك العادل في شقاق ونزاع وقد التقى جيشاهما في القاهرة فاستظهر الملك العادل على جيش اخيهِ وهو الآن في قيصرية . واذا لم تخدعنا الظواهر كان زحفهُ عليها تمهيداً لسبيل دخولنا اليها "

فدهش السامعون لهذا الخبر المفاجئ وعرض دوق برجندي ان يرسلوا وفداً الى الملك العادل لابلاغهِ قبولهم بشروط محالفتهِ

فعارض لوسيان في ذلك معارضة شديدة وقال ان اول شرطٍ يطلبهُ يكون خطبة الاميرة متيلدة فهل بلغ من قيمة محالفتهِ ان نضحي اثمن كنزٍ عندنا في سبيلها ؟

فردَّ عليهِ رئيس الاساقفة : —

" ولكني لا اعلم هل توافق متيلدة على رأيك هذا ؟ "

فاجابهِ رتشرد بشيءٍ من الغيظ : —

" اتريد بقولك هذا ان شقيقتي تحبُّ الملك العادل ؟ "

" أريد ان شقيقتك وعدتهُ ان تكون خطيبةً لهُ .... "

" لا تقدر شقيقتي ان تعد وعداً كهذا . لانها تعلم ان حق خطبتها منوط بي وحدي وقد تصرَّفتُ فيهِ منذ الآن . فلوسيان خطيبها ولن يكون لها خطيب سواهُ "

فاعترضهُ دوق برجندي بقولهِ ان مجلس امراء الافرنج وجميع رجال هذه البعثة بل جماهير المسيحيين قاطبة يطلبون موافقتهُ على محالفة الملك العادل اذا اشترط خطبة شقيقتهِ

فانبرى لهُ لوسيان وقال بلسان الواجد الحانق : —

"وماذا عسى ان يدعو الى وجوب عقد هذه المحالفة ؟ اليس بين ملوك الافرنج وامرائهم من يضاهي الملك العادل بل يفوقهُ اهليةً وكفاءة ؟ "

فاجابهُ رئيس الاساقفة بشدة وسخط : —

" اني لاعجب منك يا لوسيان كيف لم ترَ بفقد ملكك واعظاً ومؤدَّباً يكسرُ من حدة غلوائك وكبرائك ويعلمك شيئاً من اللين والتواضع . الم يكفنا ما جرَّهُ علينا سلفك من اضرار الشقاق والانقسام التي كادت تذهب بنا كل مذهب وتفرِّق شملنا المجموع تحت كل كوكب ؟ او ما كفاك اعترافنا بحقك في عرشٍ لم تمكنك اهليتك وكفاءتك من الاحتفاظ

بهِ ؟ فارتأ على ظلمك وقف عند هذا الحدّ من الجرأة والقحة ولا تحاول تقييد رتشرد بوعدٍ ليس الوفاء بهِ من مصلحتنا "

فردّ عليهِ رتشرد وهو بالجهد يستطيع ان يملك غيظهُ : —

" قل لي ايها الاب المحترم الست متعدّياً حدود حقوقك الدينيّة وسلطتك الكهنوتيّة وهل من حقوقك ان تقضي بيني وبين ملك القدس ؟ "

فاجابهُ " نعم من حقوقي وواجباتي ان اذود عن مصلحة الدين كل من يحاول العبث بها وان أُعين الضعيف وأُنجد المظلوم واذا كنت لم اذخر وسعاً في احترام ذوي السيادة والسلطة علناً امام الناس فالواجب عليّ ان اكلمهم على انفراد كاناسٍ غير ممتازين عن غيرهم بما ينزههم عن الخطإ ويعصمهم من الغلط . فلك يا رتشرد اقول علناً انك اذا استخدمت سلطتك كاخٍ وملكٍ في الجور على شقيقتك اميرة انكلترة تضطرني الى استخدام سلطتي المقدسة في الدفاع عنها . وانت يا لوسيان اذا اعمتك محبة الذات وحاولت حمل رتشرد على الوفاء بوعدٍ ليس فيهِ صلاحنا فاعلم اني اصرّح علناً بسقوط حقك في العرش الذي اتفقنا على سفك آخر قطرةٍ من دمائنا في سبيل استرجاعهِ . فاذكر وعيدي هذا واحذرهُ ولا تنسَ اني لم اتوعد قط ظلماً او باطلاً "

ثم حنا رأسهُ امام الملوك بهيبة ووقار وخرج من لدنهم . فقال لوسيان لرتشرد : —

" ماذا يهمني وعيدهُ ما دمتُ واثقاً بصدق وفائك "

" ثقتك في محلها . ولننظر الآن في ما سمعناهُ عن الشقاق بين صلاح الدين واخيهِ حتى اذا كان هذا الخبر صحيحاً اغتنمنا سنوح هذه الفرصة واسرعنا في احراز النصر والظفر "

وعلى الفور عقد رتشرد مجلساً حربياً اطلع فيهِ الامراء على ما سمعهُ من رئيس الاساقفة عن الشقاق المستحكم بين صلاح الدين واخيهِ وقال لهم ان الانباء ترجح انضمام الملك العادل اليهم فسرّوا جميعهم بهذا الخبر واعلن الاساقفة كلهم ونائب البابا معهم ان قبول الملك العادل الانضمام اليهم اعظم شأناً من اكبر انتصارٍ يحوزونهُ في ساحة القتال وان كل من يسعى برفض الشروط التي يطلبها لعقد هذه المحالفة يعدّ مجرماً في عيني الله والناس

فاستشاط لوسيان غيظاً وقام في المجلس يسفه هذا الرأي ويشير الى العار الذي يلحق بالافرنج باعتمادهم في محاولة استرجاع بيت المقدس على مساعدة رجلٍ غريب عنهم في المعتقد والعادات واخذ يدعو كلاً من الامراء باسمهِ مستنجداً مستغيثاً للعدول عن هذا الرأي الوخيم فمالوا كلهم اليهِ ولاسيما الذين كانوا مثلهُ يعللون انفسهم بامكان خطبة متيلدة واعلنوا

استعدادهم لمقاومة هذه المحالفة اذا كانت خطبة الملك العادل لمثيلدة من شروطها

واذ ذاك نهض رئيس اساقفة صور وبدّد بحذقهِ المشهور سحب الاوهام التي ادخلها لوسيان عليهم وقال لهم ان مصلحة الدين اهم شيء تعنى بهِ مثيلدة المعروفة بصلاحها وتقواها فهي احرص من غيرها على حفظ حقوق هذه المصلحة وصيانتها من العبث . وانهُ هو نفسهُ اول القائلين بان خطبة الملك العادل لها يجب ان تتوقف على رضاها وحدها

فوافقوا كلهم على كلامهِ هذا واتفقوا ان يرسلوا فرقةً كبيرة من جيشهم بقيادة رتشرد الى قيصرية للاستطلاع والوقوف على افكار الملك العادل من هذا القبيل . وخرج رتشرد يستعدّ للسفر ولم يبطئ ان جمع الذين انتخبهم من الضباط والعساكر واطلعهم على قصدهِ وابان لهم ما يرجوهُ من مساعدة الملك العادل لهم . ففرحوا جميعهم بهتاف الفرح والسرور واعلنوا ثقتهم بالظفر اذا كان الملك العادل معهم وليس عليهم

فدهش رتشرد من بلوغ شهرة الملك العادل الى هذا الحدّ واحفظهُ جدًّا ان يرى رجالهُ المنتخبين يضعون في الملك العادل ثقةً اعظم من ثقتهم بهِ . وكان قد عادى فيليب اغسطس ملك فرنسا لانهُ حاول ان ينازعهُ هذه الشهرة فكيف يسمح للملك العادل بها ؟ هذه الهواجس هاجت غيرتهُ وحسدهُ ومكّنت فيهِ العزم على الوفاء بوعدهِ للوسيان نكاية بالملك العادل

وذهب الى مخدع اختهِ مثيلدة وكانت تصلي فدخل متهجماً بلا استئذان ولا اعتذار وقال لها والغيظ آخذٌ منهُ كل مأخذ : —

" اني ذاهب عما قليل الى قيصرية وسأحمل عليها بغتة وافتحها عنوة وقد بلغني ان الامير الذي يحميها يميل الى الانضمام الينا . ولعلّ هذا الخبر بلغ رئيس الاساقفة منكِ كخبر عصيان الملك العادل على اخيهِ ولا يهمني الآن ان ابحث في هذا الموضوع بل يهمني ان استرجع بيت المقدس قياماً بما تركتُ بلادي لاجلهِ . وقد وعدت لوسيان انك تكونين زوجة لهُ وسأفي بوعدي هذا من غير ان اعلم او اطلب ان اعلم افكاركِ من هذا القبيل لأن بنات الملوك متقيّدات بالطاعة للملوك وعمل ما فيهِ مصلحة بلادهنّ "

" لعلك نسيت نذوري "

" لادخل لها في الموضوع " قال هذا وخرج على الفور

الفصل التاسع والعشرون

اصطلاح الاخوين

كانت عيون اهل الشرق قاطبة متجهة الآن نحو قيصرية التي كان الملك رتشرد زاحفاً عليها من الساحل وقد بلغ غابةً قريبة منها تطل عليها وصلاح الدين قادماً من جهة مقابلة وقد وصل تحت اسوارها . وبلغ الملك العادل قدوم اخيهِ فاستعدَّ لملاقاتهِ

ولمح الافرنج جيش السلطان صلاح الدين منتشراً في السهل فلجأوا الى الغابة يرقبون مجرى الحوادث بعين القلق والاهتمام لكنَّ بعد المسافة حال دون تمكنهم من مشاهدة كل شيء بالتدقيق فلم يستطيعوا ان يروا السلطان زاحفاً نحو بوابة المدينة وعيناهُ تقدحان شرر الغيظ والحنق ولا رأوا الملك العادل خارجاً لاستقبالهِ بخضوع اوجبهُ جلال السن والقدر

على انَّ صلاح الدين لم يخفل بهذه الطاعة من عاصي القاهرة بل عدَّها رهبة وخوفاً وقال لحرسهِ : —

" اقبضوا على العاصي ولا تبطئوا ان تروا سيوفكم بدمهِ "

فتردَّد الحرس في اطاعة امرهِ وخفَّ رجال الملك العادل اليهِ واحدقوا بهِ من كل جانب واستعدوا لافتدائهِ بارواحهم . وحينئذٍ استلَّ السلطان حسامهُ واهاب بعساكرهِ ان يتبعوهُ وحمل على رجال الملك العادل الذين مع قلة عددهم اقدموا على صدِّ هجمات السلطان وهجموا مدفوعين بقوة حب الذود عن حياة اعظم رجل يكرمونهُ على الارض وحملوا على عساكر السلطان المدفوعين بارادة صلاح الدين لا بارادتهم فاوقعوا فيهم التشويش والاضطراب واضطروا السلطان نفسهُ الى التقهقر

ولما رأى الافرنج ذلك تحققوا عصيان الملك العادل على اخيهِ وهبُّوا لانتهاز هذه الفرصة السانحة وانقضوا على ساقة جيش صلاح الدين فمزَّقوها تمزيقاً واسروا منها عدداً كبيراً وعلى الفور اهاب الملك رتشرد بامير تارنتو واوعز اليهِ ان يركب في خمسة عشر الف مقاتل ويأخذ الاسرى الى عكاء ويبشر الافرنج بفاتحة النظر والظفر ويبلغهم ان الملك العادل يحارب معهم وان راياتهم ستخفق في المساء على ابراج قيصرية . فاطاع امير تارنتو الامر وذهب بالاسرى مقيدين الى عكاء

وكان الملك العادل قد رجع الى المدينة ووقف على اسوارها فشاهد اعلام الافرنج خافقة في السهول ورأى جيش اخيهِ مولياً الادبار . فناداهُ صوت الوطن والأخاء نداء لم يستطع

ان يسدّ أذنيهِ عن سماعهِ وخرج باسرع من لمح البصر يخترق الصفوف المتقطعة الاوصال حتى بلغ حيث كان اخوهُ يجتهد عبثاً وباطلاً في لمّ شعث رجالهِ تارة بالوعيد والتهديد وطوراً بالرجاء والتوسّل وتارة بالقدوة والمثال وقال لهُ : —

" اي صلاح الدين دعنا نتحالف الآن حتى نستظهر على عدوّنا وبعد ذلك افعل بي ما يحسن في عينيك "

وانطلق — من غير ان ينتظر منهُ جواباً — يجول بين العساكر ويدعوها الى التجمع والانتظام ويحضها على الاتحاد والانضمام وبافل من بضع دقائق احيا فيهم ما اماتهُ الخوف واعاد ما اذهبهُ الفشل

فتعجب صلاح الدين مما رأى وسار وراء اخيهِ يسأل نفسهُ أهذا هو الملك العادل الذي وشوا بهِ اليّ وعظموا جرم خيانتهِ في عينيّ ؟

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد صدم ميمنة جيش الافرنج صدمة ازاحتها عن موقفها واضطرتها الى النكوص . اما الميسرة فكانت قد حملت على الجيش الذي يقودهُ صلاح الدين ورأى رتشرد صلاح الدين فهجم عليهِ ودعاهُ الى التسليم ومدّ يدهُ ليأخذ بعنان جوادهِ فابتدرهُ صلاح الدين بضربة من سيفهِ فلقت ترسهُ شطرين فالقى بهما رتشرد الى الارض واخذ بعنان جواد خصمهِ وقال لهُ : —

" لا فائدة من المقاومة سلم لملك انكلترة الذي اصبحت اسيرهُ "

" لا اسلم حتى جثتي فان اخي يستردها منكم "

" اخوك معنا " . " سترى ! "

ثم صفر السلطان صفرةً مخصوصة كان متفقاً عليها هو واخوهُ . وما سمعها الملك العادل حتى عدا كالطائر الى حيث كان السلطان فأنقذهُ من يد مضايقهِ وهجم على خصمهِ هجمة لم يرَ قطّ اشد منها وانتشب بين هذين البطلين عراك شديد ادرك فيهِ كلٌّ منهما ان خصمهُ عنيد وعزمهُ يفلّ الحديد

وكان الملك العادل قد وجّه الى خصمهِ ضربة قاضية نخلا منها برشقاتهِ المعهودة واصابت جوادهُ فقتلتهُ على الفور فوثب رتشرد عنهُ الى الارض واستأنف الطعان على رجليهِ ثم عاجلهُ الملك العادل بضربة ثانية اطارت خوذتهُ عن رأسهِ وعرّضت ملامحهُ لعينيهِ فرأى فيها على الفور ما ذكرهُ حبيبتهُ فارتدّ حسامهُ الى جنبهِ ولم تعد يدهُ تطيعهُ على الضرب بهِ . فقال لخصمهِ : —

" ما اسمك ايها الامير الشجاع ؟ ان نفسي تحدثني وملامحك تشهد بصحة حديثها بانك قريبٌ اليَّ وعزيزٌ عليَّ "

" اني عدوّك . عدوّك الحنق الحاقد . فقد استظهرتُ على اخيك لكنك انتزعتَ انتصاري من يدي وغلبتني وابقيت عليَّ . فلا يمكنك فعل شيءٍ ينسيني مرارة هذه الاساءة "

" عرفتك الآن من انت . رتشرد المتهجرف ! واذا ساءك اخلاصي لوطني فمالي حيلة في ارضائك . على اني لا انفكُّ أكرم بك اعظم ملوك الافرنج وأحب اخا تلك التي بذلت نفسي في سبيل انقاذها من مخالب الموت . "

ثم أبصر فرقة من جيش العرب قادمةً اليهِ فترجل عن جوادهِ واعطاهُ لرتشرد وقال لهُ : —

" انجُ بنفسك عاجلاً ما استطعت . اسلم لزوجتك ولشقيقتك لا تدفع نفسك الى التهلكة بلا اقلّ فائدة "

فاضطرّ رتشرد على رغم أنفهِ ان يعمل بنصيحة الملك العادل وامتطى الجواد وفرّ هاربًا ودموع الغيظ تسيل من عينيهِ ونار الغضب تتقد في صدرهِ

وفي مساء ذلك اليوم دعا الملك العادل قواد جيشهِ وضباطهُ اليهِ وقال لهم : —

" هل تحلفون لي على القرآن الشريف انكم تعملون بما اقولهُ لكم ؟ " . " نعم نحلف "

" اذًا اقتدوا بي وارضوا بكل عقابٍ يقضي بهِ السلطان علينا "

ثم ذهب بهم الى حضرة السلطان وجثا امامهُ منكسًا سيفهُ وقال : —

" الآن افعل بي يا صلاح الدين ما تشاء وأطفئ لهب غيظك بسفك دمي . ولكن اذا كان ما فعلتهُ اليوم يخوّلني حق التماس شيءٍ منك فملتمسي ان تعفو عن هؤلاء الرجال الشجعان لانهم قصروا في الحرص على طاعتهم لك في سبيل دفاعهم عن حياتي . ولكنها زلة بدرت منهم واني اضمن انهم لن يعودوا الى ارتكاب مثلها في المستقبل

ففعل هذا الكلام في فؤاد السلطان فعلاً عجيبًا وناجاهُ صوت الحب الاخوي في داخلهِ فانساهُ كبرياءهُ وعظمة مقامهِ وفتح ذراعيهِ الى اخيهِ وضمهُ الى صدره ودموع الحنو تنهلّ من اجفانهِ . ثم خلا بهِ على انفراد فقصّ عليهِ الملك العادل بالتفصيل كل ما حدث في دمياط والقاهرة واوضح لهُ ان سفر الملكة الى عكاء باسم متيلدة كان حيلة او خدعة لم يعلم بها قبل حدوثها

ولما اخبرهُ بانهُ بعث اليهِ بتفصيل ذلك في حينهِ مع رسولين تعجّب السلطان وقال لهُ انهُ لم يأتهِ قطُّ رسولٌ منهُ وان انقطاعهُ عن مكاتبتهِ كما ظهر لهُ زادهُ ارتيابًا منهُ وتصديقًا لشكوى المشطوب عليهِ

ثم اطلعهُ الملك العادل على ما بينهُ وبين متيلدة من الحب المتبادل وما قاساهُ في سبيل انقاذها من مخاطر البادية وقال في ختام ذلك : —

" ولكن اذا كانت طهارة هذه الفتاة النادرة وفضائلها الرائعة الباهرة انشأت فيَّ ميلاً الى مجاراتها في ما تطلبهُ مني فلم تستطع قط ولن تستطيع ابدًا أن تضعف امانتي لوطني واخلاصي لك . واني اعترف لك انَّ الحبَّ ساد بقوة عظيمة على قلبي ولكنك رابتَ اليوم انهُ لم يقدر ان يثني ذراعي عن تلبية الشرف "

فاجابهُ السلطان : —

" يلذُّ لي جدًّا ان أصفح واعفو ولكني لا أرى لك بعد الآن شبه ذنبٍ تحتاج الى عفوي عنهُ بل بعكس ذلك رأيتك قد انقذت جيشي وخلَّصت حياتي في ساعة صدور امري بقتلك . وذلك دين كبير لك عليَّ لا أرى لهُ وفاء الاَّ بهذه الطريقة : — إقبل مني عرش القدس ولتكن اميرة انكلترة شريكة لك فيهِ ودعها تأتيك بعكاء مهرًا لها ويكفي هؤلاء الافرنج ان يروا ملكةً منهم جالسةً على عرش القدس فيرجعوا من حيث اتوا ويتركونا نعيش بسلام

الفصل الثلاثون

رجوع رتشرد

وبينما كان صلاح الدين يستعد لإرسال وفدٍ من قبلهِ يعرض على الافرنج صلحًا بشروطٍ مبنيَّة على ما عرضهُ على اخيهِ بلغ معسكر الافرنج نبأٌ مبتسرٌ — سابق لاوانهِ — فحواهُ ان رتشرد افتتح قيصرية

وكانت متيلدة وحدها في مصلاَّها عند ما دخل امير تارنتو عكاء يقود أسرى العرب وجوانب المدينة ترتجُّ مرددة صدى هتاف النصر والظفر من جميع انحاء المعسكر . وما ابطأت ان رأت رئيس اساقفة صور داخلاً اليها يقول لها : —

" ابشري يا ابنتي فلقد انتصر اخوكِ على صلاح الدين . ولما برح امير تارنتو قيصرية كان جيش صلاح الدين لا يزال فاصلاً بين جيشنا وجيش الملك العادل ولكنَّ النصر كان حليف رجالنا فلا بدَّ ان يكونوا الآن قد اكملوا تمزيق شمل جيش السلطان وانضموا الى الملك العادل ودخلوا قيصرية ظافرين منتصرين فتعالي الى المملكة حيث ترين امير تارنتو وتقفين منهُ على تفصيل هذه الغلبة المجيدة "

فنهضت متيلدة على الفور وذهبت مع رئيس الاساقفة الى حيث كانت الملكة جالسة يحفّ بها الملوك والامراء والعظماء وامير تارنتو يقصّ عليهم تفصيل ما جرى ويطنب ببسالة رجالهم وحسن ابلائهم ويطرئ قوة رتشرد وصولتهُ وتدابيرهُ الحربية وحذاقتهُ العسكرية وينسب معظم الفضل في هذه النصرة المجيدة الى محالفة الملك العادل لهم وانحيازهِ اليهم واذا باصوات يأسٍ ارتفعت من جوانب المعسكر وما كادا يميلون اذانهم الى استماعها حتى رأوا رتشرد داخلاً عليهم بعدتهِ الحربية والغبار يوشك ان يحجب رؤيتهُ عن الابصار ومحيّاهُ مغشيٌّ بظلام غضب شديد . فسألهُ رئيس الاساقفة عن هذا الرجوع المغاير لما سمعوهُ من انباء الانتصار وهل تعذّر عليهِ الانضمام الى جيش الملك العادل فاجابهُ : —

" لا تذكرنّ هذا الاسم في مسمعي بعد الآن — فهو علة فشلنا وخيبة املنا — لاني بعد ما هزمت جيش السلطان شرّ هزيمة وضمنت لنفسي اسر صلاح الدين انقضّ الملك العادل علينا انقضاض النيازك فانتزع اخاهُ من يدي واضطرّ رتشرد ويالالعار ان يركن اول مرة في حياتهِ الى الفرار ! وقد اذلني بل زاد في إذلالي بان عفا عني وأسقط باحسانهِ اليّ حقّ قلع العينين اللتين شاهدتا عار هربي وذلّ انكساري "

فاجابهُ لوسيان : —

" وكأني بك غير واثقٍ بما عندي — انا اخاك في الجهاد — من الكفاءة والاستعداد لأنّ اضحي نفسي في سبيل الذود عن شرفك ؟ الستَ محاطاً باصدقاء اوفياء يحلفون معي انهم لا ينعمدون سيوفهم حتى يرغموا الموت على أن يطهر الارض من وجود الرجل الذي تحدّثهُ نفسهُ الاثيمة بالتباهي باكراه رتشرد ملك انكلترة على الفرار ؟ "

وكان هذا التملق أشبهَ بوقيدٍ أُلقي على نار غضب رتشرد فزادها احتداماً واضطراماً . فقبض على يد لوسيان وضغطها من شدة هياجهِ ضغطة ألمتهُ وقال : —

" في يديك ايها الصديق الباسل استودع شرفي — شرف رتشرد انكلترة — واني لأعطينّ شقيقتي لقاهر الملك العادل "

فنهض الملوك والامراء الذين طمحت نفوسهم الى متيلدة ورفعوا سيوفهم وحلفوا على ان كلاً منهم سيجعل قهر الملك العادل نصب عينيهِ

اما متيلدة فعند ما سمعت وشاهدت كل ما تقدم ايرادهُ خانها الصبر والجلد وفارقها الرشاد والصواب فسقطت مغشياً عليها . فأمر اخوها ان تحمل الى غرفتها واوصى رئيس الاساقفة بان ينذرها بعد إفاقتها بوجوب اطاعتها لاوامرهِ اطاعة كاملة

الفصل الحادي والثلاثون

متيلدة ورتشرد

اذا فوجئ القلب برزيئةٍ اصابهُ منها في بادىء الامر جمودٌ يفقدهُ الشعور بألمها ولكنهُ لا يلبث ان يعقبهُ ردُّ فعلٍ شديد ينصب عليهِ انصباب السيل ولا يعود يرى لهُ وسيلة للتخلص منهُ بسوى الموت

هكذا كانت حالة متيلدة المنكودة الحظ حين افاقت من اغمائها ومثّلت لعينيها ذلك المشهد المخيف الذي رأت فيهِ الملوك والامراء يتحالفون و يغلظون الايمان على قتل حبيبها فانها عانت من هولهِ جهد بلاء لا ينقذها منهُ سوى راحة القبر . لكنَّ اليمين التي أقسموها على الفتك بالملك العادل قضت عليها باختيار البقاء في هذه الحياة حتى تسعى جهدها في دفع الاذى عنهُ او تخفف عليهِ مرارة تجرّعهِ بالاشتراك فيهِ

وقد توسّلت الى الملكة والى رئيس الاساقفة ان يأذنا لها في الاجتماع بأخيها لكي تلتمس منهُ ان يحلَّ الامراء من اليمين التي حلفوها فلم يستصوبا رأيها هذا واوصوها بالصبر والتأني وانتهاز فرصة اخرى لأن اخاها باقٍ في معظم هياجهِ واضطرابهِ فلا يقع استشفاعها عندهُ موقع الرضى والقبول وقال لها رئيس الاساقفة : —

" اقبلي نصحي واعملي بمشورتي ولا تقدمي على شيء بالطيش والرعونة فان يضيع سعيٌ مع التأني المقرون بالحكمة والفطنة . اصبري حتى اكلم اخاكِ بل انتظري حتى ارى الملك العادل نفسهُ "

" انتَ يا ابي ؟ "

" نعم انا . فانَّ تصرُّف الملك العادل في قيصريَّة احزنني لكنهُ لم يقطع املي منهُ . فسأذهب حالاً الى قيصرية واجتمع بهِ واقف منهُ على حقيقة ما ينويهِ بخصوصكِ "

واذ ذاك دخل حاجب من قبل رتشرد يدعو الملكة اليهِ فذهب رئيس الاساقفة معها ولما وقعت عين الملك عليهِ ابتدرهُ بالسؤال : —

" هل حضضت اختي على طاعتي ؟ هل هي مستعدَّة الآن ان تخضع كل الخضوع لارادتي ؟ "

" لقد نهيتها نهياً مطلقاً عن ابداء شيء قبل رجوعي "

" الى اين انت ذاهب ؟ "

" الى حيث يقدّر لي الله "

وفي مساء ذلك اليوم ارتدى رئيس الاسافنة ثوب كاهنٍ بسيط وانطلق في طريق قيصرية وكانت متيلدة كثيراً ما تذهب في المساء الى شاطئ البحر مصحوبةً بنسائها لتستنشق الروائح العطرية المحمولة على اجنحة النسيم . وفي غالب الاحيان كانت تذهب الى قبر مونمورانسي حيث تنفّس كربها وتمزج حزنها بذكرى ملؤها الاكرام والاحترام لصاحب ذلك المقام وتسجم عبرات مخينةً تخفّف بها اضطرام نار احزانها . وبعض الاوقات كانت تقف على الربوة المدفون ذلك الامير الكريم في سفحها وتطلق عنان نظرها الى البحر فيسجّ بها على عبابهِ ويخترق مداهُ الواسع ويبلغ بها الى الدير الذي استبدلت بسلامهِ وراحتهِ وامنهِ اضطرابات العالم ومخاوفهُ وتجاربهُ ومع ذلك لم تأسف على هذه المقايضة ولا رأت فيها شيئاً من الغبن والبخس . ففي الدير كانت ايامها اشبه بلآلئ سقطت من يدها من غير ان تشعر بها كما ينبغي اما هنا فادركت قيمتها تماماً . لان الحزن يرقّي فينا عواطف القلب ويشحذ قوى العقل لكن الفرح يقضي على هذه بالكلال وعلى تلك بالخمول والانحطاط

وبعد انطلاق رئيس اسافنة صور تجنّبت متيلدة فرص الاجتماع باخيها ولم يبالِ هو ايضاً بان يراها بل كانت كل افكارهِ موجّهة الى التأهب والاستعداد وانتظار الوقت المعيّن لمحاصرة قيصرية بذاهب الصبر . وكان من يوم الى آخر يُغير بفرقةٍ من رجالهِ على اطراف معسكر السلطان ويرجع محمّلاً بالاسلاب والغنائم

وكان لوسيان يصحبهُ في هذه الغزوات ولا يفارقهُ دقيقةً وكانا كلاهما بقلبٍ واحد ورأي واحدٍ يتجلّان في الاستعداد لمدّ مطمار الحصار على قيصريّة

وفي مساء اليوم المعيّن لهذه المعركة كانت الملكة ومتيلدة جالستين ساكتتين تمثّلان اهوال الغد بدموع الحزن والاكتئاب فدخل الملك عليهما ورآهما تبكيان فقال لهما موبّخاً :—

" ماذا يبكيكما ونحن نتوقع بفروغ صبر طلوع شمس الغد حين اقتحم غمار الوغى وبدماء خصمي اغسل العار الذي لطخ بهِ اسمي "

فانطرحت متيلدة عند قدميهِ وقالت :—

" آه يا اخي أليس بين مجاياك الحسان موضع لذكر الفضل والاعتراف بالاحسان "

" لا تنسي ان الأمل انقطع من الملك العادل منذ سفك دماء رجالنا امام قيصريّة "

" واني من ذلك اليوم مؤرّخة شكري للملك العادل إبقاءهُ على حياة اخي ! "

واذ ذاك دخل لوسيان ومعهُ عدة امراء والتمس من رتشرد ان يأذن للابطال الواقفين خارجاً في تأدية واجب الاحترام لأسد انكلترة

فرجعت متيلدة الى مخدعها مثقلة بالهموم والاحزان وقضت ليلتها بهواجس حكّم فيها السهاد ومنع عنها الرقاد فلم تنم الاَّ دقائق متقطّعة أفزعتها فيها الرؤى وازعجتها الاحلام . فلامت نفسها اشدَّ اللوم على تقصيرها في اطلاع اخيها على العهد الذي بينها وبين الملك العادل . وما تصرَّمت انفاس الليل وبدت تباشير الصباح الاَّ كانت قد عزمت عزماً باتّاً على الاجتماع بأخيها قبل زحفهِ على قيصرية وابلاغهِ حقيقة الامر فدخلت خيمتهُ وهو يستعدُّ للانطلاق وانطرحت عند قدميهِ وكان عندهُ ملك القدس ودوق بافاريا ودوق برجندي فاجفلوا من فعلها هذا وخفُّوا اليها يرومان إنهاضها فتشبثت بركبتي اخيها وقالت :—

" حنانيك يا اخي اسمعني . رحماك اصغِ اليَّ . فقد عرض لي حلم مخيف أيقظني من نومي ثلث مرات . ظهر لي الملك العادل موبخاً اياي على تقاعدي عن السعي في إنقاذهِ من مخالب الموت حين كان ذلك في امكاني . وقد وعدتَ قاتلهُ بأن يكون خطيباً لي وانا — انا قد نذرتُ اني الى الابد اكره ذلك الذي يمدُّ يدهُ لاغتيال الملك العادل الشريف ! "

" متيلدة ! ما هذا الذي تجسرين على ذكرهِ الآن في مسمعي ؟ "

" لم يعد لي طاقة على السكوت . سأبوح بسرّي لخلاص حياة من أُحبُّهُ . فقد بذل الملك العادل حياتهُ في البادية لينقذ حياتي . واشرفنا كلانا على الموت . وفي تلك الدقيقة الرهيبة كان الله وحدهُ مرشدي ومعيني . ولما وعدني الملك العادل بان ينضمَّ اليَّ وعدتهُ انا بان اكون لهُ واشهدت الله عليَّ بان لا اكون زوجة لغيرهِ . والآن قل لي يا أخي هل يسمح لك عدلك ان تعد بأني اكون خطيبةً لقاتل خطيبي ! "

فلم يحُر الملك جواباً بل انطرح على كرسيّ ووارى وجههُ بيديهِ . فدنا لوسيان من متيلدة وقال لها :—

" لقد جرحت قلبي جرحاً لا التئام لهُ . ولكن اذا كان حزني لا يهمُّك أفلا تبالين بالحزن الذي ادخلتِهِ على قلب اخيك الشريف بقسمٍ باطلٍ يحلُّكِ البابا منهُ بسهولة "

فصاح رتشرد ناهضاً من مجلسهِ :—

" أصبت أصبت . ان ضعفها تغلَّب فأقسمتْ هذا القسم الباطل ووعدت الملك العادل وعداً سداهُ الجهل ولحمتهُ الطيش وانا المسؤول عن السعي في حلّها منهُ اذا كان عملها هذا لم يحطّ من قدرها في عينيك يا صديقي لوسيان وكنت مستعداً . . . . . "

وحال دون تتمة حديثهِ دخول دوق نورفوك قائد حرسهِ يقول : —

" خرج حرس طليعة الجيش حسب امر جلالتك بقيادة آدم دي توربن وما ابعدوا قليلاً حتى ابصروا جيشاً من العرب مقبلاً عليهم ثم تقدم منهُ رسولٌ واعلن قدوم وفدٍ عظيم من لدن صلاح الدين لعرض شروط الصلح وهذا الوفد مرسل على الخصوص الى جلالتك "

فنظر رتشرد الى ملك القدس ودوق برجندي ودوق بافاريا نظرة استفهام عن غرض صلاح الدين في إرسال هذا الوفد فصاح لوسيان بغيظٍ هاجهُ عروض هذا المانع الجديد في سبيل آمالهِ وامانيهِ وقال : —

" مهما يكن من فائدة الشروط التي يعرضها فاني ارفضها اذا كانت مشفوعة بطلب الاميرة متيلدة لاخيهِ "

فاجابهُ دوق برجندي مقطباً : —

" ولكن لا يخفى على جلالتك ان ارادة ملك القدس ليست شريعة لنا . وان اعتبار مصالح الدين أولى بالمراعاة من اهوائك واميالك . وبكلمة اقول ان حق النظر في مقترحات صلاح الدين والجواب عليها انما هو لمجلس الامراء المتحالفين لا لسواه "

وفيما كان ملك القدس يستعد للجواب على هذا الاعتراض بأخشن منهُ واغلظ توسَّط دوق بافاريا وقال : —

" من الخطإ الفاضح ان ننساق الى الانقسام والانشقاق قبل الوقوف على ما يروم صلاح الدين ان يعرضهُ علينا ! فلننتظر ريثما نقف على هذه الشروط وبعد ذلك نحكم فيها بما يوافق مصالحنا "

فأرضى كلامهُ الفريقين وامر رتشرد دوق نورفوك ان يدعو نخبة الامراء والضباط للاستعداد لاستقبال وفد صلاح الدين واخذ اختهُ بذراعها واخرجها من خيمتهِ

الفصل الثاني والثلثون

شروط صلاح الدين

وكانت متيلدة في شوقٍ لا مزيد عليهِ الى الوقوف على الشروط التي يعرضها صلاح الدين وكان الخوف والرجاء يتنازعانها فتارةً تخشى ان يكون السلطان قد غيَّر افكار اخيهِ وثناهُ عن الوفاء بوعدهِ لها وطوراً ترجو ان يكون من جملة هذه الشروط تصريحهُ باستعداد اخيهِ للوفاء بوعدهِ لاميرة انكلترة

وفيما هي غارقة في بحار التأملات دخلت عليها هرميون كونتس ليستر وقالت لها انها رأت بين رجال الوفد واحداً من اشد اتباع الملك العادل إخلاصاً لهُ ولم تستطع ان تكلمهُ لانَّ الملك رتشرد منع كل اتصال بين الافرنج ورجال الوفد قبل نظر مجلس الامراء في الشروط ثم استأنفت كلامها قائلةً : —

" ولكن على رغم التشديد في كتمان شروط السلطان عرف رجالنا بعضاً منها وقيل ان رئيس الوفد يطلب سموك خطيبةً لاخي السلطان الملك العادل وقد اجتمع بالمجلس منذ ساعتين لكنَّ الحقيقة لم تعلن بعد "

ثم خرجت هرميون ودخلت على اثرها برنغاريا ومالت على متيلدة تقبلها وتقول لها : —

" احييك باسم ملكة القدس ! "

" اني اكره هذا اللقب الاَّ من فمكِ . فما من قوة في الارض تستطيع ان تكرهني على مشاركة لوسيان في هذا العرش ! "

" ولا مع الملك العادل الذي يمتلك هذا العرش بحق الغلبة والفتح ؟ "

فغشيت صفرة الخوف محياها لأنها لم تصدِّق ان الزمان يسعدها بتحقيق امنية كهذه . فطوَّقتها الملكة بذراعيها وقالت لها : —

" لا يستحيل شيء على المحبة لانها كالايمان تمنح صاحبها قوة عمل العجائب وصنع المعجزات. مالك ساكتة ؟ أيستحيل على العناية الالهية ان تغيِّر قلوب الملوك وتمهِّد سبيل اتحادك بمن تحبهُ نفسكِ ؟

" هل وفى الملك العادل بوعدهِ لي ؟ "

" لا أعلم بعدُ شيئاً عن هذا الامر . ولكن خلي عنكِ الآن اهتماماً كهذا وخذي اقرإي الشروط التي يعرضها صلاح الدين على ملوكنا "

ثم اعطتها رقّاً مكتوباً عليهِ ما يأتي : —

" باسم الله الواحد الازلي نحن السلطان الاعظم حامي كلمة الحق وبيضة الايمان سلطان المسلمين وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة صلاح الدين ابن ايوب نعلن ونصرّح لامراء الافرنج المتحالفين اننا انعمنا على اخينا الامير النبيل الملك العادل بمملكة القدس وكل يهوذا وعدة مدن كبيرة من بلاد الشام . ولما كانت هذه الاملاك كلها على عظمتها وسمو شأنها لا ترضيهِ ان لم تشاركهُ فيها اميرة انكتنرة نقترح حصول هذه المشاركة رهناً او عربوناً للسلام المستديم بين الشرق والغرب . وقد رضينا ان تستوي ملكة من الافرنج على عرش القدس

فتحمي بوجودها ونفوذها اخوتها في المعتقد وتصون مصالحهم وتوطد دعائم الصداقة والمحبة بين المسلمين والنصارى . وقد سمحنا لها بكنيسة القيامة لتقيم فيها شعائر دينها وأذنّا لها ان تعيد بناء الاديرة الخربة وتمنح بني شعبها حريّة زيارة بيت المقدس

" ونطلب مقابل ذلك ان يكون مهر الاميرة متيلدة عكاء التي افتتحها الافرنج منّا . هذه شروطنا نقترحها بسلامة نية وحسن طوية فاذا لقيت قبولاً كانت اساساً لصلح وسلام دائمين وان عاد الينا الوفد بالرفض والاباء لقيناكم في ساحة الوغى والله نصير الحق . فماذا تريدون أسلماً ام حرباً ؟ وها نحن ننتظر جوابكم وفي يدنا الواحدة السلام اذا وافقتمونا عليهِ وفي الأخرى الحسام اذا احوجتمونا اليهِ "

وبعد ما قرأتها تكرارًا سألت الملكة : —

" هل علمتِ ماذا كان جواب المجلس على هذه الشروط ؟

" لقد انشأت بينهم اضطراباً وهياجاً لا مزيد عليهما . ومعظم الامراء استحسنوها لكن لوسيان رفضها رفضاً مطلقاً وايّده رتشرد في ذلك فعلا الضجيج وساد الشغب ومسّت الحاجة الى حضور رئيس اساقفة صور . وفي اثناء الاجتماع دنا لوسيان من رتشرد وكلّمهُ على انفراد ثم استرعى السمع وقال : —

" " يُطلب مني الآن ايها الامراء ان اتخلّى للملك العادل عن مملكتي وعن الاميرة التي وعد بها اخوها ملك انكلترة واني مستعدّ لهذا التخلّي اذا كانت مصلحة الدين تقتضيهِ ولذلك اطلب عقد مجلس اساقفة برئاسة نائب البابا للنظر في شروط صلاح الدين فاذا حكم هذا المجلس بوجوب ترك القدس للملك العادل واعطائهِ اميرة انكلترة فوقها لم يبقَ لي سبيل للاعتراض "

" وقد تكلّف لوسيان الاعتدال جهدهُ حتى حمل الاكثرين على قبول اقتراحهِ هذا وعزموا ان يعرضوا مطاليب السلطان على مجلس الاساقفة ويسألوا السلطان صلاح الدين قبول هدنةٍ ريثما يجتمع المجلس وينظر في الشروط "

فسألتها متيلدة : —

" هل تظنين ان إرسال هذا الوفد قد نشأ عن وجود رئيس الاساقفة في قيصرية ؟ "

" لم يذكروا شيئاً عنهُ ويظهر انّ الوفد برح قيصرية قبل وصولهِ اليها "

ثم دخل رتشرد ووقف أمام أختهِ وقال لها : —

" إعلمي يا متيلدة اني لم أغادر عرشي في اوربا وأجيء الى هنا الاّ لكي استرجع القبر

المقدس من ايدي العرب . ولما وصلت الى جزيرة قبرس عرفت لوسيان ورثيت لنكد طالعهِ وحلفت لهُ أن اردَّ عرشهُ اليهِ وهذه اليمين زادها رسوخاً وتوطيداً ما جدَّ بيني وبينهُ من الصداقة المحكمة العرى والاتحاد على هذا الجهاد . فماذا يطلبون مني اليوم ؟ ان احنث بقسمي واهجر صديقي في ساعة ضيقهِ وأرضى بأن يُسلَب حقَّهُ و يعطى لغيرهِ غنيمةً باردة وفوق هذا كلهِ ان نعيد لهم عكَّاء التي افتتحناها بدمائنا وعلاوة على ذلك ان تصير أختي — أميرة من دم البلانتاجنتيين الملوكي — زوجةً لأمير عربي فهل يمكنني ان انظر الى هذه الشروط من غير ان أرى ما فيها من الغضِّ بكرامتي وشرفي ! أيصحُّ ان يذاع في اطراف اوربا ان رتشرد منتهى آمال الافرنج ومبعث ذعر الشرق دان صاغراً لاول شرط اشترطهُ عليهِ العرب !

" على انَّ لوسيان رضي امراً ما كنت قطُّ لأرضاهُ لولاهُ وهو أن تُعرَضَ هذه الشروط على مجمع الاساقفة ومرادي بهذا ان تظهر فضائل صديقي ظهور الشمس في رائعة النهار و يعلم الجميع ما هو عليهِ من عزة النفس وكرمها وسعة الصدر ووفرة الحلم وإنكار الذات . أرأيتِ كيف استعدَّ لانكار حقوقهِ وتضحيتها في سبيل مصالح الدين اذا وافق الاساقفة على ذلك؟ ألا يُعلِمكِ هذا انَّ رفض نذوركِ في سبيل الصداقة والشرف افضل جدًّا من رفضها لداعي حبٍّ انشأهُ الطيش ؟ ولا تنسي اني الى الآن لم استخدم مالي عليكِ من السلطة في حملكِ على إطاعة امري "

وانقطع رتشرد عن الكلام منتظراً من أختهِ جواباً لكنها لاذت بأطراف الصمت ولم ترَ من الحكمة ان تصرّح بافكارها في مثل هذا الوقت ولاحظت الملكة ان رتشرد يتألم من هذا السكوت فاخترقت حجابهُ وسألتهُ هل يعقد الاساقفة مجمعهم قبل رجوع رئيس اساقفة صور فاجابها بشيءٍ من التهكم : —

" انكما اعلم بالوقت الذي تقتضيهِ رسالتهُ ولكننا عزمنا أن ننتظرهُ ثمانية ايام فقط حتى اذا لم يجيءْ في غضونها انعقد المجمع في غيابهِ "

ثم التفت الى اختهِ وقال : —

لقد ارتكبتِ خطأً عظيماً بوعدكِ للملك العادل . على أنَّ محبتي لكِ تقضي بأن اصفح عنكِ هذه المرة على رجاء انك لا تعودين الى ارتكاب مثلهِ مرة اخرى فلا يبقى محل للصفح والمغفرة . ولي رجاء انكِ تحضرين حفلة استقبال الملكة في هذه الليلة "

فوعدتهُ بذلك فخرج وخرجت الملكة على اثرهِ

وكان بين المجتمعين عند الملكة أناسٌ أعجبوا بالملك العادل وأميرة انكتترة فأظهروا في حديثهم علامات الرضى والاستحسان لحصول هذا الاقتران وآخرون حملهم حبُّ الاستطلاع على محاولة معرفة افكار متيلدة من هذا القبيل . والنساء نظرت اليها بعين الغيرة والحسد وترشرد بشيء من الاستنكار والاستخفاف وبرنغاريا بعين الحنو والشفقة والامراء الذين عللوا نفوسهم بامكان الحصول عليها بعين الغيظ والحنق . اما الاساقفة فسكتوا سكوت الوقار وأبوا ان يصرحوا برأيهم وأبدوا على وجوههم علامات التحفظ والكتمان التي جعلوها على شفاههم

اما لوسيان فاستند الى ذراع الكرسي الذي جلست عليهِ متيلدة ولاحت عليهِ لوائح الكآبة والحزن لكنهُ في الحقيقة كان مسروراً بحصول النتيجة التي ارادها من التظاهر بالكآبة وتكلُّف العفة والاعتدال اذ رأى انَّ الجميع مؤاسون لهُ وعاطفون عليهِ

وحقًّا انهُ لم يكن قطُّ من رجل اقلّ من لوسيان اتصافاً بعظمة النفس الفطرية كما انهُ لم يكن انسان ادرى منهُ بفائدة تكلف هذه العظمة او استخدام صورتها في بعض الاوقات ولم تكن هذه اول مرَّةٍ تكلف فيها إنكار النفس تذرُّعاً لنيل الكثير مما ادَّعى انهُ ضحَّاهُ كلَّهُ

فقد رأى في مجلس الامراء انَّ اكثرهم ضدَّهُ وانَّهُ اذا أصرَّ على رفض شروط صلاح الدين يزيد عدد مضادّيهِ ويصبح ترشرد وحدهُ غير قادر على مخالفتهم كلهم . فعمد الى الحيلة وهي أمضى سلاح يتقلدهُ عند مسيس الحاجة واوهم الامراء انهُ مضحٍّ مصالحهُ الخصوصية في سبيل المصلحة العامة وقد علم يقيناً ان اقتراح عقد اجتماع مجمع ديني يقتضي تأخير المسألة وهذا التأخير من مصلحتهِ لانهُ يمكّنهُ من كيد المكايد ودسّ الدسائس

على انَّ للقلب النقي الطاهر خاصَّة التمييز بين الصدق وصورتهِ فان متيلدة ظلَّت على رغم تملق لوسيان لها تشعر بعامل سريّ ينفرها منهُ ويبعد قلبها عنهُ حتى انهُ لما كان جالساً بقربها اراد استعطافها بقولهِ : —

" لو ان الملك العادل طلب مني عرشي فقط وعلمت ان محبتي لكِ تقع موقع القبول لديكِ لمنحتهُ سؤلهُ فرحاً مسروراً وتنازلت لهُ حتى عن حقي فيكِ "

فاجابتهُ : — " كيف يطلب منك عرشاً يملكهُ هو وقلباً باقياً في قبضة يدي ؟ "

الفصل الثالث والثلاثون

زيارة الملك العادل لمتيلدة

وفيما كانت متيلدة جالسة في مصلاّها تراجع في ذهنها حوادث حفلة قبول الملكة دخلت كونتس ليستر وقالت لها : —

" في الباب عربيٌّ يلتمس المثول لديكِ لانهُ حامل اليكِ رسائل من الملك العادل "

" ادخليهِ حالاً لانهُ قد امسى المساء وبعد بضع دقائق تقفل ابواب عكاء ويحكم بالقتل على كل عربيّ يوجد داخلها بعد الساعة المعينة "

فخرجت هرميون وعادت على الفور بجنديّ عربيّ متنكرٍ تنكرًا يدعو الى الاشتباه والارتياب ثم اومأت متيلدة الى هرميون فخرجت واذ ذاك اماط الغريب لثامهُ عن محياهُ وقال : —

" هوذا انا يا حبيبتي ! "

" أفي حلم انا ؟ الملك العادل ؟ هل هذا ممكن ؟ "

ثم اخذتها دهشة كادت تذهب بصوابها لانها لم تتوقع حتى في الحلم أن تراهُ في ساعة كهذه . وبعد ما تغلبت على دهشتها وامتلكت قوة النطق سألتهُ : —

" قل لي بالعجل ماذا جاء بك الى هنا ؟ هل رأيت رئيس اساقفة صور ؟ هل نجحت رسالتهُ واستجاب الله صلاتي ؟ "

" لم افهم مرادك ولا رأيتُ رئيس الاساقفة فهو ليس في قيصرية . والحبُّ وحدهُ قادني اليكِ . فلا يعلم احدٌ غيركِ بوجودي لان اخي ما كان قطُّ ليسمح بمجيئي الى هنا . لكنهُ لم يعد في إمكاني ان اصبر على فراقكِ فعزمت ان اراكِ على رغم المخاطر التي تتهدّدني فجئت متنكرًا بزيّ جنديّ بسيط ومصحبتُ الوفد على غير علم حتى من رئيسهِ وفي ظنّ اخي اني الآن في عسقلان وبافا أتعهد حصونهما "

" هل سمعت بجواب الامراء لوفد السلطان ؟ "

" عرفت ان لوسيان الذي يعلّل نفسهُ بالحصول عليك ارتأى عرض الشروط على مجمعٍ دينيٍّ وان رتشرد مؤيد لهُ في ذلك وربما تمكّن من حمل الاساقفة على الحكم بما يوافق غرض لوسيان فهل تسلمين بذلك ؟ "

فاخذت يدهُ بيدها وما كادت تفوهُ بما يفيد تجديد عهدها لهُ وتسمع منهُ تكرير وعدهِ لها حتى دخلت هرميون بسرعة لا مزيد عليها وقالت : —

" لقد أُغلقت ابواب المدينة الآن و يقول ملك القدس انهُ بينما كان يجول مفتشاً حول الاسوار التي يشرف عليها مصلاً كِ سمع صوت غريبٍ عندكِ وقال لهُ الحرّاس القيمون خارجاً ان جندياً عربياً دخل الى هنا ولم يخرج بعد . وقد جاء لوسيان لينظر في الامر وهو يطلب الدخول ليرى هذا العربي الذي تجاسر على مخالفة القوانين والبقاء في عكاء بعد الوقت المعيَّن "

فقالت متيلدة للملك العادل : —

" اخرج مع هرميون واذا لقيك لوسيان فقل لهُ انك تجهل القانون الذي يمنع وجود العرب في المدينة ليلاً واسألهُ العفو باسمي واحذر كل الحذر فلا ندعهُ يعرفك من انت . واذا حمي غضبهُ عليك وغاظك بوعيد وتهديد فتحمَّل ذلك كلهُ لاجلي ولذ باطراف الصمت والسكوت وساجعل سكوتك مقياس محبتك لي "

فوعدها ذلك وخرج مع هرميون . وعند الباب الخارجي لقيهُ لوسيان ومعهُ شرذمة من الجند وصاح بهِ : —

" كيف تجاسرت على البقاء في عكاء — في غرفة اميرة انكلترة — الى هذه الساعة ؟ الا تعلم ان عقوبة جرم كهذا الموت ؟ "

" اني جاهل للقوانين وقد جئت من قبل الملك العادل برسائل الى الاميرة متيلدة "

" ولاجل الملك العادل فقط ساوقع بك هذه العقوبة وأُريهِ شدة كرهي لهُ ! "

" لا أُشير عليك بذلك مخافة ان شجاعتهُ التي لا تعرف الخوف تجيءُ بهِ الى هنا فيربك وانتَ بين اصدقائك واعوانك كيف يعامل الذين يغيظونهُ بمثل هذا الكلام القبيح والادعاء الفارغ "

" وهل زعمتَ ايها العبد الزنيم اني أصبر على وقاحة وغدٍ نظيرك ؟ اقبضوا عليهِ ايها الحرّاس وخذوهُ مكبلاً بالقيود وزجوهُ في غيابة السجن حتى يجيءُ سيدهُ الذي يهدّدنا بهِ ! "

" اذا كنتَ مرتاحاً الى امتشاق الحسام ولا يهولك شرب كأس الحمام فاني مستعدٌ لمنازلتك تعالَ ان الظلام لن يحجبك عني ولا يعوق حسامي عن ان يجد منفذاً الى فؤادك ! "

" وهل تظنّ ان شرفي الملوكي يسمح لي بمنازلة رجل دنيء نظيرك ؟ خذوهُ ! اذهبوا بهِ ! "

فدنا الملك العادل من لوسيان وكلمهُ سرًّا : —

" اني انا الملك العادل وقد اطلعتك على ذلك حرصاً على كرامة التي تحالفنا على احترامها والامانة لها . وما اظنك تبخل بكتمان سرٍّ أستودعهُ شرفك وسأرى من احتفاظك بهِ مبلغ استحقاقك لرتبة الامارة واحترام خصمك الذي لا يكرهك اقلَّ من كرهك لهُ ! "

ان ثقتك بي جرَّدتني من سلاحي واحترام اميرة انكلترة ضمن لك سلامتك ولكن لا يخطرنَّ ببالك انك تنجو من عقابي فيما بعد

" لا أُطيل شقة انتظارك . لاقني غداً عند المغيب في غيضة الجميز قرب الشاطىء مقابل بوابة الناصرة "

فالتفت لوسيان الى الحراس وقال لهم ان هذا الجندي اوضح الاسباب الكافية التي اضطرتهُ الى مخالفة القوانين وامرهم ان يخرجوا بهِ خارج بوابة المدينة ويطلقوا سبيلهُ

وكانت هرميون ببرأى وسمع من كل ما جرى فذهبت واخبرت متيلدة بذلك فلم يخفَ عليها السرّ الذي استودعهُ الملك العادل لوسيان ولاجلهِ سمح لهُ بالذهاب وتوقَّعت حدوث نزال بينهما أوجست فيهِ خوفاً شديداً على حياة حبيبها وقضت ليلتها تتقلَّب على سريرها مفكِّرة في طريقة تتخذها لدفع هذا الخطر عنهُ

وعند طلوع الفجر ارسلت الى اخيها تلتمس منهُ ان يأذن لها في ان تجعل ذلك اليوم عيداً تحتفل بهِ بالهدنة التي أُعلنت بين جيوش العرب والافرنج وان يشرِّف الاحتفال بحضورهِ في مقدمة ملوك الافرنج وامرائهم وعظمائهم

فأجابها الى ذلك وأوصى بأن يكون الاحتفال مزدانًا بجميع مظاهر الأبهة ومجالي العظمة ووعدها بأنهُ سيكون اكبر معين لها على اكرام المدعوين

وفي الساعة المعينة اخذ المدعوون يدخلون السرادقات النفيسة التي امر رتشرد بضربها وفق مشتهى اختهِ على شاطىء البحر . وقبل نهوضهم عن المائدة الفاخرة التي أُعدت لهم وقفت متيلدة وقالت والخجل مورِّدٌ وجنتيها :—

" باذن اخي الملك التمس من جميع الامراء الذين على هذه المائدة ان يجيبوني طلبة "

فأجابوها بصوت واحد انهم مستعدون لاطاعة امرها بلا شرط ولا قيد . فقالت لهم

" التمس من جلالة الملك اخي ومن جميع الامراء البواسل الذين وعدوا باجابة ملتمسي ان جميع اسلحة القتال على اختلاف انواعها توضع جانباً مدة الهدنة المعقودة بيننا وبين صلاح الدين وان جميع الالعاب الحربيَّة والتسالي العسكريَّة تجري من غير استعمال اسلحة قاطعة وانهُ لا يؤذن لواحد منكم بأيَّة علة كانت ان يتعدى حدود الهدنة بمعناها الحقيقي ويدعو غيرهُ

— او يقبل من غيرهِ دعوة — الى زال ممبت سواء كان ذلك بين الافرنج بعضهم مع بعضهم او بين الافرنج والعرب "

فنكس الامراء سيوفهم وحكموا بالجبن والخيانة على كل من تحدّثهُ نفسهُ بتعدّي هذا الامر من غير اذن الاميرة . وكان لوسيان آخر من دنا منها وقال لها سرًّا : —

" كم يؤلمني ان أطيعكِ اليوم ! "

فشعرت متيلدة بصعوبة هذا الامر عليهِ وقالت لهُ : —

" ثق اني شاكرة لك "

الفصل الرابع والثلثون

قدوم صلاح الدين الى عكّا

وعند ما توارت شمس ذلك اليوم بالحجاب كان الملك العال في غيضة الجميز ينتظر مجيء لوسيان فجاءهُ ممتطياً جوادهُ ولكنهُ اعزل من غير سلاح لا يحمل شيئاً من عدة الحرب سوى ترسٍ ورمحٍ من غير سنان فدهش الملك العادل من مجيئهِ على هذا الاسلوب وسألهُ عن السبب فقال ان متيلدة فاجأتهُ على حين غفلةٍ ونالت منهُ وعدًا بالكفّ عن القتال مدة الهدنة . لم يقل لهُ انّ الامراء كلهم وعدوها هذا الوعد ايضاً بل أوهمهُ انها فعلت ذلك لشدة حرصها على سلامتهِ . فقال لهُ الملك العادل : —

" اعلم يا لوسيان اني اكرهك لكني لن ارهب جانبك . فارجع الى اميرة انكلترة وابذل جهدك في تملقها وترضيها واني اعلم منك بها وبعدم اكتراثها لك "

ثم لكز جوادهُ فعدا بهِ يسابق وميض البرق . ولما بلغ قيصريّة اخبرهُ اخوهُ برجوع الوفد وطلب الافرنج هدنة تمكنهم من عرض الشروط على مجمع الاساقفة وان اكثر الامراء مالوا الى قبولها وزاد على ذلك قولهُ : —

" ان الملك رتشرد يروم ان يقيم العابًا وتسالي اياماً متوالية احتفالاً بهذه الهدنة ويدعونا الى حضورها . فسأذهب انا لمجرّد المشاهدة واما انت فلك ان تشترك فيها وتظهر ما امتزت بهِ من الفروسيّة والقوة والمهارة والبراعة في جميع الالعاب الحربيّة "

وبرح السلطان قيصرية شاخصاً الى عكاء يصحبهُ اخوهُ الملك العادل ويتقدمهُ خمسون جنديًّا من المشاة ويسير في حراستهِ مئة فارس من نخبة فرسانهِ خمسون قدامهُ وخمسون وراءهُ

ومعهُ جمال بعضها محمّلٌ مضاربهُ وامتعتهُ واثقالهُ وبعضها هداياهُ الى اميرة انكتترة التي ينتظر ان تكون ملكة اورشليم

وبعد مسيرة ثلثة ايام اقبلوا على عكاء وبلغوا سفح ربوةٍ تظلّلها الاشجار وينحدر منها مجرى ماء اعذب من الشهد واصفى من البلور. فأمر السلطان بان تضرب لهُ الخيام هناك للاستراحة ثم اوفد رسولاً الى امراء الافرنج يخبرهم بقدومهِ للاشتراك في اعيادهم و بان اخاهُ مستعدٌ للدخول معهم في الالعاب العسكرية والمكافحات السلميّة

فسرّ الامراء بسماع خبر قدومهِ ما عدا لوسيان فانهُ اضطرب واوجس خوفاً من فوز الملك العادل عليهِ في ميدان الصراع والكفاح وانتزاعهِ منهُ شرف الغلبة الذي كان يعلل نفسهُ بهِ الى هذه الساعة لكنهُ كظم غيظهُ وتجلد وقاسم رتشرد الاعجاب برفعة شأن السلطان و بلوغهِ من الثقة بهم مبلغاً حملهُ على زيارتهم بلا شرط ولا تحذر ناسياً كلّ ما بينهُ و بينهم من الجفاء والعداء . هذه الزيارة على هذا الاسلوب شاقت رتشرد ووقعت أحسن وقع لديهِ وبعثتهُ في الحال على ان يقابل الثقة بمثلها ويزور السلطان واخاهُ بنفسهِ

فسار اليهِ وحدهُ لا يصحبهُ احدٌ من اعوانهِ ولا من حرّاسهِ وخف السلطان الى استقبالهِ معجباً ايضاً بحسن ثقتهِ بهِ وصافحهُ مرحباً بهِ من كل قلبهِ وقال لهُ : —

" ايها الملك العظيم . لما التقينا بالامس في ساحة القتال ادركت خطر معاداتك واليوم أُدرك بملء السرور قيمة صداقتك "

وقال لهُ الملك العادل وقد آنس فيهِ شبهاً واضحاً لموضوع حبهِ واعزازهِ : —

" الا نعمل نفوسنا بامكان الحصول على صداقتك مشفوعة بمحالفة أخٍ ؟ "

ولما وقعت عين رتشرد على الملك العادل نشبت ذكرى انهزامهِ من امامهِ نشوب السهم في قلبهِ فجرحت كبرياءهُ وقال : —

" ان رتشرد لم يعرف قط للهرب معنىً قبلما لقيك ايها الباسل امام قيصرية . أفتريد منهُ الآن ان يعطيك اختهُ جزاء ما اوقعتهُ بهِ من ذلّ الهرب وعار الانهزام ؟ "

" ولكن انكسارك كان بالحقيقة اشرف من الانتصار لانك أُكرهتَ عليهِ بقوة كثرة العدد بعد ما تركتَ في صفوفنا آثار بطشك وبسالتك "

فسرّ رتشرد بما رآهُ على محيّا الملك العادل في اثناء كلامهِ من علامات البساطة والإخلاص . وقال للسلطان انهُ كان بودّهُ من صميم فؤادهِ ان يقبل شروط المحالفة التي عرضها عليهم ويرى شقيقتهُ عربون سلام دائم بينهُ وبينهم لولا انهُ سبق ووعد لوسيان بها ولذلك

سيأسف أشدَّ الاسف اذا حكم مجمع الاساقفة بقبول هذه الشروط وقضى عليهِ باخلاف وعدهِ للوسيان . فقال لهُ الملك العادل : —

" ان الاميرة متيلدة وعدتني بان تكون لي يوم اسعدني الحظ بان انقذت حياتها من المخاطر التي تهددتها في البادية "

" سمعتُ بهذا الوعد الذي اقدمت عليهِ أُختي اقتحاماً لكنَّ رئيس كنيستنا يستطيع ان يحلها من وعد كهذا "

اما انا فسأبقى متكلاً على وعدها هذا بملء الثقة حتى يحلها الموت منهُ . سأبقى متكلاً عليهِ كما اتكل على شرفي او شرفك ! "

وهمَّ رتشرد بان يجيبهُ على كلامهِ فتوسط السلطان وقال لهما : —

" لنترك هذا الموضوع جانباً وننتظر حكم مجلس الاساقفة فيهِ فاما ان نعود الى امتشاق الحسام او يسود بيننا الصلح والسلام . اما الآن فلنبرهن للعالم اننا ندرك قيمة الثاني كما نعرف واجبات الاول "

فوقع كلامهُ أحسن وقع عند رتشرد والملك العادل فتصافحا وتصالحا . وكانت ساعة الشروع في الالعاب قد دنت فطلب رتشرد من السلطان ان يشرف افتتاح الاحتفال بنفسهِ وقال للملك العادل : —

" وانت ايها الامير الباسل لا تبخل علينا بشرف دخولك معنا غداً في هذه الالعاب ولما كانت جائزة المنتصر ستعطى من يد أُختي فلا بُدَّ انك تسعى جهدك للحصول عليها واننا ننتظر حضورك اليوم ولكن كمشاهدٍ فقط "

ثم ودَّعهما ورجع الى المعسكر واذا بالابواق تعلن قرب افتتاح الحفلة وابتداء الالعاب

الفصل الخامس والثلثون

الالعاب الحربية

ولما دخل صلاح الدين واخوهُ معسكر الافرنج هرع رتشرد ونخبة الامراء لاستقبالهما بما يليق من التجلة والتعظيم وذهبوا بهما الى رواقٍ فخيم يشرف على ساحة الالعاب وقد نصبوا فيهِ عرشاً للسلطان موشى بمطرَّزات من الذهب والفضة ومجلساً أنيقاً بجانبهِ لاخيهِ

ثم فتحت ابواب الساحة واعلن صوت الطبل والبوق ابتداء الالعاب وجاءت ملكة انكلترا

ومتيلدة الى رواق مقابل رواق السلطان بصحبهما لوسيان

ولما ابصرت برنغاريا الملك العادل حنت رأسها لهُ اشارة التحية والتسليم والترحيب ووقع نظر متيلدة على نظرهِ فتورّد محيّاها وزاد جمالها جمالاً فضغط الملك العادل يد اخيهِ وقال لهُ: —

" انظرها وقل لي رأيك فيها "

" انها اجمل فتاةٍ رأتها عيناي "

" اني مستعدٌّ لان اموت في سبيلكَ ولكني غير قادر ان اعيش بدونها "

ثم ابتدأ الكفاح ودارت رحى الصراع على اختلاف انواعهِ وعُرضت على المشاهدين مقدرة المتكافحين وخبرتهم ورشاقة حركاتهم وشدة تضلعهم من فنون الحرب ومعرفة ابواب الطعن والضرب واساليب الكر والفرّ وكأنَّ لوسيان أُوتي قوة خارقة وبراعة فائقة ففاق الاقران وجلّى على جميع الذين نازلوهُ في ساحة الميدان . ثم جال في عرضهِ على ظهر جوادهِ الأدهم واشرع رمحهُ (من غير سنان) وطلب مبارزة من شاء غير الذين استظهر عليهم فبرز لهُ الامير دي كومي فاخذا يتجاولان ويتصادمان ويلتحمان ويفترقان حتى تكسرت بايديهما الرماح ونسيا من شدة هياجهما اليمين التي حلفاها للاميرة متيلدة فاستلاَّ سيفيهما وحملا احدهما على الآخر لكنَّ المحكمين حالوا بينهما وذكروهما اليمين واكرهوهما على اغماد السيوف واستئناف الكفاح بقطع الرماح المتكسرة وظلاَّ على هذه الحالة من الكرّ والفرّ والنصر واقفٌ بينهما غير مائلٍ باقلّ رجحان الى احدٍ منهما حتى لاحت فرصة لدى كومي فقبض على خصمهِ وصرعهُ الى الارض والقى بنفسهِ فوقهُ وظنَّ المشاهدون كلهم ان النصر تمَّ لهُ على لوسيان واذا بهذا انسلَّ من تحت دي كومي برشاقة وخفة لا مزيد عليهما واستعاد موقفهُ وقبض على دي كومي بكلتا يديهِ وجندلهُ ولم يتنحَّ عنهُ حتى اعترف لهُ بغلبتهِ عليهِ . فهتف المشاهدون : — " نعمًا لوسيان ! ليحيَ ملك القدس "

فساء السلطان واخاهُ ان تسمعا لوسيان يُلقَّب بلقب لم يبقَ لهُ اقلُّ حق بهِ . وغاظ الملك العادل ان رأى خصمهُ مرَّ بهِ وهو يترنح براح الظفر وذهب الى حيث كانت متيلدة وقبّل يدها فطوقت عنقهُ بسلسلة ذهبية ثمينة

ثم تلا هذه الألعاب مرقص أُقيم على شاطىء البحر ودُعي اليهِ السلطان واخوهُ لكنَّ الأول اعتذر عن قبول الدعوة بما لديهِ من الشواغل وعدم اكتراثهِ لمشاهدة امور كهذه فرجع الى مضاربهِ وترك اخاهُ ينوب عنهُ في ذلك

وسار رتشرد بالملك العادل الى الملكة التي ابدت ما لا مزيد عليهِ من التحفظ في حضرة

زوجها خوفاً من استيائهِ واقتصرت على ذرف دموع اعربت للملك العادل عن ذكرها لجميلهِ وعدم نسيانها لمعروفهِ

ثم التفت ليحيي متيلدة التي كانت محتجبةً بعض الاحتجاب وراء كرسي الملكة وكان بقربها لوسيان جالساً يعجب بنفسهِ ويسخر بمناظرهِ ويتباهى بكونهِ حائلاً دون ما يروم تقديمهُ الى متيلدة من واجب التحية والتعظيم . فنظر اليها الملك العادل بعينٍ ملؤها التوبيخ فارجعت يدها التي همت بمدّها اليهِ واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع

واذ ذاك ضربت الموسيقى معلنةً قرب ابتداء الرقص وكان شرف افتتاحهِ منوطاً بلوسيان المنتصر ولهُ حقُّ اختيار اية سيدة ارادها لفتح المرقص . فوقف امام متيلدة وانحنى ومدَّ اليها ذراعهُ وسار بها على عيني مناظرهِ وجميع العيون شاخصة اليهِ

وما انتهت من الرقص معهُ ورجعت الى مجلسها بجانب الملكة حتى طلب المدعوون ان يروها ترقص مع طالبها الآخر اي الملك العادل . فأسرع هذا اليها وهو يكاد يطير من شدّة سرورهِ بسنوح هذه الفرصة ونهضت متيلدة والخجل عابث بوجنتيها ووضعت يدها في يد حبيبها . وحمي غضب لوسيان واندفع للاعتراض على ذلك . لكنهُ قبلما تمكن من الوصول اليهما وفصلهما احدهما عن الآخر ألقت متيلدة في يد الملك العادل ورقة صغيرة ومفتاحاً فقال لوسيان لها : —

" ان حقوقي كمنتصر تخوّلني ان اعلن نفسي اسيرك الوحيد في هذا اليوم "

ثم قال للملك العادل :

" وهبني كنتُ ميالاً الى المساهلة مع شخص آخر فهل تظنُّ اني ارضى بحصول هذا الشرف لك ؟ "

" كان الحق لك اليوم وسنرى لمن يكون غداً وما بعد غدٍ ! "

قال هذا واشاح عنهُ وتنحى جانباً ليطلع على ما في تلك الورقة . ففضها واذا بمتيلدة تقول لهُ فيها : —

" غداً عند طلوع الفجر . هذا مفتاح قبر مونمورانسي . سأُوافيك اليهِ " " متيلدة "

وعند طلوع الشمس خرجت في مركبتها مع نسائها وحرّامها حسب عادتها وكان اخوها يسمح لها بذلك . بشرط ان لا يدنو منها احد الطامحين اليها . ولما بلغت سفح الربوة التي عليها قبر مونمورانسي أُمرت بالمركبة فوقفت فنزلت منها وتركت الحرّاس عندها وصعدت مع نسائها حتى وقفت امام باب القبر وصلّت في قلبها الى الله قائلة : —

" اللهمَّ اذا كانت محبة احد من البشر قد أضلَّتني السبيل . اذا كان ميلي الى رؤية الملك العادل وسماع كلامهِ من جملة البواعث التي حملتني على المجيء الى هنا . فلا تدعني اجتاز هذه العتبة بل ارجعني من حيث اتيتُ واعصمني من مزج السعي في سبيلك بالسعي لمصلحة نفسي او لمصلحة غيري من الناس "

ثم لبثت دقيقة كأنها تتوقعُ إلهاماً يحقق لها استصواب خطتها وقالت لنسائها : —

" اتركنني هنا فانقطع لتأملاتي الانفراديَّة والصلاة لله "

فابتعدن عنها قليلاً وقد تعوَّدن ذلك منها فلم يرين فيهِ داعياً الى الاشتباه والارتياب.

ولم يكن لقبر مونمورانسي سوى مفتاحين احدهما مع متيلدة والآخر مع رئيس اساقفة صور . وقبلما خرج رئيس الاساقفة لطيتهِ اعطى مفتاحهُ لمتيلدة ولم يخطر قط ببالهِ انها ستعطيهِ للملك العادل . لكنها كانت عالمة بسلامة نيتها وحسن قصدها فلم تخف معارضة ابيها الروحي في ذلك . على انها شعرت باضطراب لا مزيد عليهِ عند ما دخلت القبر واخترقت الظلام السائد على المكان الذي يستريح فيهِ جسد ذلك البطل الفرنساوي

وكان في سقف القبة مصباح من فضة موقد على الدوام يرسل اشعة ضئيلة الى جوانبهِ وعلى نورها رأت الملك العادل وهو رآها ايضاً وتقدم لملاقاتها

ولما دنا منها قالت لهُ : —

" اعلم ايها الملك العادل اني لم اطلب الاجتماع بك في هذا المكان لمجرد الاصغاء الى عبارات الشوق والهيام ولا للعمل بما تطلبهُ عواطف قلبي . لانَّ هذا كلهُ لا يليق بنا اجراؤهُ في هذا المقام . وكل ما ينطق بهِ من الكلام بجانب عظام مونمورانسي الطاهرة يجب ان يكون طاهراً ايضاً . واعلم ايضاً ان مجمع الاساقفة سيلتئم غداً ورئيس اساقفة صور لم يرجع بعد . وقد انطلق من عكاء وكلف نفسهُ معاناة مشاق الاسفار واخطارها حبًّا بالاجتماع بك والوقوف على افكارك من جهة وعدك لي . فالشرف والاعتراف بالفضل وعرفان الجميل ومصالحنا كلينا تقضي عليك بأن تتخلى عن المجد الذي تتوقع نيلهُ في العالم وتذهب على الفور مفتشاً عن ذلك الشيخ المنكود الحظ الذي قد يكون في هذه الدقيقة راسفاً بالقيود والسلاسل او متجرعاً غصص العذاب لأجلك . ولا تنسَ ان شرف انقاذك لهُ من مخالب الموت يعلي مقامك في عيون الاساقفة اكثر جداً من شرف انتصارك على لوسيان في ميدان الكفاح والطعان . واذا لم يكفك هذا كلهُ كفاك استصواب ضميرك واستحسان الله ومحبة متيلدة "

" اني مستعدٌّ لاجابة سؤلك هذا مع ما فيهِ من صعوبة التغلب على اميالي شاكراً لكِ

ثقتك العظيمة بي ومعجباً بصفاتك السامية التي أراها مثالاً حياً لاطهر الفضائل واشرف المقاصد"

فجثت متيلدة امام تابوت مونمورانسي وقالت : —

" اي مونمورانسي الشريف لا تكفّ عن مواصلة الصلاة التي وعدت بها في ساعة الموت لاجل الملك العادل . دع روحك الناعمة الآن في ظلال المجد الابدي تكلمهُ كما تكلمت عنهُ عند ما وقف الموت يفتح لك ابواب السماء ! "

وجثا الملك العادل بجانبها وقال :

" ايها البطل العظيم الذي أعجبتُ كل الاعجاب بحياتهِ واكرم الآن رفاتهُ . لاريب في انّ قبضة التراب هذه ليست كل ما يجب ان يبقى من اشرف ما صنعهُ الخالق . إذاً روحك باقية حيّة مزدانة بالصفات التي سمت بها في هذه الحياة . فلنكلم نفسك نفسي ولتعلمني كيف يمكنني ان اوفق بين الشرف والواجب والحب " فقالت لهُ متيلدة : —

" انّ الله جعل بحكمتهِ التي لا تدرك حاجزاً حصيناً بيننا وبين الذين سبقونا الى العالم الآتي . فاذهب الى رئيس الاساقفة بالعجل لا تضع دقيقة واحدة . ان المجمع الديني سيلتئم غداً وربما لا تزيد مدة التئامهِ عن اسبوع . وقبل انفراط عقدهِ يجب ان تكون قد رجعت برئيس الاساقفة ومكنتهُ من الدفاع عنا امام المجمع وكما لا يخفى عليك ليس بينهم من يجسر على مخالفة مشورتهِ "

" لا يسعني ان اخالفكِ . لا بدّ من ذهابي على كل حال "

" الوداع إذاً . اذهب اطلب خادم الله الامين وائتني بعربون سعادتنا وهنائنا "

ثم مدّت يدها لتوديعهِ واذا باصوات ارتفعت خارج الباب وملأت قلب متيلدة خوفاً ورعباً . وسمعت برنغاريا تقول لها : —

" قد جئت انا والملك نطلبك . لاننا لا نريد ان تطيلي المكث في هذا المكان الموحش . "

فصاحت متيلدة : —

" رتشرد خارجاً ! واذا دخل — اذا رآك — ذهبت حياتك ضحيّة طيشي وتهوري — لكننا سنموت معاً على الاقل ! "

" لا تخافي — لن يعلم بوجودي هنا "

ثم انجنى الى جانب التابوت واختبأ تحت ثنايا مجنهِ الطويل المتدلاة اطرافهُ الى الارض — وفتحت متيلدة الباب لبرنغاريا فذعرت من رؤية صفرة الوجل التي لاحت على وجهها ولاحظ رتشرد ذلك ايضاً فقال لها : —

" لم أرَ قط في حياتي نظير هذا التغير العابث بوجهكِ "

ثم دخل الى القبر وقلب شقيقتهِ يكاد يخرج من فمها من شدة الخوف والاضطراب وبعد ما ادّى واجب التعظيم لمقام بطل فرنسا خرج واغلق الباب وراءهُ واقفلهُ وقال لها : —

" لا يؤذن لكِ في الدخول الى هذا المكان بعد الآن "

فاشارت اليهِ اشارة الطاعة . وقلبها طافح فرحاً بنجاة محبها ونجاح مسعاها

الفصل السادس والثلثون

" هوذا اقوى منك "

وفي ضحى ذلك اليوم استؤنفت الالعاب وأُبيح الدخول فيها للعرب والافرنج على حدٍّ سواء وجاء صلاح الدين مبكّرًا ليتمتّع بمشاهدة انتصار اخيهِ وغلبتهِ لكنّ الملك العادل لم يحضر وتأخرت الالعاب ساعة عن ميعادها اكرامًا لهُ ثم تكرّر تاخرها ساعة بعد ساعة والجميع متوقعون مجيء اخي السلطان وعيونهم شاخصة الى متيلدة ليروا تأثير غيابهِ في وجهها فرأوها غير مبدية اقلّ اكتراثٍ لذلك وهي في داخلها مفتخرة بغيابهِ اكثر مما بنيلهِ الغلبة على جميع اقرانهِ . اخيرًا دنا منها لوسيان وقال لها بشيء من التهكم : —

" ما ابطأ الملك العادل في اخراج تهديدهِ من القوة الى الفعل ! فما اظنهُ يهتمّ اليوم باحراز النصر الذي علّلَ نفسهُ بهِ امس "

" ان بسالة الملك العادل كشرفهِ منزهة عن كل وصمة ونقيّة من شوائب الريب واذا قصر في القيام بواجب صغير فما ذلك الاّ لانهُ يعنى بالقيام بواجب اهم واكبر "

ثم اعلنت الابواق انتهاء الوقت المعين لانتظار اخي السلطان وابتداء الالعاب وبرز الامراء والرجال المنتخبون من الافرنج والعرب وفاق خالد كثيرين من امراء الافرنج وانتصر عليهم لكنهُ دان اخيرًا للوسيان واقرّ لهُ بالسبق والتفوّق فمنحتهُ متيلدة جائزة النصر في ذلك اليوم وفي اليوم التالي وفي عدة ايام اخرى

فقلق صلاح الدين لغياب اخيهِ ولاسيما في وقت مثل هذا وارسل الرسل والسعاة يفتشون عنهُ في كل مكان . واقترب اليوم الذي يختم فيهِ مجمع الاساقفة جلساتهِ ويبدي حكمهُ النهائي من جهة قبول شروط السلطان او رفضها . وكانت اعمال المجمع ومباحثهُ مخفاة تحت طي الكتمان فلم يتمكن احدٌ من معرفة شيء عنها . وكثيرًا ما حاول لوسيان اختراق حجب الكتمان

والاطلاع على افكار الاساقفة فلم يفلح في مسعاهُ . وعبثاً حاول ايضاً التفريق بينهم ودس الدسائس لاجتذاب بعضهم واستمالتهم اليهِ كما ظنَّ عند ما اقترح عرض شروط السلطان عليهم . لكنهم خيبوا آمالهُ من هذا القبيل وجعلوا كيدهُ في تضليل

اخيراً جاء اليوم الذي يُعلَن فيهِ حكم مجمع الاساقفة وتنتهي الهدنة بصلح او بحرب . ففي اثنتي عشرة ساعة يُفصل الخطاب في مسألة متيلدة . والملك العادل ورئيس اساقفة صور بعد غائبانِ ولم يسمع احدٌ عنهما خبراً . وقد أُعِدَّ للمنتصر في آخر يوم من ايام الالعاب اعظم جائزة تمنَّاها الامراء وهي صورة الاميرة متيلدة

ولما دنا وقت ابتداء الالعاب في ذلك اليوم الاخير حملت متيلدة في محفتها الى الرواق المعد لها وللملكة وهي لابسة أفخر لباس ومزدانة باثمن الحلى والجواهر وبارزة بابهى جمال رائع وحسن باهر . لكنَّ محيَّاها الجميل كان مغشيًّا بسحابة قلقٍ واضطرابٍ لم تخفَ على عيون الناظرين اليها ولما استوت على كرسيها بجانب الملكة اعرضت عن ذلك المشهد الحافل واسندت كوعها الى عارضة الشرفة وامالت خدَّها على يدها وشخصت بعينيها الى طريق قيصرية من حيث تتوقع راحةً من اضطرابها وتحقيقاً لرجائها

وكان صلاح الدين الى الآن مرتفعاً عن الاشتراك في هذه الالعاب لانهُ رآها دون قدرهِ وانَّ الانتصار فيها قليل الجدوى والانكسار مدعاة الذلّ والعار . ولكنهُ رأى ايضاً ان نخبة رجالهِ دانوا لصولة لوسيان الذي كان على مسمع منهُ ومرأى ينتحل لنفسهِ لقب ملك القدس وخاف انهُ كما استأثر بجوائز الانتصار في الايام السابقة يستأثر ايضاً بجائزة هذا اليوم — صورة متيلدة — التي ينبغي ان تكون لاخيهِ الملك العادل فقط فنهض مدفوعاً بقوة هياج لم يعد في امكانهِ امتلاكها وصاح بلوسيان متهدداً :—

"مهلاً يا لوسيان . لا تعلل نفسك بالحصول على جائزة أُخرى . ولعلَّ القدر يتيح لي اليوم ان انتزع منك الجائزة كما انتزعت منك عرشك الذي لا تنفكُّ تلقب نفسك بهِ باطلاً !"

"تعالَ ياصلاح الدين فان انكسارك سيضيف ورقة غار أُخرى الى اكليل انتصاري . أسرع فان صوت سقوطك سيكون رمزاً الى سقوط عرشك ونهاية مدة اغتصابك"

ثمَّ التقيا وقد هاجها ما بينهما من العداء الشديد حتى كاد يحوّل كفاحهما الهزلي الى طعان جدّي . وكان الناظرون اليهما يراقبون حركاتهما بانتباه لا مزيد عليهِ فلم يسمع صوت في ذلك المشهد كلهِ لسوى صليل اسلحتهما — غير المجدَّدة — او لشدة لهثهما . حتى ان متيلدة نفسها تحوَّلت عن مراقبة طريق قيصرية ووجهت نظرها الى مراقبة هذا العراك الهائل

وقد شقّ عليها ان ترجو انتصار صلاح الدين على احد امراء امتها لكنّ انكسار لوسيان كان من اكبر امانيها لانهُ لم يكن في استطاعتها ان تمنحهُ صورتها

وكان لوسيان متعوّدًا هذه الالعاب خبيرًا باساليبها عارفًا بجميع طرقها وفنونها متدربًا على الاقتصاد في قواهُ بحيث لا ينفقها جزافًا بل يحفظها الى ساعة الضرورة بخلاف صلاح الدين فانهُ لم يتعوّد قط العابًا كهذه ولم يحضر قط ساعة النزال الا ليعرّض خصمهُ لضربات قاضيات وهذه كانت ممنوعة في قانون الالعاب ولهذا كانت جولاتهُ في هذا العراك الهزلي عبارة عن إجهاد قواهُ وانفاقها بالباطل

فانتهز لوسيان هذه الفرصة ودار حول السلطان بسرعة مدهشة يعنفهُ ويهيجهُ ويتقي ضرباتهِ ويشدد عليهِ حملاتهِ من غير ان يمكنهُ من حفظ التوازن او القاء الضرب فيأتيهُ عن شمالهِ حين يظنهُ حاملاً عليهِ عن يمينهِ وما برح ينقضّ عليهِ انقضاض البواشق من هنا وهناك وهنالك حتى رفع السلطان ذراعهُ هاممًا بضربهِ فدار لوسيان من ورائهِ بأسرع من وميض البرق واخذهُ بوسطهِ والقاهُ على الارض صارخًا : —

" سقط المغتصب ! "

وسار على الفور نحو رواق الملكة طالبًا الجائزة وهو مثل براح النصر والظفر واذا بمتبلدة صاحت على الاثر : —

" هو ذا اقوى منك ! "

وما اتمّت جملتها الاّ والملك العادل مقبل والغبار يغشاهُ والعرق يقطر من قوائم جوادهِ . فترجل عنهُ وانقضّ كالصاعقة الى ساحة الالعاب فرأى أخاهُ يتعثر بذيل الذلّ والانكسار . فكظم لوسيان غيظهُ وخوفهُ من هذه المباغتة التي لم تكن في حسبانهِ وقال للملك العادل متهكمًا : —

" ابمثل هذا الابطاء ينجز الابطال مواعيدهم ! "

" لم يفت وقت انتزاع الجائزة منك — سآخذ بثارك يا اخي ! "

وانطبق على خصمهِ واخذ يعاجلهُ بالضرب دراكًا تباعًا ويشدد عليهِ في الملاصقة والمضايقة حتى ضعضع قواهُ وافنى صبرهُ واحتمالهُ وسدّ عليهِ باب الافلات من يدهِ . فأمسك عن الحمل عليهِ وقال لهُ : —

" استرح قليلاً يا لوسيان واستجمع قواك وجدد نشاطك لانهُ لا يحسن بي ان انتهز فرصة اعيائك في طلب الانتصار عليك "

فأُعجب الحاضرون بعزة نفس الملك العادل وهتفوا كلهم لهُ هتاف الاستحسان

ورأى لوسيان ان خصمهُ نال عليهِ انتصارًا اديبًا سيتلوهُ عما قيل انتصار اعظم واكبر فغشيهُ ظلام الغيظ واليأس واحفظهُ جدًّا أن يضطرّ الى التخلي عن صورة متيلدة الى الملك العادل وعزم ان لا يبقى حيًّا بعد هذا الذل الفاضح وان يجعل موتهُ في ساحة الكفاح حائلاً دون تمتع خصمهِ بلذّة الانتصار. فعقد نيتهُ على الموت وجدَّد حملاتهِ على الملك العادل مستقتلاً حتى كاد يزحزحهُ من موقفهِ لو لم يعاجلهُ هذا بصدمة صرعتهُ الى الارض. فقال لهُ لوسيان: —

" اجهز عليَّ واسلبني حياتي كما سلبتني عرشي وقلب متيلدة "

فأجابهُ الملك العادل متلطفًا: —

" ان انكسارك مرة واحدة لا يمحو مجد نصراتك المتوالية. او لا تسمح لي بانتصار نازعت صلاح الدين العظيم عليهِ واستظهرت بهِ على جميع الابطال الصناديد الذين نازلوك في هذه الايام كلها؟ "

" وماذا تفيدني انتصاراتي السابقة؟ ألا تعدُّ متيلدة الفضل فيها كلها لغيابك وعدم وجودك؟ واي شيطان جاء بك اليوم لتختطف من يدي اعظم جائزة علَّلت نفسي بالحصول عليها — صورة عرومي! "

" صورة متيلدة التي لا يزيد حقك فيها عن حقك في عرش القدس! لم اتوقع حتى في الحلم اني ساحصل على جائزة كهذه! "

قال هذا واسرع الى متيلدة لينال منها هذه الجائزة النفيسة. هذا وان القلم لعاجز عن وصف ما خامر فؤادها في هذه الساعة من الافتخار والفرح والسرور حين انحنى حبيبها امامها ومدت يديها وعلوقت عنقهُ بالسلسلة الذهبية المعلقة صورتها بها امام عيون الملوك والامراء والعظماء المجتمعين من كل امة تحت السماء!

وفيما هي تطوقهُ بالسلسلة قال لها سرًّا: —

" غدًا يكون وليم هنا ولكن لي معك كلمة واحدة قبل وصولهِ في قبر مونمورانسي "

وكان اخوهُ صلاح الدين قد رجع الى مضاربهِ وارسل يستدعيهِ اليهِ فذهب على الفور وغادر لوسيان يصلي نار حنق وحقد تشوي فؤادهُ ويتناول لذعها قلب رتشرد ايضًا لأن انكسار صلاح الدين ذكرهُ انكسارهُ هو وجعل محالفة المنتصر عليهما مما لا تسمح بهِ كبرياء نفسهِ.

وكان مجمع الاساقفة مزمعًا ان ينتهي في مساء ذلك اليوم فهمَّ متيلدة جدًّا ان تسعى في

تأخيرهِ يوماً واحداً ريثما يحضر رئيس الاساقفة ونقف على رأيهِ قبلما تعلم نتيجة حكم المجمع سواء كان لها او عليها فدعت اخاها اليها وقالت لهُ : —

" اعلم يا أخي ان رئيس الاساقفة يرجع غداً . ولا ريب في ان سموّ رتبتهِ الدينية وشهرة حكمتهِ واصالة رأيهِ — هذه كلها — تقضي على المجمع بوجوب انتظارهِ يوماً واحداً "

" من اين عرفت ذلك ؟ "

" من الملك العادل "

فاعترض لوسيان بقولهِ : —

" لا اظنُّ ان اخاك يروم المداخلة في شؤون المجمع ! "

وكان دوق برجندي ودوق النمسا ودوق بافاريا وغيرهم من الامراء قد حضروا وسمعوا حديث متيلدة مع أخيها فأجمعوا بصوت واحدٍ على وجوب ابلاغ الاساقفة خبر قدوم اخيهم. وحاول لوسيان الاعتراض ثانيةً فلم يكترث احد منهم لكلامهِ .

واستأذنت متيلدة أخاها في ارسال حاجبٍ الى نائب البابا لاطلاعهِ على نبإ رجوع رئيس اساقفة صور ومالبث الاساقفة أن حضروا كلهم فقال لهم رتشرد : —

" اظنكم ايها الآباء المحترمون أخرتم صدور الحكم ؟ "

فاجابهُ مطران الناصرة : —

" ان خبر رجوع رئيس اساقفة صور ورغبة الاميرة متيلدة سبب كافٍ لتأخير حكمنا يوماً واحداً "

الفصل السابع والثلاثون

بين العقل والطبع

وفي تلك الليلة دخلت متيلدة مخدعها لتنام فكرت عليها جيوش الهواجس والافكار وانتزعت من اجفانها الرقاد وحكمت فيها الارق والسهاد . فقضت ليلها كلهُ تبحث في موضوع طلب الملك العادل منها ان توافيهُ في الصباح الى قبر مونمورانسي . فدققت النظر في جميع الاسباب التي تخوّل الملك العادل حق هذا الطلب وتوجب عليها العمل بموجبهِ — ذكرت كل مالهُ عليها من الفضل والمعروف من يوم عرفتهُ في دمياط والقاهرة والبادية ومالهُ على المملكة ورئيس الاساقفة حتى على اخيها رتشرد ايضاً في معركة قيصرية ولم تغفل اعتبار الغرض الذي

لاجلهِ يروم الملك العادل ان يجتمع بها وافترضت انهُ قد يحتمل ان يكون شريفاً سامياً كالغرض الذي اجتمعت بهِ من اجلهِ في المكان نفسهِ — هذه الامور كلها عرضتها على ذهنها بما استطاعت من البيان والتفصيل . ولما وفَّت هذا الوجه من الموضوع حقهُ من التأمل والبحث تركتهُ جانباً وبحثت في الوجه الثاني منهُ — في الاسباب التي توجب عليها الامتناع عن اجابة طلبهِ وتوسلت الى الله بدموع حارة وانسحاق قلبٍ ان يلهمها الصواب في حكمها ولا يجعل لعواطف قلبها سبيلاً لمعارضة عقلها في تحرّي معرفة الحق واتباعهِ . وبعد عراكٍ شديد وصدام عنيف بين عقلها وطبعها واحتمالها منهُ اشدَّ ما تحملهُ السفن من عراك الرياح والامواج رضخت لحكم العقل القاضي بوجوب إغفال طلب حبيبها على رغم ما يعانيهِ من صعوبة خيبة الامل ومرارة طول الانتظار باطلاً

وكان الليل حينئذٍ قد ولّى الادبار امام جيوش النهار وتمزّقت حجب الظلام باشعة الضياء المنبثقة من محيَّا الشمس مليكة الانوار فغادرت متيلدة مخدعها وخرجت تطلب الملكة لعلها تسمع منها خبراً عن وصول رئيس الاساقفة . وكان الامر كما امَّلت فان الملكة بشرتها بانهُ دخل عكاء منذ ساعة وخلا على الفور بنائب البابا

ثم دخل حاجب يعلن قدوم الملك رتشرد ورئيس اساقفة صور . وكانت متيلدة قد همت بالخروج فلقيتهما في الباب فحيتهما مطرقةً من غير ان تستطيع ان ترفع نظرها الى وجه رئيس الاساقفة لترى ما عليهِ من علامات تحقيق الرجاء او لوائح اليأس والقنوط وعادت الى مجلسها اما برنغاريا فرحبت بقدومهِ وهنأتهُ بسلامة الرجوع وسألتهُ عن اسباب عاقتهِ فقال : —

" قبض عليَّ العرب في يافا بامر المشطوب على رغم وجود الهدنة . وبعد ما شدُّوا وثاقي زجُّوني في السجن وبالغ من حقد المشطوب وحنقهِ انهُ عدَّني من الاسباب التي ادَّت الى سقوط عكاء وانتهز فرصة السلطة المطلقة المعطاة لهُ في يافا واصدر امراً بقتلي بعد مضي ٢٤ ساعة . ولكن في نصف الليل فتح باب سجني وكنتُ اظنُّ ان اعدائي جاؤوا يطلبون حياتي واذا بي ارى منقذاً واقفاً امامي يحول بيني وبين حمامي ! "

فسألهُ رتشرد : — " ومن كان هذا المنقذ العظيم ؟ "

" الملك العادل . لا اعلم باية معجزة الهيَّة جاء لانتشالي من وهدة الموت وقد سألتهُ بيان ذلك فابى ولم يبح لي بهذا السرّ "

" يصعب عليَّ ان ادرك كيف أُرسل الملك العادل اليك مع انك لم تخبر بجهة مسيرك سوى الملكة واختي "

" ان كان ثمّ سرٌّ فهو يوافق قول مخلصنا الآمر بأن لا نخبر يميننا بالخير الذي تصنعهُ شمالنا . انهُ سرُّ إحسانٍ عظيم يجب علينا اجتناب محاولة الاطلاع عليهِ "

" اراك ايها الأب المحترم منفرداً بالانحياز الى الملك العادل واستحسان كل ما يفعلهُ واخاف ان ميلك اليهِ يقدح في صحة رأيك ويؤثر في حكم المجمع المنتظر "

فأجابهُ رئيس الاساقفة :—

" لا احاول إنكار محبتي للملك العادل التي لا تقلُّ عن محبة الاب لابنهِ . واني معجب كل الاعجاب بصفاتهِ الشريفة التي ولدت فيَّ هذه المحبة لهُ . وسأذكر امام المجمع كل ما لهُ من الحسنات لأنَّ ديننا ينهانا عن التحامل على اعدائنا . ولا يؤذَن لي ان اطلع جلالتك على افكاري ومقاصدي لكني واثق انها كلها مما يجد نعمة في عيني العالم بكل شيء وسأذهب الآن الى المجمع قبلما التمس الراحة من عناء شديد آخذٍ مني كل مأخذ "

وبعد خروجهِ بقليل ارتفع ضجيج خصام ونزاع ودخل حاجب يقول مخاطباً الملك رتشرد :—

" ان الملك العادل وقف منذ دقيقة بباب الاميرة متبلدة طالباً الدخول اليها والتفق مرور ملك القدس فاعترضهُ واقسم بأنهُ لا يسمح لهُ الاَّ بأمر صريح من جلالتكم . فاغتاظ الملك العادل واستلَّ سيفهُ وفعل لوسيان فعلهُ واذا لم تسرع جلالتكم في الخروج والتوسط بينهما كانت العاقبة وخيمة الى الغاية "

فنهض ونظر الى اختهِ واذا بخدَّيها قد صبغا بحمرة كأنها النار في معظم اتقادها بعد أن كانا منذ هنيهة في نحول واصفرار لا مزيد عليهما . ولمس يديها فشعر بأعلى درجة تبلغها حرارة الحمى . فقال للملكة :—

" خذيها من هنا فلا أريد ان الآخرين يطلعون على ما هي فيهِ الآن "

وبعد خروج رتشرد قالت لها الملكة :—

" أدخلي الى مصلاَّي حيث تجدين راحةً في انفراد لا يكدر صفاوَهُ ومن وراء هذه الستائر تستطعين سماع كل مايقال هنا "

فدخلت الى حيث قالت لها الملكة واذا برتشرد راجع ومعهُ الملك العادل ولوسيان .

الفصل التاسع والثلثون

رفض شروط الصلح

وكانت الملكة قد سبقت وجعلت كرسيها ملاصقاً للستارة الفاصلة بين غرفة الجلوس ومصلاها بحيث تكون قريبة من متيلدة الجالسة وراءها من الداخل

وكان الملك العادل اول من تقدّم ليحيي الملكة فجلس بجانبها وهمس اليها متوسلاً ان تخبرهُ هل اصاب متيلدة مكروهٌ لانهُ في قلق لا مزيد عليهِ من جهتها . فأجابتهُ بما ازال جانباً من قلقهِ واعاد اليهِ شيئاً من الاطمئنان واذ ذاك قال لوسيان لرتشرد بتهكم مبطن بالتأدُّب : —

" لا بدَّ ان جلالتك تسلم بأن اكبر برهانٍ على صحة ما يؤثر عن لطف ملكة انكتترة وكرم اخلاقها انما هو صبرها على هذيان الملك العادل وهذرهِ اللذين لا نهاية لهما "

لكنَّ رتشرد كان مشغولاً عن سماع كلام لوسيان البذيء بملاحظة الملك العادل نفسهِ اذ رآهُ جالساً حيث كانت اختهُ جالسة منذ هنيهة وعلى وجههِ ما كان على وجهها من النحول والاصفرار . فأثّرت هذه المشابهة الشديدة في نفسهِ فصاح على غير قصدٍ ولا تعمُّدٍ : —

" لم أرَ قطُّ حبًّا كهذا ! "

فسألهُ لوسيان بشيء من الغيظ : —

" ماذا تعني جلالتكم بهذا ؟ "

" اعني انهُ لولاك لأثّرت فيَّ هذه المسألة تأثيرًا غريبًا ! "

" اذًا لم يبقَ لي الآن ألقي كل اتكالي على عدالة المجمع "

" وكأنك لا تعبأ بعدالتي وصدق مواعيدي ؟ "

ثم اخذهُ رتشرد بيديهِ وسار بهِ الى شباكٍ ليكلمهُ على انفراد بعيدًا عن مسمع الملكة والملك العادل

فانتهز الملك العادل فرصة ابتعادهما وقال للملكة : —

" اريد ان ارى متيلدة لاقول لها كلمة واحدة "

فاشارت الى الستارة وقالت لهُ : — " اني ذاهبة قل لها ما تشاء فتسمعك "

فأدرك مراد الملكة وعلم ان متيلدة وراء الستارة وقال لها : —

" انتظرتكِ هذا الصباح لاقول لكِ كلمة مهمة جدًّا . فاذا لم يمكنكِ ان تكلمي رئيس الاساقفة قضي علينا ! "

ثم اطلّ رتشرد من الشباك المشرف على محل اجتماع الاساقفة وقال : —

" انتهى اجتماعهم وهوذا وليم ونائب البابا وباقي الاساقفة آتون الينا ليطلعونا على نتيجة المؤتمر "

ثم دخل نائب البابا ورئيس اساقفة صور وقال الاول مخاطباً الملك رتشرد : —

" حكم المجمع امس باستصواب اعطاء الاميرة متيلدة للملك العادل . هكذا كان حكمنا لو لم نضطرّ الى تأخير النطق بهِ . اما اليوم فان حكمة رئيس اساقفة صور اقنعتنا بخطإ حكمنا هذا وحكمنا برفض شروط صلاح الدين الاّ اذا كان الملك العادل يجيبنا صريحاً بعد ثلثة ايام بانهُ مستعدٌ للانضمام الينا وممارسة الرسوم التي تبرهن صحة هذا الانضمام "

فاجابهُ الملك العادل : —

" لا حاجة الى انتظار ثلثة ايام فمن الآن اقول لك إني ارفض كل شرط يقضي عليّ بارتكاب الخيانة والغدر ! "

فأجابهُ رتشرد : —

" اذاً ترفض قبول اختي بموجب الشروط المعروضة عليك ؟ "

" أرفض ان أُضيع ثقة صلاح الدين بي ! أرفض ان تكون شقيقتك وهي اشرف مخلوق على وجه الارض ثمن صفقة دنيئة كهذه ! أنا — الملك العادل — اقبل شرطاً مهيناً كهذا ! معاذ الله ! ان امتزاج ماء هذا النهر بمياه البحر الاحمر أقرب من أن ارفع يدي على أخي وبلادي ! "

فالتفت لوسيان الى رئيس الاساقفة وقال : —

" حقاً انك ايها الاب المحترم اسمى شأناً من جميع بني البشر . واننا لقاصرون جداً عن ادراك كنهِ صفاتك العجيبة ! فلك وحدك انا مدينون بما هو اعزّ من وجودي واثمن من حياتي ! "

" لست مديوناً لي بشيء على الاطلاق . لاني لم اخدم قطّ انساناً ولا راعيت مصلحة بشر بل جعلت نصب عيني مصلحة الدين فقط "

ثم انتهز الملك العادل فرصة اشتغال رئيس الاساقفة ونائب البابا ورتشرد ولوسيان في هذا الموضوع ومال الى الستارة الفاصلة بينهُ وبين متيلدة وقال لها بصوت لم يسمعهُ أحد غيرها : —

" ينبغي ان توافيني غداً الى قبر مونمورانسي . سأذهب الى هناك حالاً وأبقى حتى تأتي فان لم تأتِ بقيت الى الابد . فهل تنكثين عهدك ؟ هل تتركينني اموت هناك ؟ "

" كلاّ "

وحينئذٍ وقف ودنا من رئيس اساقفة صور وقال لهُ : —

" لقد اصابني منك اليوم اعظم ضرر ومع ذلك فانت اعظم رجل يستحق احترامي واكرامي. ورجائي اننا نتمكن يوماً ما من الحصول على مصالحةٍ ترضينا كلينا قبلما نفارق هذا العالم "

ثم التفت الى رتشرد وخاطبهُ باباء وعزة نفس : —

" لا أُخفي عن جلالتك شعوري بسوء حظٍّ مزدوج — بالحكم الذي صدر الآن والسرور الذي نالك منهُ . وقد كان يهون عليَّ حمل ثقل هذا الحكم لو رأيتك آسفاً بعض الأسف على وقوعهِ . ولكن يظهر لي أنَّ كل شيءٍ هنا موجه لمقاومتي . فعليَّ ان اذهب الى اخي واطلعهُ على حكم مجمع الاساقفة وهو نذير باستئناف القتال وسفك الدماء الاَّ اذا مُدَّت يد غير منظورة وحالت دون ذلك "

وانطلق على الفور الى خيمة اخيهِ صلاح الدين وخلا بهِ على انفراد وقال لهُ : —

" هل تعلم باي شروط رضي الافرنج ان يعطوني اخت رتشرد ؟ "

" بالشروط التي اقترحتها عليهم "

" لا . لم يقبلوا شروطك بل اشترطوا عليَّ ان انضم اليهم واتخلى عنك قبلما يعطونني من يحبها قلبي "

" اذاً رفضتها ؟ "

" لا ارفضها الاَّ اذا اوقفت يد الموت حركة هذا القلب الذي ملكتها اياهُ ! "

" ماذا تقول ؟ أمن الممكن أنَّ حباً عقيماً كهذا يقودك الى ارتكاب الدناءة ؟ وهل ارى في اخي الدَّ عدوٍّ لي ؟ "

" لا تنجس شفتيك بذكر تهمةٍ لا يصدقها قلبك . اني اخوك يا صلاح الدين . فكيف يمكنني ان اكون عدوَّك ايضاً ؟ اسمع . ان الوقت اقصر من ان يسمح لنا باطالة الكلام . انك منطلقٌ لا محالة . اما انا فلست بذاهب معك . اني باقٍ هنا . لا تخف عليَّ . فقد وجدت مخبأً لا يعرفهُ احدٌ من الافرنج ويختم عليَّ ان اكتم سرَّهُ حتى عنك . على اني لا اتأخر عنك كثيراً . انتظرني في قيصرية فاوافيك بعد ثلثة ايام ومعي متيلدة "

" اميرة انكلترة ؟ "

" نعم . ان قلبها لي . وقد أُعطيتهُ منذ وقت طويل . وهي اوفى من ان تخلف وعدها . خذ رجالك معك فلستُ في حاجةٍ الى سوى خالدٍ . اني عالم ببسالتهِ وواثق باخلاصهِ "

وبعد انطلاق السلطان ورجالهِ ذهب الملك العادل وخالد الى جهة الشاطئ حيث

وجدا كهفاً يسترها عن العيون . وفيهِ ترتّب على خالد ان يبقى منتظراً رجوع الملك العادل معدًّا لهُ جوادين من اكرم الجياد العربيّة

ثم سار الملك العادل الى قبر مونمورانسي ينتظر متيلدة

الفصل الاربعون

مهلة ثلثة ايام

وبعد انطلاق الملك العادل غادرت متيلدة مصلّى الملكة الى مخدعها القريب منهُ وجلست تنتظر رئيس الاساقفة وهي في حالة يرثى لها من شدة القلق والاضطراب والحزن والاكتئاب. ولما دخل ورآها على هذه الحالة كاد قلبهُ يتفطر حزناً عليها واخذتهُ حيرة شديدة حبست لسانهُ عن الكلام . ثم تغلّب على انفعالهِ وقال لها : —

" هل انتِ مستعدّةٌ يا ابنتي للاصغاء الى كلامي "

" تكلم يا أبتِ "

" يجب عليكِ ان تقبلي ما قسمهُ الله لكِ بملء الطاعة والتسليم بل بالحمد والشكر "

"ألا يجب علينا في هذه الحياة الدنيا شيء آخر غير التسليم ؟ اما من حوادث او احوال تقتضي العمل ايضاً ؟ الا يمكن بعض الاحيان ان مشيئة الله تظهر غير موافقة لما يطلبهُ الضمير وحينئذٍ نرى النور الذي وهبهُ الله لنا لنميز بهِ الصحيح من الخطإ ؟ "

واذ ذاك دخلت الملكة وقالت : —

" استأذنك يا أبي في اسماع ما تروم ان تقولهُ لشقيقتي "

فساءهُ جدًّا دخولها وتضييعها عليهِ فرصة انفرادهِ بمتيلدة للوقوف على اعترافها لكنهُ تجلّد كعادتهِ وشرع في حديثهِ فقال : —

" لما برحتُ عكاء ذهبتُ رأساً الى قيصرية فلقيني بعض الضباط وظنوني زائراً وقالوا لي ان الملك العادل ذهب يتعهّد عسقلان ويافا . فسرت الى المدينة الاولى ولم ارهُ فيها فقصدت الثانية وعلمت انهُ لم يأتها . واذ حاولت الوقوف على الخبر اليقين من جهتهِ ارتابوا مني وعرفني المشطوب جيداً كما قلت في هذا الصباح وحكم عليَّ بالموت . وقلت ايضاً ان الملك العادل جاء اخيراً كأنهُ بمعجزةٍ من السماء واطلقني في اليوم المعيّن لقتلي . وليست هذه اول مرةٍ اعاد لي فيها حياتي وحريتي . ففي دمشق — كما في يافا — كنتُ لولاهُ مزمعاً

ان اقضي حياتي في السجن او اموت من شدة العذاب وكأن هذا الامير الكريم يتبعني على الدوام لينقذني من الموت ويضاعف ديني لهُ ووجوب وقف حياتي على خلاصهِ . ولكن يظهر ان الساعة لم تأتِ بعد ولا يمكنكما يا ابنتيَّ ان تتصورا ما بذلتهُ من الجدّ والاجتهاد في اقناعهِ وما اظنُّ لساني يستطيع ان ينطلق بمثل البراهين المقنعة والادلة المحكمة التي اوردتها لهُ وبلغتُ من المساهلة معهُ ما تعدّيتُ بهِ حدود السلطة المعطاة لي ورضيتُ بانهُ اذا قبل ما اعرضهُ عليهِ لم يُطلب منهُ حمل السلاح ضدّ بلادهِ فأصرَّ على زعمهِ انَّ قبولهُ ما نطلبهُ منهُ يكون بمثابة معاداتهِ لصلاح الدين . واكّد لي انكِ تُعطَين الحرية المطلقة في ممارسة شعائر دينك وربما جاراكِ في البعض منها . ولكني لم استطع الاعتماد على وعدٍ مثل هذا "

فقالت متيلدة : —

" لستُ مخالفةً لك في هذا "

" اذاً اقوّي يا ابنتي نفوّي . انشطي من عقال الضعف المستحوذ عليكِ ولا تستسلمي لخوار العزم "

وحقاً كانت في خوار عزم لا مزيد عليهِ حتى انها وهو يكلمها سقطت على كرسيها الى الوراء وأُغمي عليها من شدة الاعياء وظلت عدة ساعات تراوح بين الموت والحياة . وبعد غروب الشمس أفاقت وطلبت الرجوع الى مخدعها

ومع تصميمها على موافاة الملك العادل في الصباح صممت ايضاً أن تطلع رئيس الاساقفة على ذلك ووجود الملكة حال دون كلامها معهُ في هذا الموضوع وكان من الضروري ان تراهُ قبلما تنام فارسلت احد حجابها اليهِ وأمرت بأن تبقى ابوابها مفتوحة الليل كلهُ

وفيما هي تنتظر قدومهُ سمعت وقع اقدام خارجاً فنهضت لاستقبال زائرها واذا بهِ اخوها رتشرد وما عتم ان جلس وقال لها : —

" لا اكتم عنك سروري بتصرُّفك في هذا اليوم وحسن صبرك على التضحية العظيمة التي دعاك الواجب اليها . لكنهُ باقٍ عليك تضحية اخرى لا نقلُّ عنها شأناً وخطارةً ولاجلها جئت الآن لاتكلم معك . فلا يخفى عليك اننا سنعود عما قليل الى قتال العرب ولا بدَّ ان رفضنا لشروط صلاح الدين يغيظهُ جدّاً ويزيدهُ إقداماً علينا رغبة في التشفي والانتقام وسيبذل اخوهُ اشد قوة يستطيعها حتى يتمكن من اختطافك من ايدينا . هذا من جهة . ومن جهة اخرى ترين عساكرنا ملّوا القتال وأخذوا يتذمرون من كثرة مقاساة الاهوال وشدة معاناة الاخطار وطول زمان تغرُّبهم عن الاهل والاوطان في سبيل استرجاع عرش القدس

لملك افرنجي مستشرق (لوسيان) . فاذا تحققوا ان اميرة من دمي تشاركهُ في هذا العرش هان عليهم تجشم هذه المخاطر كلها وزادوا حماساً ونشاطاً وبسالة واقداماً . وقد ادركت مرادي من هذا كلهِ وعلمت ان الواجب عليك للدين والوطن والامة يقضي بقبولكِ لوسيان زوجاً لك على الفور بلا تردد ولا ابطاء لان الضرورة اشد مما تظنين والوقت لا يسمح بالتأخر . وبعد ثلثة ايام سنزحف على قيصريَّة وعسقلان ويافا ومن ثم نتقدم الى القدس . فلك ثلثة ايام تستعدين فيها للاحتفال باقترانك بهِ "

فاجابتهُ متيلدة برصانةٍ وتجلدٍ : —

" اشكرك لانك امهلتني ثلثة ايام . وهذه المدّة يجب ان اقضيها بالعزلة والانفراد للتأمل والاستعداد حتى اتمكن من القيام بهذا الواجب العظيم . فما اظنك تبخل عليَّ بمفتاح قبر مونمورانسي هذه المرةً فقط "

" هذا هو . خذيهِ ولا تنسي اني لن اسمح لكِ بعد الآن بدخول ذلك المكان "

وبعد خروج أخيها دعت اليها هرميون واوصتها بأن تقفل الابواب الليل كلهُ ولا تسمح بالدخول لاحد ولو كان رئيس اساقفة صورٍ وان تكون مركبتها في الصباح معدة للذهاب بها الى قبر مونمورانسي

الفصل الحادي والاربعون

عبرة وذكرى

وفي الصباح دخلت هرميون الى متيلدة واخبرتها بان كل شيء معدٌّ لانطلاقها . فخرجت على الفور الى حيث كانت المركبة تنتظرها وسارت بها الى سفح الربوة فنزلت منها وصعدت الى القبر وفتحت بابهُ ودخلت ومن شدة اضطرابها وهياجها غفلت عن إغلاق الباب وراءها فظلَّ مفتوحاً الى نصفهِ وغفل الملك العادل ايضاً عن هذا الامر وخفَّ الى استقبالها فاشاحت عنهُ وقالت لهُ : —

" اتركني . اتركني "

ثم جثت امام تابوت مونمورانسي وصاحت بين التنهد والزفير : —

" هنا يا الهي كل شيء ناعم بظلال الراحة والسلام . فالسلام مخصوص بالمقابر . لكنَّ

قلبي قبر آمالي وسعادتي ولا راحة ولا سلام فيهِ : — لماذا دعوتني الى هنا ايها الملك العادل؟ ماذا تريد مني ؟ هل تروم ان تطلعني على مكروهٍ آخر ؟ ما وراءك من الكوارث التي خبأها لي القدر ؟ تكلم . أعلن مقاصدك . لقد حان الوقت لنهاية كل شيء "

فهالهُ ما رآهُ عليها من علامات الاضطراب وقال لها : —

" سكّني روعكِ قليلاً واخبريني بما أوجب انزعاجك "

فاطلعتهُ على تفصيل ما قالهُ رئيس الاساقفة لها وأمرها اخوها بهِ فقال لها : —

" لم يبقَ لكِ سوى امرٍ واحدٍ وهو ان تهربي معي . يجب ان ارجع بكِ غداً الى بلاط صلاح الدين "

فتنهّدت عنهُ وقالت : —

" غفر الله لك هذا العزم الباطل والرأي البعيد عن الحكمة والصواب ! "

فذكّرها ما عاهدتهُ عليهِ في البادية ووعدها بانها تكون شريكةً لهُ في الجلوس على عرش القدس ولها الحرية المطلقة في ممارسة عقائدها الدينيَّة وانهُ لا يتأخر حينئذٍ عن الانضمام اليها والاشتراك معها في ما تريدهُ . واطال الكلام في هذا الموضوع باذلاً جهدهُ في اقناعها وحملها على التسليم معهُ بالهرب وهي ساكتةٌ لا تجبر جواباً ولا تبدي اعتراضاً . فعدَّ سكوتها قبولاً وتسليماً وقال لها : —

" ارجعي الى عكاء واحرصي على كتمان هذا الامر حتى عن الملكة ورئيس الاساقفة وغداً اخرجي حسب عادتكِ للتنزهِ واجعلي سائق المركبة يسير الى جهة جبل الكرمل فلا يبلغ الكهف الذي على الشاطئ حتى تكوني قد نجوتِ . واذا لم توافيني غداً دخلت عكاء طالباً حياة لوسيان وربما حياة ... "

واعترض ثمة حديثهِ وقوف رئيس اساقفة صور في العتبة . رآهما وعرفهما وصاح على رغمهِ صياح الكره والاشمئزاز

فلم تفكر متيلدة الاَّ في الخطر المحدق بمن تحبهُ . ولهذا اندفعت الى رئيس الاساقفة وقالت لهُ بصوت اجشّ : —

" احذر يا ابتِ ! فانَّ كلمة واحدة تكفي للقضاء عليهِ ! تعالَ لنخرج من هنا مسرعين قبل أن يصل حرّاسي الذين ذعرهم صراخك ويبغتوهُ — الوداع ايها الملك العادل ! "

وما خرجت برئيس الاساقفة واغلقت الباب وراءها الاَّ وحرّاسها قد اقبلوا ملبين نداء الاستغاثة الذي سمعوهُ فصرفتهم قائلةً لهم ان الصوت نشأ عن توهم خطر على حياتها

اما رئيس الاساقفة فعلى رغم شدة ثقتهِ بطهارة متيلدة ونمو شرف الملك العادل لم يستصوب اجتماعهما . وبعد التأمل والافتكار بدا لهُ أن يعدل عن الكلام في وعظ متيلدة وارشادها الى ما هو اوقع واشدُّ تأثيرًا فقال لها وهي على اهبة الدخول الى مركبتها : —

" اراكِ مسرعةً في الرجوع على خلاف عادتكِ . ان الوقت يسمح لكِ اذا اردت ان تصحبيني قليلاً الى احد الاكواخ وراء هذا الصخر الكبير الذي امامنا "

فاشارت اليهِ بالقبول وسارا معًا حتى بلغا كوخًا حقيرًا كان على بابهِ عجوز تغزل وبجانبها اربع بنات صغيرات يعملن سلالاً فاجتازاهُ الى كهفٍ وراءهُ واذا بصراخ حاد يمزق الآذان وامرأة مطروحة على بابهِ تقرع صدرها قرعًا عنيفًا وتولول في العويل . فقبضت متيلدة بيديها على ذراع رئيس الاساقفة واسرَّت اليهِ والخوف آخذ منها كل مأخذٍ : —

" هذه اغنس ! "

" نعم . ففي عهد فضيلتها كانت مثلكِ جميلةً وبها افتخر شعبها وتباهى آلها . لكنها لما استسلمت لاميالها هوت من يفاع مجدها وحال لون جمالها وزال ظلُّ عظمتها ولم يبق من ابنة اموري الشهيرة سوى مظاهر جنونٍ بادية لعينيك ... "

وكان صوت الصراخ يعترض كلامهُ وهو آخذ في الاشتداد ومردّد لذكر الملك العادل . فتوسلت اليهِ متيلدة ان يعود بها لانهُ لم يعد في طاقتها الصبر على هذا المشهد المخيف . فرجع بها من حيث اتى ودعا اليهِ العجوز التي اقامها على حراسة اغنس واوصاها بها واعطاها مبلغًا من من الدراهم وسار بمتيلدة الى حيث كانت المركبة في انتظارها فادخلها اليها وجلس بجانبها وقص عليها قصة اغنس فقال : — " انها بعد فرارها من المعركة التي انتهت بموت مونمورانسي حاولت مرارًا لا تحصى ان ترى الملك العادل فلم يسمح لها . ولما بلغها خبر قدوم الوفد الى عكَّاء لاجل خطبتكِ فارقها صوابها وجُنَّت . وقد لقيتها في قيصريَّة كما شاهدناها الآن فسعيت باحضارها الى هذا المكان واملي ضعيف جدًّا بشفائها "

الفصل الثاني والاربعون

الهرب الى الدير

وبالجهد تمكنت متيلدة من الحصول على شيء من الراحة التي كانت في اشد الاحتياج اليها حتى ارسل اليها اخوها الملك رتشرد يقول انهُ قادم لزيارتها ومعهُ لوسيان . فقالت في نفسها : —

" ارى انهُ لا بدَّ لي من المواربة والمداجاة لانهما سلاح العاجز المظلوم في هذا العالم

الشرير ! اذًا سأداجيه وأداهن ولو على رغمي "

ثم جلست الى كتابة بعض اسطر لم تكد تفرغ منها حتى سمعت وقع اقدام اخيها ولوسيان فنهضت لاستقبالهما وعليها سمات الانفة والإباء . فاقبل لوسيان اليها وبعد ما حيّاها بما لا مزيد عليهِ من التلطف قال لها : —

" أيحقّ لي ان اعلّل نفسي بإمكان تنازلكِ لاجابة سؤلي ؟ "

" لولا ثقتك بذلك لما أقدمتَ يا سيدي على المجيء الى هنا "

ثم التفتت الى اخيها وقالت : —

" تذكّر انك عينت لي يومين اقضيهما في الاستعداد . وهذا حسبي فلا استزيدك شيئًا سوى ان اقضي هذا الوقت الوجيز وحدي على انفراد "

وقبلما يتمكن رتشرد من الجواب سبقهُ لوسيان فقال : —

" ليكن لكِ ما طلبتِ وساتحمّل عناء فراقكِ في هذين اليومين بالصبر ولا اكدّر صفاء انفرادكِ . "

ثم حيّاها وخرج . فالتفت اليها رتشرد بعين التبرّم والاستياء وقال لها : —

" استعدّي لقبول ما اوجبتهُ عليكِ — الاقتران بلوسيان — في الوقت المعين — بعد يومين . واياك ان تحاولي تأخير ذلك دقيقة واحدة "

وخرج على الفور من غير ان يمهلها دقيقة للجواب . على انّ تهديدهُ لم يكن لهُ اقلّ تأثير فيها ولم يثنها عما عزمت عليهِ قبل مجيئهِ اليها

وفي الصباح التالي نهضت عند شروق الشمس وخرجت في مركبتها حسب عادتها وامرت السائق ان يسير في طريق البحر الى المكان الذي عينهُ لها الملك العادل . فلما بلغتهُ لقيها رجلان بالسلاح الكامل فاحاط بها حرّاسها واستعدّوا للدفاع عنها واماط الملك العادل اللثام عن وجههِ ودخل بينهم فلما رأوهُ وعرفوهُ وقفوا من شدة خوفهم جامدين لا يبدون حراكًا . فالتفتت اليهم متيلدة وقالت : —

" خلوا عن المقاومة فانها لن تجديكم نفعًا . واعلموا اني بارادتي واختياري سمحت للملك العادل ان ينقذني من سلطة جائرة كادت تكرهني على اقترانٍ يروعني مجرّد افتكاري بهِ "

ثم التفتت الى الملك العادل وقالت : —

" وعدتك ايها الملك ان اوافيك الى هنا وقد وفيت بوعدي . ووعدتك ايضًا ان اهرب معك وها انا مستعدة لذلك . فلا تنس انت ايضًا ان تفي بوعدك لي وهو اني اعيش حيث انا

ذاهبة عيشة الزهد التام والانقطاع المطلق فلا ارى احداً ايًّا كان ولا يمنعني احد من القيام بواجباتي الدينيَّة كما أُريد "

"سيكون لكِ كل ما طلبتِ"

" هل يؤذن لي ان اختار المكان الذي انقطع فيهِ ؟ "

" نعم "

فاشارت الى الدير الذي على قمة جبل الكرمل وقالت : —

" خذني الى هناك فانهُ المكان الوحيد الذي فيهِ استطيع ممارسة واجباتي الدينيَّة بعيدة عن كل انسانٍ "

" لقد خدعتني يا متيلدة "

" كلاَّ لم اخدعك . ولا يخفى عليك اني بذهابي الى الدير اعيش مكرَّمةً من الناس ومباركةً من الله اما انطلاقي معك الى بلاط صلاح الدين فيقضي عليَّ بالملامة وابقى مدى حياتي عرضة لتوبيخ الضمير . ولقد فوَّضت امري اليك فاختر لي ما يحسن في عينيك "

فصعد الملك العادل الى مركبتها وادارها في طريق الدير حتى اشرفوا عليهِ فقال لها : —

" لقد اطعتكِ ولست بنادم على ذلك على رغم ما اتحملهُ من العناء في سبيل مقاومة اميالي والتغلُّب على عواطفي . على اني اخاف ان الذين انقذتكِ من ايديهم يتبعونكِ الى هنا ويرجعون بكِ الى عكاء ويكرهونكِ على الرضوخ الى حكمهم الظالم الفظيع "

" لا لا تخف . لا يجسرون ان يتعدوا باب هذا الحرم المقدس . انهُ بيت الله وما من احدٍ على الارض يقدم على انتهاك حرمتهِ المقدسة "

واذ ذاك بلغت المركبة مرتفعاً لم يمكنها اجتيازهُ فوقفت ونزلت متيلدة منها واوعزت الى حرَّامها ان يصحبوها الى ابواب الدير وخيَّرت نساءها فاخترنَ البقاء معها على الرجوع الى عكاء ومدَّت يدها لوداع الملك العادل فابى الاَّ ان يوصلها الى بوَّابة الدير . فلما بلَّغتها حيَّتهُ تحيَّة الوداع ودخلت وعاد الملك العادل وخالد الى حيث تركا جواديهما فامتطياها وبعد بضع ساعاتٍ كانا في قيصريَّة

وكان صلاح الدين يتوقع رجوعهما بفروغ صبر فلما خلا باخيهِ قال لهُ : —

" ساترك السؤال عن الاسباب التي حالت دون مجيء متيلدة معك الى فرصة اخرى . اما الآن فاخبرك باني ذاهب لتحصين عسقلان وساترك قيصريَّة في يديك وقلبي مطمئنٌّ من جهتها ما دام حسامك مسلولاً للذود عنها

الفصل الثالث والاربعون

" لستُ بصافحٍ عنها ! "

ولما رجع حراس متيلدة الى عكاء وجدوا الاضطراب عاثاً بالمعسكر واليأس مخيماً على لوسيان والغيظ آخذاً كل مأخذٍ من رتشرد والحزن والجزع متمكنين من الملكة ورئيس الاساقفة وكانوا قد استبطأوا متيلدة ولم يعرفوا شيئاً عن غيابها حتى دخلت الملكة الى مخدعها ورأت على مكتبتها كتاباً معنوناً باسم اخيها رتشرد فاخذتهُ الى رئيس الاساقفة وطلبت اليهِ ان يوصلهُ الى الملك فسار بهِ الى رتشرد ورفعهُ اليهِ فتناولهُ بغضبٍ لامزيد عليهِ ومزَّق غلافهُ بيد الحنق وقرأ فيهِ ما ترجمتهُ : —

" برحت عكاء لانجو من سلطةٍ جائرة تعدَّت حدود العدل واتخلص من اقترانٍ لا اريدهُ ولا ارضاهُ . اني عالمة بتأثير فراري في اخي فلا اطمع بصفحهِ وغفرانهِ ولكنَّ الله الذي يقرأ ما في ضميري ويعلم طهارة قلبي لا يخل عليَّ بصفحهِ وغفرانهِ "

ولما فرغ من تلاوتهِ صاح باعلى صوتهِ : —

" صدقتِ صدقتِ . فلست بغافر لها ولا صافح عنها ! "

وظلَّ رتشرد ولوسيان وباقي الملوك والامراء على ما ذكرنا من الهياج والاضطراب الى مغيب الشمس حين رجع حرَّاس متيلدة واخبروا باجتماعها بالملك العادل وانقطاعها في دير الكرمل

فأعجب بعضهم بصدق عزمها واستحسنوا ترفعها عن قبول عرشٍ محفوف بالخلاف الديني وكان بعضهم مستعدين لان يعذروها ويصوبوا عملها لو قبلت ما عرضهُ صلاح الدين ورفضهُ مجلس الاساقفة ونجت من اقترانٍ تكرههُ بالهرب مع من تحبهُ . لكن اصدقاء رتشرد ولوسيان عابوا تعلقها بالملك العادل ورفضها زواجاً اوجبتهُ مصالح الكنيسة . اما رتشرد فساءهُ جداً ان يرى هذا العصيان من شقيقتهِ واعلن عزمهُ على الذهاب في الغد الى الدير واخراجها منهُ واكراهها على الاقتران بلوسيان . فاعترضهُ رئيس الاساقفة بقولهِ : —

" لا يخفى على جلالتك ان قوة الله اسمى من قوتك . وبيتهُ حرم مقدس لا يحل لك ان تدخلهُ على هذا الوجه . وخيرٌ لنا ان ننسى اميرة انكتره ونعدها كأنها لم تكن ونهتمَّ بما فارقنا اوطاننا واجتمعنا هنا لاجلهِ . هوذا قيصرية امامكم ! والملك العادل حاميها ! فهلمَّ بنا اليها "

وحينئذٍ رأى رتشرد ان يرسل الملكة الى الدير لتكون مدة غيابهِ في أمنٍ من غزوات العرب وغاراتهم فارسلها مع رئيس الاساقفة واوصاهُ ان يبذل جهدهُ في اقناع شقيقتهِ بالرجوع الى طاعتهِ

ولما بلغ رئيس الاساقفة الدير دعا الراهبات اليهِ واطلعهنَّ على سبب مجيء متيلدة والملكة اليهنَّ وبعدما اوصاهنَّ بالصلاة لاجل نجاح البعثة ونصرتها صرفهنَّ وخلا بمتيلدة وقال لها

" لو اطلعتني على قصدكِ وكلَّفتني ان أُساعدكِ على إتمامهِ لدللتكِ على طريقةٍ اليق بكِ واضمن لحفظ شرفكِ فكنتُ اصحبكِ بنفسي الى هنا وأُخبر العالم باني مطَّلعٌ على مقاصدكِ وموافقٌ على مقاومتكِ لاخيكِ في ما طلبهُ منكِ . على انَّ إصراركِ على طلب الاقتران بالملك العادل بعدما رفض شروطنا يعدُّ اثمًا عظيمًا وذنبًا لا يغتفر . وبعبارةٍ اخرى اقول لك اني موافق على رفضكِ الاقتران بلوسيان اذا كنتِ لا تنوين الاقتران بالملك العادل "

" اني مرتبطة بوعد لا اعلم كيف اتخلَّص منهُ . فاذا كنتَ تحلّني من هذا القيد فاني اودع كل ما في هذا العالم وافضي غابر حياتي ضمن هذه الاسوار منسية من جميع بني جنسي كاني في قبر وما لا تراهُ عيونهم يسهل على قلوبهم نسيانهُ "

ثم اطلعتهُ بالتفصيل على جميع الحوادث المهمة التي جرت منذ برح عكاء الى قيصريَّة واخبرتهُ بكل ما عرض لها من المصاعب والمقاومات . فشكرها من صميم فؤادهِ على شدة اهتمامها بسلامتهِ وارسالها الملك العادل للتفتيش عنهُ والسعي في انقاذهِ من مخالب الموت ولكنهُ لم يستطع السكوت عن لومها على استخدام الملك العادل في هذا السبيل واضطرارها الى وفاء دينهِ بما هو اعزُّ منهُ واغلى اذ حملها على ان تعدهُ بانها لا تستعيد نذر البتولية الاَّ برضاهُ وارادتهِ . ثم اوصاها بان تستودع الله نفسها وتخضع الخضوع التام لقوانين الدير وعاداتهِ وتجاري الراهبات في الملابس والمآكل وفروض الصلاة وطرق العبادة وغيرها

الفصل الرابع والاربعون

معركة قيصرية

وكانت قيصرية قد تمنعت بأسوارها وحصونها وابراجها وخنادقها وعزَّت فوق هذا كلهِ بقائد حاميتها البطل المغوار الملك العادل فلم تعبأ برؤية جيش الافرنج كلهِ زاحفًا لمحاصرتها

وتوسَّل العرب غير مرةٍ الى الملك العادل ان يسمح لهم بالحمل على محاصريهم والايقاع بهم فأبى لانَّ امانتهُ لاخيهِ قضت عليهِ بوجوب الدفاع عن قيصرية ولكنَّ حبهُ لمتيلده اوجب عليهِ تجنب سفك دماء الافرنج — وهذا الاعتبار الاخير المكتوم في اعماق صدرهِ لاح تأثيرهُ في اعمالهِ وتصرفاتهِ فظهر عليها شيءٌ من التحرز والتوقي وهذا فسرهُ الافرنج خوفًا

وجبناً فطمعوا بهِ وزادت جرأتهم عليهِ وواصلوا الحمل والهجوم على الاسوار ورتشرد ولوسيان في مقدمتهم حتى ثغروا جانباً من السور الشرقي واقتحموهُ غير هيابين . واذا بسورٍ من خشب مدهون بزيت النفط قد أُقيم وراءهُ وأُشعل فالتقد التقاداً مخيفاً . وفيما هم يستعدّون لاجتيازهِ ابصروا وراءهُ سوراً ثالثاً مؤلفاً من نخبة رجال العرب ومعهم قائدهم الباسل الملك العادل . فاخذتهم كلهم رعدة عظيمة وسرى خوفهُ من صف الى آخر حتى اركنوا جميعهم الى الفرار على رغم اجتهاد قوادهم وضباطهم في منعهم عنهُ . واذ رأى رتشرد ولوسيان انهما بقيا مع بعض رجالهما الامناء عرضة لخطر الاسر لم يجدا بُدًّا من التقهقر فرجعا الى المعسكر يواريان عار فشلهما وينظران في تدبير آخر

وكأنّ رجال الافرنج شعروا بالعار الذي لحقهم من جراء انكسارهم فعزموا على الثبات بنفسٍ واحدة . وقضوا اياماً في التأهب والاستعداد لمعركة يحرزون فيها نصراً مجيداً ينسيهم عار انكسارهم . وفي اليوم المعين صوّب رتشرد ولوسيان ودوق برجندي حملتهم على جهة معينة وقد اعانتهم الكباش والمجانيق وغيرها من معدات الدك والتدمير على هدم البرج الذي هاجموهُ وانصبت وراءهم كماة الافرنج يزحمون بعضهم بعضاً لاحتلالهِ ولكن العرب القوا فيهِ اكداساً من الهشيم واشعلوها وتصاعد عنها سحب دخان كثيف كادت تخنق المهاجمين ولما اضمحل الدخان انكشف وراءهُ سورٌ منيع مرصوص بالرماح والحراب والمزاريق وقد أُقيم على غاية ما يستطاع من الضبط والاحكام حتى ان الناظر اليهِ لا يستطيع ان يرى واحداً من الرجال الذين اقاموهُ . وقد حاول الافرنج عبثاً وباطلاً ان يتقدموا ويخترقوهُ فصدوا ولم يستطيعوا . وكان رتشرد قائماً بجانب لوسيان فقال لهُ : —

" ان هذا المانع الذي اعترضنا الآن لم يخطر قط ببالنا . لكن قيصرية لا بُدَّ من اخذها على كل حالٍ . فلنقتحم هذا السور امام رجالنا واذا لقينا حتفنا بهِ فقد نفيد الهاجمين وراءنا ونعدُّ لهم سبيل اختراقهِ "

فصاح لوسيان برجالهِ وقال : —

" ان اكاليل الاستشهاد وراء هذا السور واذا اردتم الحصول عليها فاتبعوني "

ثم حمل على السور وتبعهُ رجالهُ على الاثر ولكنهم اخذوا يسقطون في اسفلهِ صفًّا بعد صفٍّ حتى اضطر لوسيان الى النكوص وهكذا فعل دوق برجندي

اما رتشرد فكان قد نفذ من ثغرةٍ الى خندق وقام فيهِ وحدهُ مكافحاً مجالداً وقد انساه تحمّسهُ انهُ اصبح وحدهُ . فلما رآهُ العرب عرفوهُ واخذوا ينادون بعضهم بعضاً : —

" هذا ملك انكلترة ! هذا قلب الاسد ! "

وقال واحدٌ وقد عرفهُ الملك جيداً : —

" هذا رتشرد ! رتشرد على الاقدام ! إئتوهُ بجوادٍ ! "

فاطاعوا امر قائدهم واتوا الملك بجواد كريم ورجعوا الى المدينة حيث كان الملك العادل مشغولاً بترميم الاسوار المتهدّمة . وعاد رتشرد الى المعسكر يتعثر باذيال الخيبة والفشل وقد اذلهُ الانكسار وأحفظهُ تفضل عدوهِ عليهِ بمعروف جديد

ووقف لوسيان في خيمتهِ يغشاهُ الدم والغبار ويقلبهُ الغيظ على احرٍّ من النار واخذ يفكر في امرهِ فرأى ان شجاعتهُ كذبتهُ ولم تمكنهُ من نيل الظفر الذي علل نفسهُ بهِ وعزم ان ينالهُ بوسائط اخرى يخفيها عن رتشرد لعلمهِ انهُ ينكرها عليهِ ولا يسمح بها اذا غايرت قوانين الشرف ولو آلت الى فتح القدس

ولكنهُ مع هذا كلهِ عزم على استخدام هذه الوسائط ولما دخل اليهِ ملك انكلترة لم يكلمهُ شيئاً بخصوصها بل قال لهُ : —

" لا فائدة من محاولة استئناف الهجوم . ومن الواجب علينا ان نطلب في مكانٍ آخر انتصاراً مهمًّا يشدّد عزائم رجالنا . وهذا يقضي بقسمة قواتنا وتحوُّل احدنا لمهاجمة صلاح الدين وبقاء الآخر هنا يرقب حركات الملك العادل ويحول دون خروجهِ لنجدة اخيهِ . فازحف بجيشك على صلاح الدين وانا القى الملك العادل "

فوافقهُ رتشرد على هذا الرأي واطلع بقية القواد عليهِ وانقسم الجيش الى قسمين قسم تولّى رتشرد قيادتهُ وخرج بهِ الى جهة عسقلان . والقسم الآخر جعلت قيادتهُ العامة بيد لوسيان واقام الافرنج في معسكرهم منقطعين عن الهجوم وانتهز الملك العادل هذه الفرصة فاكبَّ على اصلاح ما تهدّم من الاسوار والحصون

وفي ذات يوم نزل بعض جنود العرب الى خندق للترميم فلقوا احد جنود الافرنج قائماً هناك يراقب حركاتهم فقبضوا عليهِ واتوا بهِ الى اميرهم . فلما رأى الملك العادل اضطرب جداً فظنَّ الملك العادل ان اضطرابهُ ناشئٌ عن الخوف فاحتقرهُ وقال لهُ : —

" اليس في معسكر الافرنج جنديٌّ اربط منك جأشاً واشدُّ بسالةً وإقداماً فيرسل في هذه المهمة الخطيرة ؟ "

" ان اضطرابي لم ينشأ يا مولاي عن خوفي على حياتي التي لا قيمة لها بل عن توبيخ الضمير لخيانةٍ ذكرتها حين رأيتك ! "

" اية خيانةٍ تعني ؟ تكلم "

" يجب ان احدثك على انفراد "

فاومأ الملك العادل الى الحاجب الواقف امامهُ ان ينصرف وألقى العربيُّ نفسهُ عند قدميهِ وقال بلهجة ذل وانكسار يقطعها التنهد : --

" لا استحق الحياة بعدما شاهدت بعيني اذلال متيلدة . ولا بدَّ انها الآن تلومك اشد اللوم على تأخرك عن اغاثتها وانقاذها ! "

" اختصر وصرّح ! "

" اخاف غضبك فلا اجسر ان اصرّح "

" منحتك عفوي . اسرع في الكلام واختصر "

" شكرًا لك يا مولاي . لعلهُ لم يفت وقت التدارك والتلافي "

" خلِّ عنك الاطالة والتفصيل واخبرني بالاختصار فقد فرغ صبري "

" لما رأى رتشرد انهُ لا فائدة من تكرار الحمل والهجوم على اسواركم زحف بنصف الجيش على عسقلان ليباغت السلطان ويحو عار هزيمتهِ من وجههِ . وظل لوسيان قائد الجيش العام في المعسكر

" وبعد انطلاق ملك انكتارة اخبر لوسيان قادة الجيش قائلاً ان رتشرد سيعرّج في طريقهِ الى عسقلان على دير الكرمل حيث ينتظر مجيئي ويرئس احتفال اقتراني باختهِ الجميلة فننتقم كلانا من الملك العادل ونقضي على آمالهِ

" وشخص لوسيان الى دير الكرمل مصحوبًا ببعض الحرّاس الذين كنت واحدًا منهم . وقد كذب على قادة الجيش وضباطهِ . وسعى بابعاد رتشرد ليتمكن من اتمام مقاصدهِ . وقد شاهدتهُ بعيني منتهكاً حرمة الدير ورأيت اميرة انكتارة واقفة بين يديهِ خاشعة ذليلة وهو سادٌّ اذنيهِ عن سماع توسلاتها . وقد أمر ان تزين كنيسة الدير وتعدَّ للاحتفال بصلاة الاكليل في الغد

" ولما رأيت هذا كلهُ هاجت بي عاطفة المروَّة والشفقة على تلك المنكودة الحظ وقلت لعلي اتمكن من السعي في انقاذها مما يتهددها . ولهذا لم البث ان خرجت تحت جنح الظلام اجدُّ السير حتى بلغت اسوار قيصرية وطفقت اطوف حولها متوقعاً بفروغ صبر ان يقبض عليَّ احد رجالك ويحضرني اليك . واعظم جزاء اتوقعهُ منك هو ان تأذن لي في البقاء في قيصرية لكي انجو من عقاب لوسيان واتمكن فيما بعد من القيام بخدمة سمو الاميرة متيلدة "

فوعدهُ الملك العادل باجابة سؤلهِ وتلطَّف جدًّا في شكرهِ والثناء عليهِ ولما اقبل الليل دعا اليهِ خالدًا ومحمدًا اشدّ رجالهِ اخلاصًا وامانةً وقال مخاطبًا ثانيهما : —

" انَّ امرًا ذا شأن يستدعي غيابي عن قيصرية مدة يومين وساقيمك على حراسة المدينة والدفاع عنها . وقد بلغني من مصدر يوثق بهِ ان رتشرد ولوسيان غائبان عن المعسكر وان الافرنج لا يجسرون على الهجوم مدة غيابهما . واما انت يا خالد فانتخب لي ثلثين رجلاً من افضل رجالي امانة وشجاعة واقدامًا واعدهم لعمل محفوف بالمخاطر لاني عازم على مهاجمة عدوّي اينما وجدتهُ ولو كان مخفورًا بالوف من الابطال الصناديد "

الفصل الخامس والاربعون

اختطاف متيلدة

وما ابطأ خالد ان اعدّ الثلثين فارسًا واتى بهم الى الملك العادل فركب في مقدمتهم وقام ينهب الارض قاصدًا جبل الكرمل . وعند طلوع الفجر اقبل على الدير وكان من شدة عدوهِ واسراعهِ سابقًا لخالد وبقية رجالهِ . فاخذ بعنان جوادهِ ربثما لحقهُ خالد فقال له مشيرًا نحو الدير : —

" ان لوسيان هناك "

" اوَ لاجلهِ جئتَ الى هنا "

" جئتُ اطلبهُ لاعاقبهُ على كذبهِ وانقذ متيلدة من يدهِ "

" لو علمتُ هذا في قيصرية لما وافقتك ان تجيء الاَّ على جثتي "

فلم يحفل الملك العادل بكلامهِ بل ظلَّ يعدو مسابقًا البرق ورجالهُ يجرون وراءهُ حتى بلغوا الدير واخترقوا حجاب السكوت السائد هناك بصليل اسلحتهم وخفق نعالهم وكانت بوابتهُ الكبيرة مقفلة فامر الملك العادل بفتحها ودخل يجوس خلالهُ مفتشًا لعلهُ يجد اثرًا لعدوهِ واخذ يصغي فلم يسمع سوى اصوات ترنيم الراهبات فسار في جهة الصوت حتى بلغ كنيسة الدير فدخلها فرآها مزدانة بالرياحين والازهار ومغشاة بدخان البخور ومنارة بالشموع . وكان رئيس اساقفة صور قائمًا بحلتهِ الاسقفية ويداهُ ممدودتان كانهُ يبارك الراهبات الجاثيات امامهُ بحلل سود وفي وسطهنَّ متيلدة قائمة بحلةٍ بيضاء

ولم يتعوَّد الملك العادل رؤية مثل هذه الشعائر من قبل فظنها من شعائر الزواج الذي أُنذر بهِ . نعم انهُ لم يرَ لوسيان هناك لكنهُ ظنَّ ان ساعة حضورهِ في الاحتفال لم تأتِ بعد

نخانهُ الصبر ولم يعد يمكنهُ الاحتمال وزعق زعقة اصدت لها جوانب الدير واندفع الى الامام ورجالهُ وراءهُ وهو يصيح : —

" اني هنا يا لوسيان ! تعال خذها من يدي ان استطعت ! "

ثم تقدم دائساً او طارحاً كل ما اعترضهُ في طريقهِ حتى بلغ المذبح حيث التجأت متيلدة من شدة الخوف فحملها بين ذراعيهِ وصاح : —

" اخرج ايها الامير الكاذب والملك المنافق . اخرج من مخبإك فان الملك العادل في انتظارك : "

ووقف ينتظر مجيء عدوهِ وسيفهُ مسلولٌ وشرر الغيظ يتطاير من عينيهِ لكن لوسيان لم يأتِ . فارتاب الملك العادل من امرهِ واوجس خوف مكيدةٍ . فرجع ادراجهُ بما استطاع من السرعة ورئيس الاساقفة واقف كأنهُ مصعوق لا يبدي ولا يعيد والراهبات تفرقن في جوانب الدير شذر مذر من شدة الخوف والذعر

ولما بلغ سفح جبل الكرمل رأى ينبوع ماء باردٍ فانزل متيلدة عندهُ وغسل وجهها فأفاقت من اغمائها وفتحت عينيها بما لا مزيد عليهِ من الدهشة والاستغراب وبعد ما استرجعت شيئاً من رشدها وصوابها قالت للملك العادل : —

" ماذا فعلت ؟ "

" انقذتكِ مرة ثانية "

ثم جاءهُ خالد وحذرهُ عاقبة الاقامة في هذا المكان فنهض بالاميرة الى جوادهِ وامر رجالهُ بالمسير . فقالت لهُ متيلدة : —

" ما هو الخطر الذي تهددني وحملك على انتهاك حرمة هذا الدير ؟ "

" لوسيان العازم على اختطافك "

" لم ارَهُ قط منذ برحتُ عكاء واذا صحَّ ما قالهُ رئيس الاساقفة فانَّ اخي عدل عن اكراهي على زواج لا ارضاهُ وترك لي حريَّة وقف حياتي لخدمة الله "

" اذاً لا صحة لما قصهُ عليَّ احد جنود الافرنج من جهة عزم لوسيان على تزوجك عنوة على رغمك ؟ "

" لا صحة لهُ على الاطلاق . وليست قصتهُ سوى مكيدة كادوها لك "

" وفاكِ الله شر طيشي ! لا بدَّ ان يكون اعدائي كامنين لنا في الغابة التي امامنا . واخاف ان اذهب بكِ الى قيصرية . ولا فائدة لنا من محاولة الرجوع من حيث اتينا لانهم لا بدَّ

ان يكونوا قد احدقوا بجبل الكرمل . هذا فضلاً عن انهُ لا يمكنني ان اطيل مدة غيابي عن قيصرية التي اودعني اياها اخي . فاين اذهب ! اين اواري خجلي ! "

ثم وقف ودعا اليهِ خالدًا واستشارهُ في امرهِ لعلهُ يرى لهُ رأيًا مفيدًا وبعد التأمل والافتكار قال خالد : —

" اذا لم تخني ذاكرتي فلا خوف علينا . فاني اعرف مغارة كبيرة طويلة مقابل معسكر الافرنج عند طرف قيصرية الغربي . فاذا ذهبنا اليها دخلناها وبلغنا المدينة منها سالمين آمنين "

" قال الملك العادل اذا لم يكن وسيلة اخرى للنجاة فلنسرع اليها جهدنا "

فتحولوا عن الطريق التي كانوا سائرين فيها واتجهوا جنوبًا وساروا في غابة كثيفة بين الادغال والاشواك وقضوا ليلهم والنهار التالي في قطع السهول الشاسعة التي بين الرملة وقيصرية وقاسوا من المشاق والاتعاب ما لا يوصف حتى كاد يقضي عليهم جميعًا من شدة الاعياء وفرط الجوع والعطش . واخيرًا بلغوا المغارة وهم على آخر رمق وبعد ما استراحوا فيها قليلاً اخترقوها وانتهوا الى منفذ منها يؤدي الى قيصرية فاشرفوا عليها من جهة بوابة عمر ورأوا اعلام العرب على الاسوار والجوامع والى الشمال معسكر الافرنج في هدوء وسكون والقمر خالع على المدينة وضواحيها حلهُ الفضية

ولما بلغوا بوابة عمر قرعوها باسم الملك العادل ففتحت لهم على الفور ولقيهم رجال مسلحون قائمون بحراستها وهم في زيّ العرب وشكلهم . فحيّاهم الملك العادل فرحًا مسرورًا وقال لهم : —

" يسرني جدًا ان اراكم سالمين آمنين وان يدي رتشرد ولوسيان لم تصبكما باذًى "

وما كاد ينتهي من كلامهِ حتى اطبقوا عليهِ وعلى رجالهِ من كل جانب وجردوهم من اسلحتهم بسرعة لم تمكن احدًا منهم من الدفاع عن نفسهِ بضربةٍ او طعنةٍ . فنظر الملك العادل حولهُ مأخوذًا بدهشة وحيرةٍ لا مزيد عليهما وقال — :

" اين انا ؟ "

فاجابهُ لوسيان من وسط رجالهِ المتنكرين : —

" انت في قبضة الافرنج — في يد لوسيان . وقيصرية ستيلدة لي وانت اسيري "

فسقط الملك العادل في يده ورأى جميع الوجوه التي حوّل نظرهُ اليها مشرقةً بنور الانتصار والفرح بسقوطهِ فنكس رأسهُ واسلم يديهِ للقيود التي امر لوسيان رجالهُ ان يوثقوهُ بها —

الفصل السادس والاربعون

"ذنبُ مَن اعظم ؟"

وفي صباح اليوم التالي جلست متيلدة في احدى غرف القصر الذي يسكنهُ لوسيان ملك القدس واذا بخادم يستأذنها في مجيء الملك اليها وقبلما تمكنت من ردّ الجواب بالرفض وعدم القبول جاء لوسيان على اثر خادمهِ ودخل الغرفة

فانتفضت الاميرة من شدة الكره والاشمئزاز وغشيت وجهها صفرة الغيظ والحنق ونهضت من كرسيها رامقة لوسيان بعين الاستفهام وقالت

" افانت يا ملك القدس سيد قيصريّة وصاحبها ؟ حقًّا انني لما شاهدت يدي باسل صنديد موثقتين بالسلاسل علمت يقيناً ان اخي غائب "

" ان الافرنج مديونون لي بهذا الانتصار الباهر واني لاعجب كيف ان الاميرة متيلدة لا تشاركهم في الفرح والابتهاج "

" كنت أُسرُّ جدًّا لو لم يكن شرفهم اعزّ اليّ من انتصارهم او لو لم يكن هذا الانتصار نتيجة الخيانة .... "

" بالجهد يستطيع اعداؤنا ان يشكونا شكوى امرءٍ من هذه "

" نعم ولكنها لا تزيد عما كان يشتكيهِ رتشرد لو كان هنا . فان نفسهُ الشريفة تقزُّ من خيانة كهذه . اوَ تظن انهُ لو كان قلب الاسد هنا كان يأذن ليديك ان توثقا يدي من احسن اليهِ وتفضّل غير مرقٍ عليهِ ؟ "

" لملكٍ تجهلين ان سلطتك عليّ محدودة والاَّ لم تجسري ان تعظّمي في مسمعي عدوًّا اصبح مرجع امرهِ في الموت والحياة اليّ "

لا ارهب جانبك في دفاعي عن الملك العادل . واراك تدعي ان سلطتي عليك سبب امتناعك عن ارتكاب عمل دنيء وحشيّ . وفي هذا الادعاء ما فيهِ من حطة الشأن التي لا ارضاها لك لانّ اميرًا مثلك يترفع حتى عن الافتكار بارتكاب جرم قبيح كهذا . وماذا يقول بقية امراء الافرنج ؟ الم يبقَ لهم حق ولا سلطة ولا رأي . هل يتركونك تتصرف في اعظم بطلٍ قام على الارض بما تشاء ؟ "

" انا وحدي سيد قيصرية واميرها وانا وحدي دبرت طريقة امرهِ "

" ما دمتَ انت السرّ في نجاح هذا المشروع الشريف فعليك اذًا يجب ان تلقى مسؤوليّة

انتهاك حرمة الدير الذي كنت لاجئة اليهِ لانهُ اذا كان الفعل لغيرك فالفكر لك وذنب من اعظم ؟ الامير العربي الذي ارتكبهُ ام الامير المسيحي الذي دفعهُ اليهِ ؟

" اعلمي يا متيلدة اني احبكِ حبًّا لا يستطيع ابلغ الكلام ان يعبر عنهُ . وقد حصلت عليكِ الآن فلا افارقكِ الاَّ بعد ما افارق روحي . ولا اكتمكِ اني بعد ما يئست من امتلاك محبتكِ واحترامكِ لم يبقَ لي ما اخش خسرانهُ او ضياعهُ سوى شخصكِ . وقد اصبح هذا الآن في قبضة يدي فلا ادعهُ يفلت مني . واعلمي ان الملك العادل موتًا يموت اذا لم تصيري لي هذه الليلة " . ثم دنا منها وقال لها : —

" قولي لي الآن . هل تختاريني زوجًا لكِ ؟ "

فابعدتهُ عنها بيدها وقالت : —

" لن اكون مدى حياتي ! ان موت الملك العادل نفسهِ ايسر خطبًا من ان اكون زوجة لك . " فقال لها " سأُريكِ ما افعلهُ بهِ "

قال هذا واتجه نحو الباب وتمثل لها هول ما هو مزمع ان يفعلهُ فاسرعت اليهِ وانطرحت عند قدميهِ وقالت : —

" ايها الامير القاسي الظالم ! اذا لم تأخذك شفقة على خصم اعزل ولم ترفق بمن تدعي انك تحبها فاشفق على نفسك . فهل تلطخ يديك بدم رجل اعزل ؟ هل تجور على من حلفت انك تذود عن جنسها ؟ "

" فقال لها اطلبي ما شئت . اطلبي حياتي . اطلبي كل ما امتلكهُ او ما ارجو ان امتلكهُ فيما بعد . اطلبي كل شيء ما عدا ابتعادي عنكِ ! "

واذ ذاك دخل احد ضباطهِ وقال لهُ : —

" لقد بلغ الامراء والضباط خبر امر الملك العادل فاسرعوا الى هنا وهم يطلبون ان يروك . " فالقى على متيلدة نظرةً ملأت قلبها خوفًا وخرج لملاقاة زائريهِ

الفصل السابع والاربعون

سجن الملك العادل

وكان الجندي الذي قبض عليهِ العرب واخذوهُ الى الملك العادل وقصَّ عليهِ تلك القصة الملفقة حامل سلاح لوسيان فلما نجحت حيلتهُ وانطلق الملك العادل من قيصرية ابلغ ملك القدس ذلك بسهم رماهُ الى مكان معين فجمع لوسيان جيوشهُ واخبرهم بعزمهِ على

استئناف الهجوم على قيصرية انتهازاً لفرصة غياب الملك العادل عنها . ثم انفذ رسولاً الى نائب الملك العادل يطلب مقابلتهُ ولما اجتمع بهِ قال لهُ : —

" اعلم يا محمد اني اتيتك بنفسي لأؤكد لك بانهُ لا بدَّ لك من تسليم المدينة اليَّ في الحال . واعلم ايضاً ان الملك العادل في قبضة يدي فقد لقيتهُ في الليل الماضي فجأة وهو خارج من المدينة واعتقلتهُ واني اطلب قيصرية في فدائهِ والاَّ قطعت رأسهُ . وقد امهلتك ساعة للتأمل والانتظار "

ثم انصرف وغادر نائب الملك العادل في حيرةٍ لا مزيد عليها . فجمع امراء المدينة وقصَّ عليهم الخبر فلم يروا بدّاً من تسليم المدينة افتداء لحياة اميرهم . ففتحوا ابواب المدينة للافرنج ودخلها لوسيان برجالهِ ثملين بخمرة الظفر . وكان اول شيءٍ عني بهِ انهُ حصر نائب الملك العادل في مكان معين ومنعهُ عن الخروج والدخول ثم امر بان لا يحدث اقلُّ تغيير في حالة المدينة الخارجيَّة ومظاهر معسكر الافرنج وان اعلام العرب تبقى خافقة على الاسوار والجوامع وان الحراس الذين على الحصون والابواب يتنكرون بزيّ العرب ويظلُّ الهدوء والسكون سائدين شاملين

فراب امراء الافرنج هذا التحوُّط والتحرُّز واشتمَّ منهُ دوق برجندي رائحة الخيانة فاستوضح من لوسيان فأبى وانكر عليهِ حق الارتياب في اخلاصهِ وذكرهُ اليمين التي حلفها بانهُ يطيعهُ مدة غياب رتشرد فاقتنع الدوق من هذا القبيل لكنهُ ابى دخول قيصرية قبل ما يقف على كيفيَّة فتحها وامر الجيش الفرنسوي الذي تحت قيادتهِ بان لا يبرح معسكرهُ

ثم بلغهُ بعد ذلك ان الملك العادل خُدع بمظاهر المدينة فدخلها مطمئنّاً ووقع غنيمةً باردة في يدي لوسيان الذي اذلَّهُ وامر بان يشدَّ وثاقهُ كاحد كبار المجرمين وحينئذٍ لم يرَ بدّاً من دخول قيصرية والاجتماع بدوق بافاريا والبرت نائب النمسا وغيرهما من امراء الافرنج الذين حثَّهم على وجوب سؤال لوسيان عما يروم ان يفعلهُ بالملك العادل . وقد وجد منهم كلهم اذاناً صاغية لحديثهِ وقلوباً مائلة لشد ازرهِ فذهبوا جميعهم الى قصر لوسيان وطلبوا ان يروهُ بعد اجتماعهِ باميرة انكلترة على ما مرَّ بنا

وقد افتتح دوق برجندي الحديث معهُ بلومهِ اياهُ على انتهازهِ فرصة تجرُّد الملك العادل من الاسلحة وبطشهِ بهِ . فاجابهُ لوسيان : —

" ليس لاحدٍ غير رتشرد حقٌّ ان يناقشني الحساب على ما فعلت "

" ولكن لا يخفى عليك اننا جميعنا ههنا واحدٌ والعمل المعيب الذي يشين واحداً منا

يشين الآخرين ايضاً والشرف يقضي عليَّ بالسؤال عما يدنس صحيفتنا البيضاء ولهذا أُلحُّ بوجوب الجواب على سؤالي من جهة ما تروم فعلهُ بالملك العادل "

" وماذا يكون حكمك عليهِ لو سلمت امرهُ اليك ؟ "

" ان يحل وثاقهُ ويطلق سراحهُ في الحال "

فوجه لوسيان حينئذٍ كلامهُ الى جميع الامراء وذكرهم مرارة الذل والانكسار والهرب التي تجرعوها مرةً بعد مرة في جميع المعارك التي خاضوا غمارها وكان الملك العادل يثير غبارها ويوقد نارها وانذرهم بما في اطلاقهِ من الخطر والضرر هذا فضلاً عن ان امر اطلاقهِ غير منوطٍ بهِ بل هو من حقوق رتشرد وقد ارسل يخبرهُ بذلك ليرى ما يأمرُ بهِ من جهتهِ . ثم عرض عليهم ان يرسل الملك العادل الى عكاء ليكون بعيداً عن ساحة الحرب حتى يصدر حكم الملك رتشرد في مسئلتهِ

وقد سبك كلامهُ هذا في قالب المداهنة والمواربة فخلب قلب سامعيهِ بسحر مكرهِ وخداعهِ حتى اجمعوا كلهم على قبول رأيهِ ولم يعودوا يرون وجهاً للمعارضة . وفي تلك الليلة أرسل الملك العادل مع فرقة من الجند الى عكاء

اما رئيس اساقفة صور فانهُ بعد ما تمكن من تسكين روع الراهبات وارجاع سلام الدير وراحتهِ الى نصابهما خرج يطلب الاميرة متيلدة ويسعى في انقاذها

وبعد ما سار مسافة ليست بقصيرة في طريق قيصرية لقي فصيلة من جند الافرنج يقيلون في غابة على جانب الطريق فمال اليهم وسألهم بعض مسائل لعلهُ يستفيد منهم شيئاً عن جهة مسير خاطفي متيلدة فاجابهُ قائدهم : —

" اعلم يا ابي ان قيصرية في يدنا . ولوسيان الآمر الناهي فيها واميرة انكلترة في قصرهِ ونحن الآن راجعون من عكاء بعد ما اودعنا الملك العادل غيابات سجونها "

ثم عرضوا عليهِ ان يذهب معهم الى قيصرية فأبى وشكرلهم معروفهم ودعا لهم بالسلامة فساروا وتركوه يرشف راحة المسرة بنبإ هذا الانتصار المجيد الذي حازهُ شعبهُ لكنهُ ساءهُ جداً سجن الملك العادل فذكر فضائلهُ ومحامدهُ وفضلهُ ومعروفهُ وتناسى زلاتهِ حتى جريمة انتهاكهِ حرمة دير الكرمل وعلى الفور أخذ عصاهُ بيده وسار قاصداً عكاء

ولما بلغ ابوابها علم بهياج الشعب الشديد ومحاولتهم كسر ابواب السجن للفتك بالملك العادل وان هذا الهياج كان بايعاز سري من لوسيان

فاسرع الى السجن وطلب الى السجان ان يذهب بهِ الى حيث كان الملك العادل فهبط

بهِ اقصى درك معدّ لكبار الجناة المجرمين وادخلهُ حيث كان الملك العادل وخرج فلما شعر الملك العادل بقدومهِ وتمكن من رؤيتهِ على رغم الظلام الدامس المخيم هناك قال لهُ :—

" اصحيح ان اسقف صور الصالح قادم اليّ ليزورني في ضيقتي "

" اتكل على الله فهو ينقذك ويعيد لك حريتك "

" لا يقدر ان يعيد اليّ شرفي الذي بفقدهِ وجدت انّ على الارض ما هو شرٌّ من فقدان متيلدة " . " ثق يا ابني ان الله قادر ان يردّ لك اضعاف ما فقدت "

" لا . لا . لم يبق لي في هذه الحياة سلام ولا رجاء . فقد خنت اخي وتخليت عن المدينة التي استودعينها واُخذتُ باشراك عدوّ خائن غدّار ثم القيت في اعماق هذا السجن مكبلاً بالقيود كادنى العبيد لأموت موت الاثمة الاشرار "

" لا لن تموت وقد سنحت لي فرصة لأُوفيك مالك عليّ واعيد لك حريتك "

"ولكن هل تعلم اني اذا خرجت من السجن انضمُّ الى اخي صلاح الدين لانتقم لي ولهُ واسترجع قيصريّة ؟ "

" لا حاجة لك ان تخبرني بهذا لاني لم اسألك عما تروم ان تفعلهُ "

فقبض الملك العادل على يديهِ قبضة حبٍّ واعزاز وقال لهُ : —

" اعلم يا ابي اني افضل ان اموت هنا على ان اخدعك . فهل انت باقٍ تروم اطلاقي بعد ما علمت اني عدوك ؟ "

" الست انت الذي انقذ حياتي في دمشق ويافا ؟ ألست انت الذي حل وثقي في دمياط ؟ ألست انت الذي ارجعني غير مرةٍ الى قومي الذين لم انفك عن حضهم وحثهم على القيام عليك وعلى شعبك ؟ فلماذا اكون دونك فضلاً واحساناً وكرم اخلاق وفي امكاني ان اكون مثلك ؟ والرحمة افيد لمصلحتنا من الغلبة والظفر "

ثم حلّ وثاقهُ وسار بهِ في سربٍ طويلٍ ينتهي تحت سور المدينة ولهُ هناك باب سريٌّ قديمٌ مجهولٌ حتى عند رؤساء السجون وحفظتها . فلما انتهيا اليهِ استعان بقوة الملك العادل على فتح بابهِ الحجري ثم عطف عليهِ وعانقهُ وقال لهُ : — " اذهب بسلام "

فقال لهُ الملك العادل والدموع تنهلُّ من اجفانهِ : —

" اني اكرم المعتقد الذي ينشىء مثل هذه الشمائل الحرة والفضائل الطاهرة التي فيك وفي متيلدة — قل لي الا ارى متيلدة بعد الآن ؟ "

" لن تراها بعد . انها لله . خلِّ عنك الافتكار بها "

" اذاً حيّها عني وقل لها اني اردُّ لها الوعد الذي اخذتهُ منها فهي في حلٍّ منهُ . واني اطلب اليها ان تقف نفسها لله . وهي ستدرك معنى كلامي هذا . الوداع ايها الاب الصالح . اني عاجز عن شكر ما لك عليَّ من الفضل والمعروف . واذا لم نجتمع في هذا العالم فلي ثقة انك تزور قبري وتذرف عليَّ دموع الحزن والاسف "

ثم خرج وعين الاسقف ترعاهُ حتى توارى عن نظرهِ فرجع ادراجهُ الى السجن وجلس حيث كان الملك العادل واذا بضجيج وصياح وزحام خارج السجن ثم فُتح الباب ودخل جماعة من السوقة السفلة على رغم توسلات السجان واندفعوا الى حيث كان الملك العادل طالبين البطش بهِ فوجدوا رئيس الاساقفة جالساً بملء الرصانة والاطمئنان ولما دنوا منهُ قال لهم : —

" من تطلبون ؟ "

" فقالوا انا صلاح الدين الذي ذبح نساءنا واخوتنا واولادنا والذي اختطف مدينة القدس منا "

" فقال ليس هو ههنا . وقد قمت مقامهُ . وجعلت نفسي مسؤولاً عنهُ . وها انا امامكم فافعلوا بي ما شئتم "

فتراجعوا عنهُ الى الوراء وابدوا شيئاً من الوقار والاحترام لكنَّ واحداً منهم تقدَّم وصاح : —

" من اطلق الملك العادل ؟ "

" فاجابهُ أطلقهُ من ارسلني لاعصب منكسري القلب لا نادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ! "

واذ كانوا يجهلون باب السجن السري الذي خرج الملك العادل منهُ بهتوا وتعجبوا ولم يشكُّوا في مداخلة الله في هذا الامر ولاح رئيس الاساقفة لعيونهم ملاك انقاذٍ وخلاصٍ مرسلاً من الله تعالى ليحول دون مقاصدهم الاثيمة فخشعوا واستكانوا وعادوا من حيث اتوا وكأنَّ على رؤوسهم الطير

الفصل الثامن والاربعون

" حقًّا اني مجرم اثيم ! "

كأني بامراء الافرنج وكبرائهم استاؤوا جدًّا من عمل لوسيان المهين المعيب فارادوا اخفاءهُ بما استطاعوا من المحامد والمكارم التي تسابقوا الى فعلها

وقد رأينا رئيس الاساقفة مخاطرًا بنفسهِ في سبيل انقاذ الملك العادل . ونزيد على ذلك ان رتشرد كتب الى لوسيان ملك القدس من معسكرهِ امام عسقلان يقول : —

" تترامى اليَّ اخبار سوء عنك فيصعب عليَّ تصديقها . على انهُ لابُدَّ لي ان اسألك عما حملك على تكبيل البطل الذي عفا مرتين عن حياتي وحريتي ؟ وكيف يصحُّ ان يكون الملك العادل اسيرًا حيث لوسيان الآمر الناهي ؟ هذا لا استطيع تصديقهُ ولا بدَّ ان يكون الملك العادل الآن قد انضمَّ الى اخيهِ ولوسيان قادمٌ اليَّ ليساعدني على قهر خصمهِ في ساحة النزال "

وفي وسط الغابة التي اجتازها الملك العادل بعد ما خرج من السجن لقي فصيلة من جنود الافرنج وكان اعزل من غير سلاح فتوقع الهلاك لا محالة . ولكنهُ عرف قائدها دوق برجندي عندما دنا منهُ وقال لهُ : —

" ايها الملك اني اياك طالب . وقد أُرسلتُ سرًّا من قبل الاميرة متيلدة لاحرسك في السجن ولكني لم اجدك هناك ومن ذكر اسم رئيس الاساقفة علمت انهُ اتاك واطلق سبيلك فهنا جواد واسلحة فاركب واذهب استردَّ مقامك في جيش صلاح الدين . اما انا فساذهب اولاً الى الاميرة متيلدة لاخبرها باني اتممت امرها ثم اسرع الى ملاقاتك في ميدان الطعن والضرب في سهل عسقلان "

فلم يعجب الملك العادل من هذه الشهامة لانها كانت شيمة الفرسان حينئذٍ فركب الفرس وتقلَّد الاسلحة وسار حتى بلغ عسقلان فرأى السكوت والخمول سائدين عليها . ولما دخل قصر اخيهِ قال لهُ صلاح الدين : —

" لم اتوقع ان اراك هكذا بعدما استودعتك قيصرية "

" حقًّا اني مجرم اثيم وقد دنست اسم الايوبيين ولستُ مستحقًّا ان ادعى اخاك . لاني استهنت باقدس واجباتي "

" قل لي باية معجزة تمكن لوسيان من اخذ قيصرية منك ؟ "

فقصَّ عليهِ الملك العادل تفصيل كل ما حدث ولم يحاول ان يبرّر نفسهُ من تبعة خطاءهِ

فقال لهُ اخوهُ : —

"ان محمداً وخالداً هنا وقد اخبراني بكل ما قلتهُ لكنهما لم يعظما لي خطأك كما عظمتهُ انت . والآن قل لي على اي شيء عزمت ؟ اي تعويض مزمع ان تعوض شعبك وبلادك ؟"

"إجمع قواد جيشك ودع محمداً يقصُّ عليهم تفصيل ما اصابنا ويطلعهم على اسباب ذلك . وانظر ما يحكمون بهِ عليَّ ولا تتأخر عن تنفيذهِ"

فجمع السلطان امراءهُ وقادة جيشهِ وامر محمداً فقص عليهم تفصيل ما جرى في قيصرية بالحرف لم يخفِ عنهم شيئاً . ولما فرغ من حديثهِ التفت صلاح الدين الى الامراء والقادة وجميع نوَّاب الشعب الذين دعاهم الى حضور هذا الاجتماع وقال لهم : —

"اذا كان بينكم شخص واحد يرى الملك العادل غير اهل لاسترجاع مقامهِ ورتبتهِ في جيشنا فاني مستعدٌّ للعمل بموجب رأيهِ"

ثم نظر فرأى جميع الوجوه شاخصةً اليهِ والدموع تنهلُّ من سماء الاجفان وسمع الشفاه تنطلق بالدعاء للملك العادل والجميع مبتهجون بتوقع رجوعهِ الى تولي قيادة الجيش العامة . ولاحظ الملك العادل نفسهُ هذا الامر فتأثر منهُ الى الغاية ونهض والدمع مالئٌ عينيهِ وقال :—

"ارجو ان اكون في المستقبل موضوع ثقتكم كلكم . فقد دفنت جميع آمالي في اكفان الماضي ووقفت نفسي منذ الآن على خدمة سلطاني وبلادي"

الفصل التاسع والاربعون

معركة عسقلان

ولما ذاع في قيصرية خبر نجاة الملك العادل لم يستطع احدٌ كشف طريقة نجاتهِ سوى لوسيان فانهُ حالاً عرف الرجل الذي يقدم على مخالفة اوامرهِ وعلم ان لاسقف صور وحدهُ حقَّ دخول السجون بلا معارض . وعرف ايضاً ان ذلك الاسقف لا يهتم بالتباهي بهذا العمل اكتساباً لمدح الناس وشكرهم فحاول ذخر هذا الفخر لنفسهِ واشاع انهُ هو الذي ارسل رئيس الاساقفة لاطلاق الملك العادل

وتعجب الافرنج عند سماع هذه الاشاعة وكثيرون منهم شكّوا في صحتها . وبلغت رئيس الاساقفة عند دخولهِ قيصريةَ فلم يجب على الاسئلة التي وجهت اليهِ بخصوصها بسوى السكوت وسار توًّا الى قصر لوسيان

ولما خلا بهِ وبخهُ توبيخاً شديداً على عملهِ المعيب فاعترف بهِ ولم ينكر منهُ شيئاً وحاول ان يقنعهُ بان مصلحة البعثة تقضي باخفاء هذه المعايب وانهُ انما نسب اطلاق الملك العادل اليهِ ليسكن هياج الشعب وتذمرهم من جهتهِ وتوسل اليهِ ان يثبت هذه الاشاعة ويصدقها فابى عليهِ ذلك وانحى عليهِ باللوم الشديد ووجه سهام طعنهِ على الخصوص نحو كبريائهِ وتشامخهِ وانذرهُ بانهُ اذا عاد مرة اخرى الى شيء من مثل هذا اطلع الناس عموماً على صفاتهِ الحقيقيَّة وجعلهُ مضغة في افواه المحتقرين والمستهزئين

وبلغ رتشرد ان الملك العادل انضم الى اخيهِ فارسل في الحال وطلب حضور لوسيان اليهِ بجميع الجنود التي تحت قيادتهِ واوعز الى اختهِ متيلدة بالحضور اليهِ مع ملك القدس فاطاعت الامر مكرهة وذهب رئيس الاساقفة معها

وكان رئيس الاساقفة قد ابلغها خبر اطلاق الملك العادل وانهُ ابرأها من وعدها لهُ فشعرت بأنَّ العالم بامرهِ لم يبق لهُ اقل حقٍّ عليها وعزمت ان تستعدَّ لاسترجاع نذورها والانقطاع الى الابد عن افراح الدنيا واحزانها وكل ما يتعلق بها . واطلعت اخاها على ذلك فغاظهُ جدًّا لانهُ جاء على خلاف ما كان يرجوهُ ويتوقعهُ منها ولا سيما بعد ما اكتسب لوسيان حسب اعتقادهِ شرف فتح قيصرية فسألها عن تأثير غضبهِ فيها فقالت : —

" اخاف من تأثيرهِ فيك واما فيَّ فلا تأثير لهُ على الاطلاق لانَّ نصيبي محتمٌ ولا يثنيني عنهُ سوى الموت وهذا لاخوف منهُ عندي ابدًا "

فتعجب رتشرد من ثبات عزمها الذي لم يرَ لهُ شبيهاً عند اربط الرجال جاشاً واثبتهم عزماً . ورأى نفسهُ مضطرًّا للاذعان والانقياد الى سلطةٍ ادبيَّة سامية رآها في مَن لم يبقَ للعالم سلطة عليها وقد لاحت لعينيهِ اشبه شيء بملاكٍ سماويٍّ

وبعد مضيِّ يومين شاهد الافرنج كتائب العرب خارجةً من ابواب عسقلان فاستعدوا هم ايضاً للقتال

وخلا لوسيان بحامل سلاحهِ الذي استعان بهِ على اخذ قيصرية وامر الملك العادل وكان رجلاً محتالاً سافط المروءة كثير الجشع والطمع وقد استعبدهُ ملك القدس بالبذل وسخَّرهُ لاتمام مقاصدهِ الاثيمة . فقال لهُ : —

" اني عازم على شيء ذي شأن في هذا اليوم المهم . يجب ان القى الملك العادل . ولا يهمني ان اذوق كاس الحتوف على يدهِ بشرط انهُ لا يحيا بعدي دقيقةً واحدةً فابقَ بجانبي مدة المعركة ولا تفارقني طرفة عين . واذا تمكنتُ من اجتذابهِ وابعادهِ عن رجالهِ فاتبعني

واذا رأيتني مستظهراً عليهِ فالزم السكون ولا تبدِ حراكاً . ولكن اذا سقطتُ فاني اعتمد على امانتك واخلاصك . لا تنسَ اياك ان تبقيهُ حيًّا بعدي "

ثم خرج جيش الافرنج من المعسكر لملاقاة جيش صلاح الدين . وكان رتشرد القائد العام فوقف على مرتفع اشرف منهُ على اطراف الجيش وشاهد الكتائب كلها مستعدة تمام الاستعداد ومصطفة بكمال الترتيب والنظام فشاقهُ منظرها المهيب وصاح من شدة فخرهِ واعجابهِ : —

" اللهمَّ كن على الحياد يكن النصر لنا "

ثم برز الجيشان وهما متساويان في الحميَّة والحماسة واخذا يقتربان احدهما من الآخر شيئاً فشيئاً حتى تلاقى الابطال وتلاحموا وتزاحموا وحمي وطيس الطعن والضرب وثار الغبار فوقهم فحجبهم عن الابصار واصدت التلال والاودية بصليل الاسلحة وصهيل الخيل وانين الجرحى

وكان لوسيان يصول ويردي ويصرع ويجندل ببأس شديد وعزم يفلُّ الحديد وقد احفظهُ جدًّا انهُ لم يلقَ من يطلبهُ وزاد بأسهُ وعزمهُ اشتداداً فانتصر في القلب وكان الظفر حليف رتشرد في الميسرة اما جيش الميمنة فلم يستطع الثبات امام صلاح الدين . على ان ذلك لم يضعف عزم الافرنج بل زادوا ثباتاً واقداماً . واذا بالملك العادل ظهر في ساقتهم فزعزع اركانها وانقضَّ على الميمنة فضعضع رجالها وعطف على القلب فقطع عزائم جنودهِ وحول كفة النصر الى جهة العرب . فشق ذلك على لوسيان وعزم ان يستميل خصمهُ اليهِ ويلهيهُ بنزالهِ ويمكِّن الافرنج من استرجاع مراكزهم واذا دارت عليهِ الدائرة فهو واثق انها تدور ايضاً على عدوهِ بفضل خادمهِ الذي لم يكذبهُ قط . فنادى الملك العادل ودعاهُ الى مبارزتهِ فلم يحفل بهِ وعزم ان يتجنب المبارزة في ذلك اليوم لئلا تحول دون احراز النصر الذي ارادهُ

لكنَّ لوسيان تبعهُ من مكان الى آخر واسرف في تعييرهِ وتحقيرهِ حتى هاج ساكن غضبهِ ولم يعد يمكنهُ الصبر عليهِ وظنَّ انهُ في بضع دقائق يقطع لسانهُ البذيَّ ويسرع الى ساحة القتال قبلما يشعر احدٌ بخروجهِ منها . فنادى لوسيان وقال لهُ : —

" لنسرع الى اطفاء نار الحقد التي تغلي في قلبينا "

فتبعهُ لوسيان وخادمهُ وراءهُ حتى بلغ الملك العادل صخراً كبيراً قائماً وراء ساقة الجيش يحجبهما عن النظر والقى ترسهُ جانباً وقال لخصمهِ : —

" لنتجنَّب وسائل الدفاع تعجيلاً للدقيقة التي تنقطع فيها انفاس احدنا المعدودة "

فخذا لوسيان حذوهُ واستل سيفهُ وابتدأ الصدام وبعد اخذ ورد وكرّ وفرّ عاجل الملك العادل لوسيان بضربة من سيفهِ اصابت رأسهُ وفلقت خوذتهُ وصبغت وجههُ وعينيهِ بالدماء. فخلع الملك العادل خوذتهُ وتوقف عن استئناف الضرب ليمكن خصمهُ من الثبات في موقفهِ. ولكنهُ لم يتمكن من موقفهِ حتى القى بنفسهِ فجأةً بلا اقل انذار على الملك العادل فلم يستطع ان يدفعهُ عنهُ وأُصيب منهُ بجرح في فخذهِ. وحاول لوسيان اعادة الكرة عليهِ فخلا الملك العادل من طريقهِ وابتدرهُ بضربةٍ أسالت دماءهُ. ثم غير لوسيان بغتة خطة قتالهِ وتحمّل بصبر هجمات عدوهِ غير متعدٍ حد الدفاع وخلا من ضرباتهِ دائرًا حولهُ بسرعة مدهشة محاولاً ملاشاة قوة خصمهِ الآخذة في الانحطاط بالارهاق وفقد الدم — لكنّ الملك العادل سئم هذه المحاولة والمطاولة وقبض على لوسيان بيد كأنها من حديد ورمى بهِ الى الارض وانطرح فوقهُ ورفع يدهُ واجهز عليهِ واذا بحامل سلاح لوسيان الذي شاهد المعركة من اولها ورأى سيدهُ طريحًا تحت خصمهِ قد اسرع من ورائهِ ليبتدرهُ بطعنة خنجر في صدرهِ وقبل ان يفعل ذلك سمع صوتًا ارتجت لهُ الجبال والاودية فالتفت واذا برتشرد قلب الاسد يقول لهُ خلِّ عنك ايها الغدار ثم ترجل وامسك بيد الملك العادل وقال لهُ واحدة بواحدة ايها الملك فاني استطيع الآن ان اروي سيفي بدمك ولكن حاشا لي ان افعل ذلك بمن منّ عليَّ بانقاذ حياتي وحياة كثيرين من رجالي ثم اعتنقهُ واركبهُ على جوادهِ وارسل معهُ مَن سار بركابهِ الى ان وصل الى اخيهِ. وتهادن الملكان الى ان عقدت شروط الصلح

الخاتمة

وبعد سنة كانت اخت رتشرد واقفة في احد ابراج دير الكرمل فرأت في البحر سفينة عليها شعار الاسرة المالكة في انكلترة ومقدّمها متجه غربًا نحو ارض ميلادها. لان رتشرد وبرنغاريا وباقي انسبائها واصدقائها كانوا راجعين الى الوطن. فتنهدت تنهد الاسفِ لكنها عادت فافتكرت انها لا تزال في البلاد التي يملكها مَن ملك فؤادها. فبدت على وجهها ابتسامة عزاء كفكفت دموعها لانها لا تزال معهُ في بلاد واحدة ولو لم تره الاَّ بعين الخيال

تمت

DATE DUE

SAFET LIB.

14 OCT 1957

26 SEP 1957

SAFET LIB.

داغر، اسعد خليل
رواية اميرة انكليزية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031387
848